أول تأميم في العراق

ناجي معروف

١ ـ تأميم السواد في العراق

لقد كان للعرب في صدر الاسلام والعصور التي تلت نظام اقتصادي رائع، وضع الرسول (ص) اسسه واتمه خلفاؤه من بعده. ووضع له الفقهاء خلال العصور قواعد ثابتة، واقيسة دقيقة. وتظافرت في تكوينه جهود المسلمين الدينية والدنيوية. وروعي في وضعه خوف الله تعالى ومصلحة المسلمين، حتى بلغ درجة من الكمال لم تظفر بها امة من الامم قديمها وحديثها. وألف العلماء، والفقهاء كتبا ممتعة، وفصولا مستفيضة عن الاموال والضرائب والواردات على اختلافها ككتاب الخراج للامام أبي يوسف وكتاب الاموال لابن سلام، وكتاب الخراج ليحى بن آدم ... الخ. وسابحث في هذا الحديث موضوع الخراج في العراق، وأسباب تأميم عمر بن الخطاب (رض) ارض السواد، وأرض الشام، ومصر وجعلها ملكا للدولة. ولم يجعلها ملكا للاشخاص والاقطاعيين رغم انها فتحت عنوة، وما فتح عنوة يقسم بين الفاتحين، بل احتفظ بها للتوسيع على المسلمين في عطائهم، ولشحن الجيوش، وحماية الثغور.

لقد كان عمر بن الخطاب (رض) واحدا من عظماء المؤسسين للدول في العالم، ومن كبار المشرعين فقد كان يهدف في اعماله التي قام بها الى اهداف بعيدة، ويرمي الى خلق دولة اسلامية ترتكز على دعائم ثابتة تتمثل فيها فكرة البقاء، والخلود، لا الارتجال والزوال. ولذلك لم تكن اعماله مرتجلة بل كانت مبنية على اساس متين من الروية والتفكير والاستشارة. خذ على ذلك ما عمله ١ ـ في تدوين الديوان، وحفظ ما تعلق بحقوق الدولة من الاعمال والاموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال. وبذلك وضع الجيش على اسس ثابتة من الناحيتين المالية والعسكرية. ٢ ـ ما عمله في استقلال القضاء. وتركيزه على اسس قويمة، وتعيين القواعد الثابتة التي

يجب على القضاء اتباعها في حل الخصومات وفض الخلافات ٠ ٣ ـ ما عمله في وحدة الجزيرة العربية حين اجلى عنها غير المسلمين ٠ ٤ـ ما عمله في تمصير الامصار وتمدين المدن كالفسطاط في مصر ، والكوفة والبصرة في العراق وذلك لترسيخ قدم العرب في البلاد المفتوحة ، ولتكون دار هجرة لهم ، ومعسكرات لحامياتهم التي بها يوطدون سلطانهم في العراق ،وفارس، ومصر ٠ وليحموا منها ثغورهم ، ويمدوا أهل الامصار بالجيوش ٠ ٥ ـ ما عمله في مسح البلاد المفتوحة وحفر القنوات فيها ٠ ٦ ـ ما عمله في تقنين الضرائب وجعلها على اسس ثابتة لتأمين واردات الدولة من الجزية ، والخراج ، والضرائب الاخرى ٠

واليكم الآن عملا من اعظم اعماله التي تتجلى فيها عبقريته الفذة وهو تأميم الاراضي المفتوحة ، وعدم تقسيمها بين الفاتحين ، وذلك لايجاد مورد ثابت للدولة يكفل نماءها ، وتطورها خلال العصور بعد ان لاحظ ان الغنائم غير دائمة لاحتمال توقف الحروب ٠ وأن الزكاة ، والصدقات تصرف في وجوه معينة لا يزيد ما ينفق منها في سبيل الله على الثمن وان الجزية في تناقص مستمر بسبب اقبال الذميين على الاسلام ٠

لقد فتح العرب في خلافة عمر بن الخطاب (ر) بلاد الشام ، والعراق ، وفارس ، ومصر ٠ وغنم العرب الفاتحون غنائم كثيرة من الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين قسمها قوادهم بينهم فأصاب كل فرد منهم مال وافر غير انهم لم يكتفوا بما افاء الله عليهم من مغانم الفتح بل سألوا أبا عبيدة بن الجراح في الشام وسعد بن ابي وقاص في العراق ، وعمرو بن العاص في مصر ان يقسموا بينهم المدن المفتوحة وأهلها ٠ والارض المفتوحة وعلوجها، وما فيها ، كما تقسم سائر الغنائم ٠ فكتبوا الى عمر (ر) يسألونه رأيه وكان قد استقر رأيه بعد التفكير العميق الا يقسم الارض ، ولا اهلها ٠ فاستشار اصحاب الرسول (ص) فأدلى كل واحد منهم برأيه وانقسم الصحابة الى كتلتين كتلة تؤيد عمر (ر) والاخرى تعارضه ٠

وأراد المعارضون ان يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا ٠ فقال عمر (ر) : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض بعلوجها قد اقتسمت ، وورثت عن الآباء ، وحيزت ؟ ٠ ما هذا برأى ٠ فقال له عبدالرحمن بن عوف ٠ فما الرأي ؟ ما الارض ، والعلوج الا مما افاء الله عليهم ٠ فقال عمر (ر) : نعم هو كما تقول ولكني لست أرى هذا الرأي ٠ والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى ان يكون كلا على المسلمين ٠ فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ فأشتدت المعارضة ٠ وقال المعارضون لعمر (ر) : أتقف ما افاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ، ولم يشهدوا ، ولابناء القوم ولابناء ابنائهم ، ولم

يحضروا • فكان عمر (ر) لا يزيد على ان يقول : هذا رأيي • فقال له : استشر • فأستشار المهاجرين الاولين فأختلفوا • فأما عبدالرحمن بن عوف فكان رأيه ان تقسم لهم حقوقهم • وكان أشد الناس عليه الزبير ابن العوام وبلال بن رباح واصحابه • وكان رأي عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة بن عبيدالله ، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم كرأي عمر بن الخطاب (ر) • وتكلم علي بن ابي طالب (ر) عن أهل السواد موافقا على رأي عمر فقال له « دعهم يكونوا مادة للمسلمين » ولم يكتف عمر (ر) بذلك بل ارسل الى عشرة من الانصار ، خمسة من الاوس ، وخمسة من الخزرج من كبرائهم ، واشرافهم • فلما اجتمعوا قال لهم : اني لم ازعجكم الا لان تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فاني واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقسرون بالحق ، خالفني من خالفني ، ووافقني من وافقني • ولست اريد ان تتبعوا هذا الذي هواي • معكم من الله كتاب ينطق بالحق • فوالله لئن كنت نطقت بأمر اريده ، ما اريد به الا الحق • قالوا : نسمع يا امير المؤمنين • قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا اني أظلمهم حقوقهم واني اعوذ بالله أن اركب ظلما • لئن كنت ظلمتم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت • ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد ارض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وارضهم ، وعلوجهم • فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله • وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وانا في توجيهه • وقد رأيت ان احبس الارضين بعلوجها • وأضع عليهم فيها الخراج ، وفي رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة ، والذرية ، ولمن يأتي بعدهم • أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها • أرأيتم هذه المدن العظام ـ كالشام ، والجزيرة ، والكوفة ، والبصرة ، ومصر ؟ لابد لها من أن تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء عليهم • فمن اين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون ، والعلوج؟ فقالوا جميعا : الرأي رأيك فنعم ما قلت ، وما رأيت • ان لم تشحن هذه الثغور ، وهذه المدن ، بالرجال وتجر عليهم ما يتقون به رجع اهل الكفر الى مدنهم •

لقد مكث عمر (ر) في ذلك يومين او ثلاثة او دون ذلك • ثم قال يرد على من كان يعارضه : اني قد وجدت حجة في كتاب الله تعالى • وتلا عليهم عدة آيات تتعلق بالفيء وقسمته فقرأ عليهم : « ما افاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم • وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » « للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون » فهؤلاء هم المهاجرون الاولون •

ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة · ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ·

فهذا للانصار خاصة ·

ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » ·

فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم ·

أما وقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعا فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بدون شيء ؟ فأجمع على ترك القسمة وقرر ابقاء الارض ، وفرض الخراج عليها والجزية على اهلها · وكتب الى عمرو بن العاص · عامله على مصر : « ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب الى من فيء يقسم ثم كأنه لم يكن » ·

وكتب الى سعد بن ابى وقاص عامله على العراق « فاذا اتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك فى اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء » · وكتب مثل ذلك الى ابى عبيدة عامله على الشام ·

ويروى البلاذرى ان الخليفة عمر بن الخطاب (ر) عمل برأى معاذ بن جبل فلم يقسم ارض الشام بين الفاتحين من المسلمين · ويذكر المؤرخون ان معاذا قال له : والله لئن قسمتها ليكونن ما نكره · ويصير الشيء الكثير فى أيدى القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ثم يأتى من بعدهم قوم يسدون الاسلام سدا فلا يجدون شيئاً فأنظر أمرا يسع أولهم وآخرهم فصار عمر (ر) الى قول معاذ (ر) ·

ومهما يكن من أمر فانه بعد ان استقر رأى عمر (ر) على الاحتفاظ بسواد العراق لخزينة الدولة ، وعدم تقسيمه بين الفاتحين عامل أهله الذين لم يسلموا معاملة الذميين · ووضع الجزية على رؤوسهم ، وأبقى الاراضى بأيديهم · وجعل أهلها يستغلونها لمصلحة الدولة مقابل خراج يدفعونه لبيت المال · ولذلك قرر مسح السواد · وكان السواد يمتد طوله من حدود الموصل مارا مع الماء الى ساحل البحر ببلاد عبادان · وعرضه من أرض حلوان أى من حدود ايران الى طرف القادسية المتصل بالعذيب من ارض العرب ·

وبعد ان تم المسح قدر على كل جريب من الارض ما يحتمله وقد استعمل لذلك الصحابيين المشهورين : عثمان بن حنيف وكان له بصر وعقل وتجربة ، عينه على ما سقى الفرات · واستعمل حذيفة بن اليمان على ما سقت دجلة · فبلغت مساحة السواد ٣٦ مليون جريب · ووضع على كل

جريب مقادير معينة من الدراهم والاطعمة تتراوح بين الدرهمين والعشرة تختلف بحسب ما يزرع فيها من الكروم ، والنخيل ، والحبوب .

وعندما أتما مسح العراق قال لهما : اخشى انكما حملتما الارض ما لا تطيق وذلك رأفة بالزراع ورحمة للفلاحين . فكان جوابهما لو شئنا لاخذنا فضلا أي لوضعنا ضريبة اكثر لان الارض تحتمل اكثر بكثير مما قدرنا عليها.

وفي أواخر خلافة عمر بلغ خراج السواد ١٠٠ مليون درهم وفي رواية ١٢٨ مليون درهم أي نحو أكثر من ١٠ ملايين دينار وضعت ببيت المال . لقد منع عمر (ر) بهذا التشريع وهو تأميم الارض الشراء الفردي ، وكفل المصلحة العامة . وضمن حياة المجموع بهذا الضمان الاجتماعي العادل حتى يروى عنه انه قال : لئن بقيت لارامل أهل العراق لادعهن لا يحتجن الى احد بعدي . كما قال لئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه .

ان الخراج الذي سنه عمر (ر) هو الضريبة التي كانت الدولة تتقاضاها عما تخرجه الارض من الغلات والحاصلات . وقد ظلت الدولة تتقاضاها على الاساس الذي عينه عمر (ر) وهو ما يعرف (بخراج الوظيفة) مدة تقرب من قرن ونصف القرن الى أن أبدل ابو جعفر المنصور هذا النظام العمري المذكور بنظام « المقاسمة » . ثم جاء بعده ابنه المهدي ونفذه ، وملخصه ان تأخذ الدولة نصف الحاصل على المزروعات التي تسقى سيحا . والثلث على ما يسقى بالدوالي (الكرود) . والربع على ما يسقى بالدواليب (النواعير) .

لقد جعل عمر (ر) الخراج على الارض التي تركت بأيدي اهلها يشتغلون فيها لحساب المسلمين على اساس المساحة زرعت ام لم تزرع . وكان لصاحب الارض سواء أكان ذميا أو مسلما ان يتصرف بأرضه كيفما شاء ، على ان يؤخذ الخراج المفروض عليها ممن يتصرف بها . واذا اسلم احد من سكان الارض الخراجية سقطت عنه الجزية فقط . واقرت ارضه في يده يعمرها ويؤدي عنها الخراج كما قال الامام مالك . ولا يسقط عنه الخراج اذا اسلم كما يظن البعض . ويرى بعض الفقهاء ان المسلم يدفع الخراج عن أرضه باعتبار ان الارض ملك الدولة . ويدفع الزكاة عن الزرع بعد الخراج . بينما يرى الامام ابو حنيفة واصحابه ان الخراج والزكاة لا يجتمعان على رجل واحد .

وكان الخراج يؤخذ مرة واحدة في السنة ولو زرعت الارض الخراجية عدة مرات في السنة الواحدة . بينما يرى بعض الفقهاء ان يؤخذ الخراج من الزراع كلما ادركت له غلة . وهذا ما كانت تفعله الحكومة في نظام الاستهلاك . عندما كان مطبقا في العراق قبل ثورة ١٤ تموز .

وكانت الدولة تقول للرجل اذا عطل ارضه : ازرعها وأد خراجها والا فادفعها الى غيرك يزرعها . اما ارض العشر وهي الارض التي قسمت بين

الفاتحين وأصبحت ملكا صرفا لهم فلا يقال لصاحبها فيها شيء ان لم يزرعها، وان زرعها اخذت منه الصدقة فقط ومقدارها العشر • ومثل ذلك يقال عن أرض الصلح •

واذا كانت الارض من نوع الموات ومن الارض التى فتحت عنوة واحياها مسلم فهى له وعليها الخراج ايضا ، ان كانت تسقى من ماء الخراج • فان كانت تسقى من الديم او استنبط لها عينا فتكون عشرية كما قال الامام ابو يوسف •

ولما انتظم أمر جباية الخراج على الطريقة التي وصفناها جمع عمر بن الخطاب (ر) اصحاب الرسول (ص) وقال لهم : انى قد رأيت ان افرض العطاء لاهله • فقالوا : نعم ما رأيت يا أمير المؤمنين • وقيل جاءه ابو هريرة بأموال وفيرة من البحرين ربما بلغت نصف مليون درهم فخطب فى الناس قائلا لهم : انه قدم علينا مال كثير فان شئتم عددناه لكم عدا • وان شئتم كلناه لكم كيلا • وان شئتم وزناه لكم وزنا •

وقد ذكرنا قبلا ان ما جباه عمر (ر) من سواد العراق وحده بلغ ١٢٨ مليون درهم فى السنة فلابد من تقسيم هذه الاموال بين المسلمين فسأل عمر (ر) الصحابة فقال لهم : بمن أبدأ قالوا : بنفسك قال : لا ولكنى اضع نفسى حيث وضعها الله ، وأبدأ بآل رسول الله (ص) • ونظم سجلات ، ودواوين دون فيها أسماء المسلمين بحسب قرابتهم من الرسول • وسبقهم الى الاسلام • وبلائهم فيه • واشتراكهم فى الحروب وما قاموا به من خدمات مجيدة للدولة • واذا استووا فى القرابة قدم اهل السابقة منهم • وقد عمل له هذه السجلات كل من : عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم • دونوها له باللغة العربية ، وأمرهم ان يكتبوا فيها الناس على منازلهم فبدأوا ببنى هاشم • ثم اتبعوهم ابا بكر وقومه • ثم عمر وقومه • وذلك على اساس الخلافة • فلما نظر عمر ذلك قال : وددت والله انه هكذا ولكن ابدأوا بقرابة النبى (ص) الاقرب فالاقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله تعالى فجاء الى عمر (ر) قومه من بني عدي يريدون ان يقدمهم على سائر الناس ، يقولون له انت خليفة رسول الله ، وخليفة أبي بكر ، وابو بكر خليفة رسول الله فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا فقال : بخ بخ بني عدي أردتم الاكل على ظهري وان أهب حسناتي لكم : لا والله حتى تأتيكم الدعوة وأن يطبق عليكم الدفتر ــ يعنى ولو ان تكتبوا آخر الناس ــ ان لي صاحبين سلكا طريقا فان خالفتهما خولف بي • والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا ، وما نرجو الثواب على عملنا الا بمحمد (ص) فهو شرفنا • وقومه أشرف العرب • ثم الاقرب فالاقرب • والله لئن جاءت الاعاجم بعمل ، وجئنا بغير عمل لهم اولى بمحمد منا يوم القيامة • فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه •

٣ ـ تنظيم العطاء بعد تأميم أرض العراق

كان ابو بكر الصديق (ر) يقسم المال بين الناس بصورة متساوية ، ولا يفضل احدا على أحد في العطاء السنوى فقيل له : « يا خليفة رسول الله • انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس فمن الناس أناس لهم فضل ، وسوابق وقدم فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم ! فقال : « أما ما ذكرتم من السوابق ، والقدم ، والفضل ، فما أعرفنى بذلك وانما ذلك شيء ثوابه على الله • وهذا معاش ، فالاسوة فيه خير من الاثرة » • والذين « عملوا لله فأجورهم على الله وانما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر ، وليس ثمنا لاعمالهم » •

اما عمر بن الخطاب (ر) فلم يسو بين الناس فى العطاء كما كان يفعله ابو بكر (ر) فقيل له بذلك فقال : « لا اجعل من قاتل رسول الله (ص) كمن قاتل معه » • أى انه لم يرد ان يجعل اولئك الذين حاربوا الرسول وقاتلوه وآذوه ثم أسلموا كأولئك الذين اسلموا من اول يوم وقاتلوا معه جنبا الى جنب وشهدوا جميع حروبه ولذلك قسم عمر (ر) الناس الى فئات متمايزة فى العطاء • قسمهم الى : آل الرسول من النساء • ثم اقارب الرسول من بنى هاشم • ثم الى طبقة البدريين • وطبقة أحد • وطبقة الاحزاب الى ان وصل الى القادسية واليرموك وخصص لكل واحد منهم راتبا سنويا • وجعل فى رأس القائمة أم المؤمنين عائشة بنت ابى بكر الصديق • وفرض لها ١٢ الف درهم فى السنة • وجعل لكل واحدة من زوجات الرسول (ص) عشرة آلاف درهم فى السنة ، الا جويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حيى بن أخطب اذ خصص لكل منهما ٦ آلاف درهم سنويا لانهما كانتا مما افاء الله على رسوله (ص) • وفرض للعباس عم الرسول (ص) ٥٠٠٠ درهم • وفرض لعمر بن مسلمة ٤٠٠٠ درهم • ولاسامة بن زيد ٤٠٠٠ درهم لمكانتهما من الرسول (ص) كما خصص لسلمان الفارسى ٤٠٠٠ درهم ولعمار بن ياسر ٦٠٠٠ درهم فى السنة •

اما اهل بدر فلم يفضل احدا عليهم الا زوجات الرسول (ص) • وتجمع الآراء على ان عمر (ر) خصص لكل واحد ممن اشترك فى بدر الكبرى من المهاجرين والانصار ٥٠٠٠ درهم فى السنة(١) وقيل ٦٠٠٠ درهم للصرحاء منهم أى العرب الخلص ، ولحلفائهم ، ولمواليهم على السواء وقيل انه فرض لاهل بدر المهاجرين من العرب والموالى ٥٠٠٠ درهم وللانصار ومواليهم ٤٠٠٠ درهم •

وفرض لمن كان له اسلام كاسلام اهل بدر ، ومن هاجر الى الحبشة واشترك فى أحد ٤٠٠٠ درهم سنويا •

وخصص لكل واحد من ابناء البدريين ٢٠٠٠ درهم الا الحسن والحسين فانه الحقهما بفريضة ابيهما لقرابتهما من الرسول (ص) فجعل لكل واحد

منهما ٥٠٠٠ درهم في السنة ٠

وخصص لكل من هاجر قبل فتح مكة ٣٠٠٠ درهم في السنة ٠ كما خصص لكل واحد من الذين اسلموا في اثناء فتح مكة ٢٠٠٠ درهم سنويا وجعل لكل واحد من الاحداث والشبان من ابناء المهاجرين ٢٠٠٠ درهم سنويا ٠

وخصص لكل امرأة من النساء الصحابيات المهاجرات ٣٠٠٠ درهم سنويا الا صفية بنت عبدالمطلب عمة الرسول فقد فرض لها ٦٠٠٠ درهم سنويا وفرض لنساء أخريات ١٠٠٠ درهم سنويا لكل واحدة منهن كأسماء بنت عميس ٠ وأم كلثوم بنت عقبة وأم عبدالله بن مسعود(٢)٠

وفرض للموالي الذين اسلموا من الفرس والروم رواتب سنوية ايضا والحقهم بالموالي من العرب ٠ ويروى عنه انه كتب الى امراء الاجناد « ومن اعتقتم من الحمراء (أي العجم والروم) فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ٠ وان احبوا ان يكونوا قبيلة وحدهم فأجعلوهم اسوتكم في العطاء والمعروف(٣) » كما يروى ان قوما قدموا على عامل لعمر (ر) فأعطى العرب وترك الموالي فكتب اليه عمر [اما بعد فبحسب المرء من الشر ان يحقر اخاه المسلم](٤) وخصص للهرمزان بعد اسلامه ٢٠٠٠ درهم سنويا ٠

وهكذا فرض عمر (ر) للناس مخصصات وجزيات سنوية بحسب منازلهم وجهادهم وحاجتهم وجعل من بقي من الناس بابا واحدا فألحق من جاءه من المسلمين بالمدينة في ٢٥ دينارا لكل رجل أي في ٣٠٠ درهم ٠ وفرض لآخرين معهم ٠ ثم فرض لليمانيين وللقيسيين الذين بالشام والعراق لكل رجل مبلغا يتراوح بين ٢٠٠٠ درهم الى ٣٠٠ درهم ولم ينقص احدا عن ٣٠٠ درهم سنويا ، ويروى عنه انه قال : « لئن كثر المال لافرض لكل رجل ٤٠٠٠ درهم الفا لسفره ، والفا لسلاحه ، والفا يخلفه لاهله ، والفا لفرسه ونعله(٥) ٠

وكان عمر يفرض للطفل المولود ١٠٠ درهم في السنة فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ درهم ٠ وقيل كان عمر (ر) لا يخصص شيئا للمولود حتى يفطم ، غير أن الامهات فيما يظهر صرن يعجلن في فطام اولادهن فخشى عمر على الاطفال أن يصيبهم الضعف فأمر مناديه فنادى : (لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام)(٦) وكتب الى عماله وولاته في الآفاق ان يخصصوا راتبا سنويا لكل مولود في الاسلام ٠

وكان عمر (ر) يخصص ايضا لكل لقيط ١٠٠ درهم ٠ ويعين له رزقا يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثم يزيده من سنة الى سنة ٠ وكان يوصى بهم خيرا ، ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال(٧)٠

لقد كان اغتباط الناس عظيما بهذه التدابير التى اتخذها عمر بن الخطاب

(ر) لتأمين الضمان الاجتماعي في البلاد الاسلامية فقد شعر النـاس أنهم يعيشون في بحبوحة من العيش وفي شيء من العزة ، والسعادة والكرامة يظهر لنا ذلك جليا من قوله لخالد العذري حين قدم عليه يسأله عن أحوال الناس ورأيهم في اجراءاته فقال : « تركتهم يسألون الله لك ان يزيد في عمرك من اعمارهم • ما وطيء احد القادسية الا وعطاوءه الفان او خمس عشرة مئة ، وما من مولود ذكرا كان أو أنثى الا الحق في مئة وجريبين في كل شهر » • قال عمر : « انما حقهم وأنا أسعد بأدائه لو كان من مال الخطاب ما اعطيتموه • ولكن قد علمت ان فيه فضلا فلو أنه اذا خرج عطاء احد هوءلاء ابتاع منه غنما فجعلها بسوادهم فاذا خرج عطاوءه ثانيـة ابتـاع الرأس والرأسين فجعله فيها • فان بقي أحد من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه فاني لا أدري ما يكون بعدي • واني لاعم بنصيحتي من طوقني الله أمره فان رسول الله (ص) قال : من مات غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة » • ولم يكتف عمر بهـذه التدابير التي اتخذها لتأمين راحة امته وبلاده حتى قال يوما : « لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولا فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع عني أما هم فلا يصلون الي ، وأما عيالهم فلا يرفعونها الي فأسير الى الشام فاقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين » • وهكـذا كانت الدولـة العربيـة الاسـلامية الجـديدة تعنى بالامة جمعاء ولا سيما بالضعفاء من الشعب ، وقد روى عن الرسول (ص) انه قال : من ترك كلا فالينا • ومن ترك مالا فلورثته »(٨) •

(١) ابن سلام ص (٣٥) •
(٢) البلاذري ص (٤٣٨) •
(٣) ابن سلام ص (٢٣٥) •
(٤) ابن سلام ص (٢٣٦) •
(٥) البلاذري ص (٤٣٨) •
(٦) البلاذري ص (٤٤٥) •
(٧) البلاذري ص (٤٣٨) •
(٨) ابن سلام ص (٢٣٦) •

خواطر حزينة

في واقعنا الأدبي

عبد الوهاب الأمين

ان من اشد الملاحظات ايلاما للنفس ، هذه الاعالة التى تتحملها البلاد العربية الاخرى لتغذيتنا عقليا ، منذ فترة طويلة من الزمن ٠

فنحن عيال على مصر ، وعلى لبنان ، وعلى سوريا ايضا فى تغذية انفسنا فكريا ٠ ومنذ أن خسرنا أدباءنا وشعراءنا الكبار الذين ورثناهم من العهد العثمانى ـ كالزهاوى والرصافى مثلا ـ لم تتسع حياتنا الفكرية لانتاج عوض عنهم ، بله أن ننتج خيرا منهم ٠

ومنذ الحكم الوطنى حتى الان لم يستطع الاديب العراقى ان يخلق نفسه ٠ فما زلنا نجتر أدبا معادا ، وآخر مقصرا فى الاداء ، وثالثا انهكته السياسة بكل تلونها وانحدارها ٠ ونحن نوهم انفسنا اننا نجتاز عصر نهضة أدبية ٠

وصحافتنا ضئيلة الحجم الادبى ، بل تكاد تكون منعدمة الوجود أدبيا ٠ ففى ما عدا بعض القصص التافهة ، والمقطوعات الخافتة ، لا تكاد تحس أن هناك ما يدعى بالادب موجودا بين صفحات الصحف ، لولا أن بعضها يقترف ـ عن طريق الترجمة ـ شيئا قد يجوز أن يسمى أدبا ، تشوهه الترجمة السريعة ، وهى طبيعة اصيلة فى العمل الصحافى ٠

ويكاد الشعر ينعدم وجوده أيضا الا بمصاحبة النبرة السياسية ٠ أما مكانة الشعر من حيث الكيف فهي اجترار آخر تلقائي لمجد شعري موهوم من موروثات شعرائنا الذين خلفهم لنا العهد العثمانى وحسب ٠

لا شك لدى قط من أن السياسة عندنا قد جنت على الادب ٠ ولكن الوجه الآخر للقضية هو نواة أدبائنا انفسهم ٠ فلو كانت لهم تلك الاصالة الادبية المفروضة فى الاديب الحق ، لما كانوا عجينة فى يد الساسة ٠

ان الادب يتعكز عندنا على السياسة ٠ وهذا اعتراف ضمنى من أديب

اليوم بأنه أقل شأنا من السياسي ، وان الادب جزء من السياسة • وهذا مقلوب الحقيقه قبلناه رأسا وانطوينا فيه •

يقول احد ادباء اليوم(١) صاحب كتاب «ثورة على الفكر العربي المعاصر» في كتابه المذكور :

« ليست هناك قوة في الارض ، لا قوة الافراد ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، تستطيع أن تمنع الاديب من التعبير والقول، وممارسة هذه التى هى معنى وجوده •

« واذا استطاعت قوة ما أن تخرس الاديب ، فان ذلك عائد الى جبنه الخاص ، ما دام غير سجين بعد ، وغير ميت بعد • » •

وهذا صحيح • وتفسيره أن ما يتعلل به بعض الادباء من تضييق عليهم متمثلا في الانظمة السائدة في كل وقت ، انما يكشف عن زيف أدبهم وضعف نواتهم • فلو كانوا ـ كما اسلفنا ـ يملكون الاصالة الحقيقية لما استطاعت أية قوة أن تمنعهم من الانتاج الرفيع •

* * *

ان الدور الذى نجتازه الان ، والذى اجتزناه منذ بداية الحكم الوطنى ، يستدعي أن يكون لدينا الآن جيش معنوى من ادباء خلقوا ضمن اطار هذا الحكم ، وتغذوا بغذاء قرن الذرة ، متطلعين الى غد افضل •

ولكن الواقع أن هناك محلا في ارض السواد • فنحن يأتينا غذاؤنا مع كل بريد من لبنان ومصر • وهناك من المطبوعات ما يطبع خصيصا لكى يقرأ فى العراق وحده ولا يقرأ فى سواه من البلدان •

وأسوأ ما في الامر في نظرى أن غدا أدبيا افضل لن يبزغ في وقت قريب •

بل أقرب الى الاحتمال ان يزداد تدهور المستوى الادبى عمقا قياسا على ما مضى • وأن يبلغ حد المأساة •

ان ناقد اليوم لابد أن يلاحظ أن قدرة الكتاب والادباء فى التعبير الادبى ـ ولا اقول فى الخلق والابداع ـ قد وصلت حدا من التدنى يخجل منه القارىء الوسط بله الناقد البارع •

والميل الواضح الى ابسط انواع الاداء قد اغلق الباب نهائيا فى وجه الابداع ، لان الذى يفشل فى الصغائر يعجز بطبيعة الحال عن الكبائر •

والفقر السكيولوجي العجيب من عيوبنا الواضحة ، فان اديبنا اليوم أشبه بالجالس فى قارب تائه لا يعرف اتجاهه • وهو يخاطب القارىء ولا يعرف منزلته منه ، واغرب ما فى الامر أنه يتولى الاستاذية عليه ، وهو فى اغلب الاحيان أقل من تلميذ له •

---

(١) الاستاذ محيي الدين محمد •

اديبنا فقير في ثقافته العامة • ويكاد يكون جاهلا من الناحية السكيولوجية ، وغير معروف خارج رقعته الصغيرة • وسيكون موعدا بعيدا ذلك اليوم الذى يخترق فيه الاديب العراقى هذا الجدار السميك الذى يفصله عن العالم العربى اولا ، وعن العالم الخارجى اخيرا •

وما دامت السلطة قد تولت فى كثير من المناحى رعاية الشوءون العامة، وما دامت توالى ظهورها بمظهر المسارع الى دفع الحياة فى عروق مجتمعنا الحديث ، فانها مشكورة على اندفاعها هذا ، ومسوءولة أن تمد اليد المنقذة الى حياتنا الادبية •

وانا اسارع الى القول بأن ما تستطيعه أية سلطة لا يمكن أن يكون مجديا اذا لم تكن التربة صالحة •

انك لا تستطيع ان تحصد ما يزرع في السباخ • فان الارض وخصبها هو العامل الفعال فى ذلك •

ولن تستطيع السلطات مهما فعلت أن تخلق أدباء فى مجتمعنا ، بل كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تأخذ بيد الموجودين منهم •

ان الاديب الملهم لا يمكن ان تنطفىء جذوة الهامه • ولن يزرع الالهام زرعا في الصدور • ومعنى ذلك أن المطلوب من السلطة هو أن تساهم جانبيا فى خلق نهضة أدبية بكثير من الجهد المشكور •

وفى وسع كل من يريد أن يساهم فى خلق أدب عراقى مقبول ، أن يبدأ من البداية ، وهى تكاد تكون واضحة •

فقراء الادب فى العراق كثيرون • والدليل على ذلك كثرة ما يباع من النتاج الادبى العربى فى العراق على اختلاف انواعه والوانه •

وفي الامكان خلق « صناعة » النشر في العراق تسند من السلطات وتشجيعها • وهي أول الامكانات التي تخلق الأدب •

فان ما ينشر الآن مما ندعوه أدبا سواء كان ذلك في الصحف أو بشكل كتب ومنشورات أخرى ، انما هو من قبيل أدب التبرع والفضول • ولا يمكن أن يكون لمثل هذا النتاج أية قيمة طالما أن صاحبه « يريد » أن ينشره بلا مقابل ، لا أن تكون هناك جهة أخرى « تريد » له أن ينشر ، وأن يكون النشر بأجر معقول •

والأدب القائم على التبرع لا قيمة له ، ولا موقع ، ولا طعم • ومن حق صاحب النتاج الأدبي القيم أن يأخذ عوضا مناسبا عن النتاجه القيم •

وعلى ذلك فان أول ما نحتاج اليه هو مؤسسات النشر الممولة تمويلا صحيحا ، ومن بعدها مؤسسات التوزيع التي تتولى ايصال هذا النتاج خارج الحدود •

كما أن الجوائز الأدبية الكبرى لأعلى نتاج ، يمكن أن تكون حافزا آخر لخلق جيل أدبي ذى مكانة • وهي من ميسور ما تستطيع السلطات أن تقوم به عن طريق المؤسسات الخاصة بهذا الغرض • وفي الأندية الأدبية

والمجامع المعترف بها مجال ليس بالقليل للبدء بمثل هذه الخطوة المأمولة .

ولا ريب عندي أن الصحافة ليست خير الوسائل للارتفاع بالمستوى الأدبي ، ولكنها الوسيلة الوحيدة الموجودة الآن في يدنا .

وعلينا أن نرتفع بالمستوى الصحافي أدبيا لكي يمكن لنا أن ننتظر ارتفاعا مقبولا في أدبنا الذي نأمل له أن يجتاز مرحلة الارتقاء .

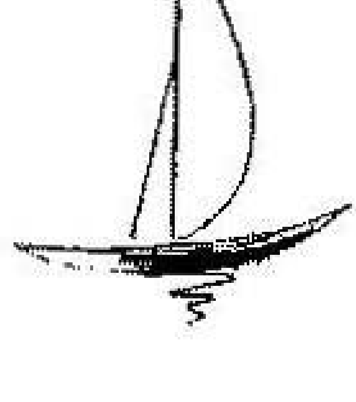
* * *

ان هذه الخواطر الحزينة مبعثها قلب مفعم بالأمل ، فهي ليست خواطر يائسة ، ولكنها كئيبة بحكم الواقع .

وليس كبيراً أن يستطيع مجتمعنا الحديث خلق جو أدبي يتناسب مع حياتنا ، وآمالنا في المستقبل الأفضل ، ويتسق مع النتاج الأدبي للبلاد العربية الأخرى .

وأرجو أن لا يبعث اللدد والمكابرة بالذين ينظرون الى هذه القضية من وجه آخر ، على اغفال الواقع ، والتظاهر بالارتفاع فوقه في سبيل ترضية غرور لايقوم على أساس .

ان اخفاء المرض لا يشفيه ، وانما يشفيه العلاج الناجح حسب وصفة الطبيب . وليس وضعنا ميئوسا منه لكي ننفض يدنا عن المريض ، بل لعل هذا هو أنسب الأوقات لكي نعالجه .



تشييد بغداد وأثره في

فن العمارة والعمران العربي والعالمي

الدكتور سليم عادل عبد الحق

قال الجاحظ : « رأيت المدن العظام والمذكورة بالاتقان والاحكام ، بالشامات وبلاد الروم ، وفي غيرهما من البلدان ، فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ، ولا أجود استدارة ، ولا أنبل نبلا ، ولا أوسع أبوابا ، ولا أجود فصيلا من الزوراء ، وهي مدينة أبي جعفر المنصور »(١) .

وقد صدق الكاتب العربي الكبير في هذا الحكم صدقه في معظم ما صدر عنه من أحكام . ولم يكن مستغربا من رجل دقيق الملاحظة ، صادق التجربة ، مرهف الحس كأبي عثمان الجاحظ أن يتعرف على التقدم المدهش الذي حققته بغداد على المدن العربية والرومية المعاصرة ، الذي جعل غيره يقول في بغداد : « انها الحاضرة والأرض كلها بادية لها »(٢) .

ولا أود أن أمضي مستشهدا بأقوال المؤرخين والادباء عن مزايا بغداد ، والكلام في ذلك وفير جدا ، وقد سبقني اليه عشرات المؤرخين وعلماء الآثار كما لا أود أن أخوض في بحث تاريخي وأثري وفني شامل ، عن ولادة هذه المدينة العجيبة ، وعن حوادث نموها والظروف التي أحاطت بتطورها في مختلف العصور ، مما يقتضي انصراف عمر مديد . وقصدي الآن فقط الاشارة باقتضاب الى صفات مدينة المنصور والى بعض الملابسات التي هيأت لها مكانة استثنائية في تاريخ العصر الوسيط ، وايضاح الأثر الذي تركه تشييدها في فن العمارة والعمران العربي والعالمي .

ومن المعلوم أن التاريخ نقل الينا أخبار تشييد بعض المدن العظيمة التي كان لها شأن كبير في العصور القديمة والعصور المتوسطة ، كمدن قرطاجه ، وروما والاسكندرية والقسطنطينية والقاهرة وغيرها ، على أيدي رجال ميثولوجيين وحقيقيين تمتعوا بشهرة واسعة شأن أبي جعفر المنصور باني بغداد ولا يخفى أيضا أن كل مدينة من هذه المدن لعبت دورا كبيرا جدا في حياة المنطقة التي نشأت فيها ، وفي حياة العالم ، وأن الدور المذكور

لم يكن أقل شأنا من الدور الذي كان لبغـداد في تاريخ العرب والتاريخ العام • الا ان انشاء أية مدينة منها لم تتح له كما كان الأمر بالنسبة الى بغداد ـ أسباب الاستفادة من جميع تجارب الماضي المعمارية والعمرانية في منطقة تعاقبت عليها أروع المدنيات كمنطقة الشـرق العربي ، وفي تجميع أهم العناصر الايجابية من تلك التجارب الانسانية ، وجعلها تتوافق وتنسجم مع بعضها انسجاما تاما ، وتتمشى على اصول منطقية في التخطيط والتنفيذ بما يتفق مع مقتضيات الموقع وحاجات السكان ومتطلبات حياتهم، واتجاهات التطور التاريخي •

وأولى صفات العمل الكبير الذي حققه المنصور ، هي الارادة الواعية والمدركة لأهمية الواجب الملح في ايجاد مدينة كبرى تتجلى فيها عظمة الدولة العربية • وفي الواقع بعد أن تخلت هذه الدولة العربية التي آلت مصائرها الى المنصور عن عاصمتها دمشق المنحازة الى الأمويين ، توجب تحريك مقر الحكم العربي ، ونقله الى الشرق ، الى العراق سرة الدنيا والاقليم الرابع الذي هوالاقليم المتوسط بين أقاليم العالم السبعة كمايقول ذلك معظم المؤرخين والجغرافيين العرب • ولم يختر المنصور الكوفة ، وتحول عن مدينـــة الهاشمية ، ووصل الى جرجريا وقطع المسافة الى الموصل ، ثم عاد أدراجه الى موقع بغداد وتفحص الأرض تفحص الخبير العارف بمزاياها الطبيعية والطوبوغرافية وبشرائطها الاقليمية والصحية فلم يجذب الا الى المنطقة التي جذب اليها من قبلـــه الآشـوريون والبابليون والاسكندر والبارثيون والأكاسرة • ومال الى الموقع الذي تحميه الأنهار ، ويتعذر غزوه اذا خربت القناطر وقطعت الجسور ، وتنتهي اليه طرق القوافل من كل الاتجاهات ، ويتصل عن طـــريق دجلة بالبحر وما حولـــه وما وراءه من بلاد كعمان والبحرين وفارس والهند والصين ، وتأتيه الميرة من الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا ، وتصله حاصلات ديار مضر والرقة والشام ، ومصر والمغرب مارة بالثغور والفرات(٤) •

ويلقي هذا الاختيار نورا ساطعا على رغبة المنصور في تجهيز الدولـة العربية التي تمتد حدودها بين الصين وبين جبال البيرنه بعاصمة دائمية تكون متوسطة بين ولاياتها الشاسعة ومسرحا لنشاطها العالمي في مختلف الميادين ، ودارا للسلام الذى تنشده على المستويين الداخلي والخارجي • وكان لابد أن تكون المدينة الملكية الجديدة حصينة جدا حتى لايمتد اليهـا التخريب الذي امتد الى المـــدن السومرية والأكدية والآمورية والآشورية والبابلية والأخمينية والساسانية التي نشأت في العراق قبلها • كما كان لابد أن تذكر هذه المدينة بالمدن العربيـــة في الشبه الجزيرة كمكة التي تتوسطها الكعبة ، والمدينة المنورة التي تضم مسجد رسول الله ، والطائف المدينة العربية الوحيدة التي كان لها سور في فجر الاسلام • وأن تنسي الناس جمال المدن الشامية المنسقة كدمشق وحمص وحماه وبصرى وتدمر •

وكان على مدينة المنصور أن تبذ خاصة ما بناه الخلفاء الأمويون في بادية الشام من مدن صغيرة متألفة من قصـــور شامخة ضخمة مبنية بالحجر المنحوت ومرفوعة أروقتها على عمد ومزين داخلها بألواح الفسيفساء الزجاجية الجميلة والزخارف الجصية الرائعة ، ومن ملحقات لهذه القصور كالحمامات والخانات وبيوت المزارعين والبساتين التي تساق اليها أقنية الميـــاه من مناطق السدود • ومن المعلوم أن الباحثين في عصرنا عثروا على أطلال ثلاثين من هذه القصور ودرسوا ما كان لها من دور هام في أعمـــار الصحراء[٥] ولابد من التذكير أن الوليد بن عبدالملك شـــيد قصر المنيا قرب طبريا ، وقصر جبل سيس على بعد نحو مائة كيلومتر شرقي دمشق ، وأن الخليفة هشام بن عبدالملك بنى قصر الحير شرقي تدمر ، وقصر الحير غربي هذه المدينة ، وقصر المفجر شمالي أريحا ، وأن الوليد الثاني رفع قصر المشتى ثم قصر التوبى •

وكان على المنصور أيضا أن يتفحص التجارب المعمارية والعمرانيـــة العربيـــة الاولى في أرض العراق • فقد نشأت البصرة باكورة مدن العرب الجديدة منذ السنة (١٤هـ = ٦٣٥م) بصورة عفوية ، وبلا تخطيط ودون أمر الخليفة ، وذلك بأن استبدل العرب خيامهم التي ضربوها في موقعهـا أثناء الفتح بمنازل من اللبن والطين[٦] وقد بني على هذا الشكل مسجدها الذي شيدت الى جنوبه دار امارتها ، وبعد ثلاث سنوات من نشوء البصرة أي في السنة (١٧هـ = ٦٣٨م) أمر الخليفة عمر بن الخطاب ، اثر معركـة القادسية أن ينتقل سعد بن أبي وقاص من المدائن ، وأن ينزل في الكوفة • ويذكر البلاذري[٧] ان سعدا لما بلغ موقعها أمر رجلا فعلا بأربعة أسهم في مهب القبلة ومهب الشمال ، ومهب الجنوب ومهب الصبا ، وأعلم على مواقع هذه الأسهم ، ثم بنى المسجد ودار الامارة في وسط المدينة ، التي عينت حدودها ، ووزعت أراضيها بين القبائل • وكان شكلها كما يبدو من حديث البلاذري ومما قاله ياقوت عنها مستديرا[٨] وكانت طرقها منظمة حـول مسجدها وقد جعلت الرئيسية منها بعرض (٤٠ ذراعا) والفرعية بعرض (٢٠ ذراعا) •

وهكذا فان قيام المسجد ودار الامارة في وسط المدينة العربية كمـــا رأينا في البصرة والكوفة وكما كان ذلك في دمشق بالنسبة للمسجد الأموي وقصر الخضراء ، وفي الفسطاط بمصر بالنسبة الى جامع عمرو بن العاص ودار امارته ، أصبح القاعدة الاولى في بناء كل مدينة عربية • ثم ان اقطاع أراضي المدينة الجديدة للقبائل العربية التي تنزل فيها ، وتخصيص أحيائها لطبقات معينة من الوافدين عليها صارا القاعدة الثـــانية في كل عمليـــة تخطيط •

ولا يستبعد أن تكون مدينة واسط قد بنيت على شـكل الكوفة لما أسسها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة (٨٣هـ = ٧٠٣م) ، وجعلها عاصمة

العراق ، ومقر جنده من أهل الشام • وعلى ما يظهر أن هذه الأمصار العراقية الأولى نمت بسرعة مدهشة ، وأن هذا النمو لم يخل من شيء من الفوضى ، لأنها لم تكن في فاتحة أمرها الا معسكرات للجند ، ولأنها دفعت بنتيجة تطورها لأن تتحول الى حواضر وعواصم ، دون أفكار واضحة كل الوضوح ، لقيادة توسعها ولتوجيه نموها ، غير التي شرحناها •

وكان على أبي جعفر المنصور أن يفكر عام (١٤٥هـ = ٧٦٢م) لما هم ببناء بغداد في كل هذه القضايا • وكان قد دفع عمليا لمواجهتها لما شيد مدينة الهاشمية التي بناها بين الكوفة والحيرة ، ثم تحول عنها(٩) • ولا شك أنه كان متمرسا بالقضايا العمرانية والمعمارية لذلك فانه بعد أن اختار موقع مدينة بغداد عزم على أن يحل هذه القضايا فقط على المستوى الفني ، وهذا مادعاه لأن يحضر آلافا كبيرة من المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ، والفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين(١٠) • وكان بين المهندسين الذين دعوا للاسهام في مشروع بناء المدينة الجديدة خمسة ، يذكر لنا البلاذري أسماءهم وهم : الحجاج بن يوسف أرطاة ، وعبدالله محرز وعمران بن وضاح وشهاب بن خاطر وبشر بن ميمون(١١) وقد تداول المنصور معهم في كل أمر من امور المدينة المقبلة ووجب عليهم جميعا أن يحلوا قبل كل شيء قضية الشكل الذي يجدر أن تكون عليه بغداد على ضفة دجلة الغربية حيث تنبسط الأرض ولا تعترضها أية صعوبة طوبوغرافية • وكان أن نصحوا الخليفة أن يتخذ لبغداد المخطط المستدير لأن هذا المخطط ينسجم مع واقع المدن العراقية العربية الاولى التي جرى الحديث عنها ويتفق مع ما يتمثله المنصور من صفة عاصمته المقبلة في نفسه •

ويحصي مؤرخو الفن المهتمون بالدراسات الاسلامية في عصرنا ، المدن القديمة التي كانت مدورة قبل تأسيس بغداد • وقد كان المخطط المستدير معروفا منذ أقدم الأزمنة التاريخية في رقعة الشرق القديم ، الا أنه لم يشع شيوع المخطط المستطيل أو المربع المجعولين على شكل رقعة الشطرنج في تأسيس المدن • والظاهر أن أسبابا رمزية وعسكرية دفعت لجعل بعض المدن مدورة فرسم الدائرة يشير بالخط الهيروغليفي المصري القديم الى المدينة ، وكذلك قرص الآله فائستوس عند سكان كريت القدماء ، وتمثل الحياة في التبيت على شكل دولاب ، وعلى مايبدو أن شكل البيوت الأولى مستدير ، وقد عثر على مجسم من الطين في حفائر مدينة (ماري) الأكدية في سورية ، وهو من الألف الرابع قبل الميلاد ، وشكله مدور • أما الأسباب العسكرية عن أفضلية تدوير المنشآت العسكرية فانها كانت تنص على ان هذه الأشكال المدورة تحذف الزوايا المائتة من الأسوار والأبراج وتزيد في مناعتها ، وتعزز تحصينها ، وتحملها لهجوم العدو ولرشق قذائفه •

ومهما يكن فان مخطط مدينة أورك السومرية كان مدورا(١٢) ،

وكذلك كان سور مدينة الكاب المصرية(١٣) وقد انتشرت المدن المدورة أو الشبيهة بالمدورة في سورية القديمة أكثر من غيرها من البلاد • وذلك لأن كثيرا من هذه المدن السورية كانت تقام على مرتفعات الهضاب أو في ذرى الجبال ، وتحاط بأسوار بيضية أو شبيهة بالمستديرة • وقد كانت أسوار المدينة المبنية في (تل دوير) بيضية وكذلك كانت أسوار مدينة (أريحا) • وكانت أسوار المدينة المشيدة في (تل هوام) مستديرة شأن أسوار المدينة المنشأة في (عين شمس) • وتقع كل هذه المدن في فلسطين ويعود عهد بعضها الى الألف الثالث وبعضها الى الألف الثاني قبل الميلاد(١٤) • وتتحدث النصوص المصرية القديمة عن مدينة (فادش) في سورية الوسطى فتذكر أنه كان لها سوران متداخلان ومستديرين وبينهما خندق مملوء بالماء • ومن هذه المدن مدينة كركميش في الشمال التي كانت عاصمة للحيثيين منذ عام (٢٠٠٠ ق•م) ، وكانت محاطة بسورين بيضيين متداخلين ، ومدينة زنجولي الحيثية أيضا التي بنيت عام (١٣٠٠ق•م) مستندة على جبل الأمانوس ، وقد كان لها اكروبول في وسطها احيط بسور بيضي ، وحول هذا السور شيدت منشآتها • وقد ضرب حول هذه المنشآت سوران متداخلان كاملا التدوير(١٥) •

ونبه العالم الألماني هرزفيلد منذ مدة طويلة الى أن المعسكرات الآشورية كانت مدورة أيضا وجمع عددا من صورها منذ عهد سلمنازار الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق•م) الى عهد سناخريب (٧٠٥ـ٦٨١ق•م)(١٦) واحتذى سيره عدد من العلماء منهم (كريزويل) الذي وصف احدى عشرة مدينة مدورة ذكرنا أسماء بعضها(١٧) وذكر أن منها مدينة (أبرا) الواقعة شرقي نصيبين ، ومدينة (أقباطان) التي بنيت في القرن السابع قبل الميلاد، والتي تحدث عنها المؤرخ اليوناني هيرودوت ، فذكر أنه كانت لها سبعة أسوار مستديرة ومتداخلة بعضها في بعض ، ويعلو كل منهـا عن الآخر اعتبـارا من السور الخارجي الأول حتى السور المركزي السابع بمقدار ارتفاع شرفاته التي ينتهي بها • وقد لون كل سور بلون خاص ، وفي هذه الألوان الابيض والاسود والارجواني ، والازرق والاحمر والفضي والذهبي•

ومن المدن المدورة المذكورة المدينة اليونانية (مانتينه) التي شيدت في القرن الرابع قبل الميلاد ثم مدينة المدائن المشهورة القريبة من موقع بغداد ، ومدينة الحضر البارثية ، ومدينة حران ، ومدينة دزب ومدينـة صرقلة ومدينة اصفهان • وكنا ذكرنا أن شكل مدينة الكوفة كان مستديرا ، ويوحي بذلك اسمها وقد تحدث بذلك البلاذري الذي ذكر أن المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفاني(١٨) وياقوت الحموي الذي ذكر أن الكوفة هي الرميلة المستديرة وان الكوفة سميت كذلك لاجتماع الناس بها(١٩) •

ويستنتج من كل ذلك ان هذه المدن المدورة نشأت في رقعة الشرق

القديم ، وأن عددها كان اقل بكثير من عدد المدن المستطيلة أو المربعة المجهولة على شكل رقعة الشطرنج والتي كانت توجه أضلاعها الى الجهات الأصلية ، أو من المدن التي لا شكل لها والتي لايمكن حصر عددها في شرقنا العربي • ولابد من القول ان استدارة الأسوار في المدن المدورة لم تكن تامة قبل بناء بغداد ، وانـــه يمكن التأكد من ذلك من الابحاث الأثرية التي أجريت في عصرنا ، اللهم الا ما يتعلق بأسوار مدينة زنجولي الخارجية التي كانت كاملة التدوير •

وغير خاف أن انشاء المدينة المدورة معقد كل التعقيد ، وأن رسمهـــا يحتاج الى الفرجار وأن تنفيذها على أرض مستوية أو غير مستوية يتطلب فنا هندسيا متكاملا • وقد توفر هذا الفن الهندسي المتقن لابي جعفر المنصور لما شيد بغداد • ويذكر الطبري(٢٠) أن المنصور أمر أن يخط رسمها على الارض بالرماد ، وطفق يطوف في كل أقسامها المخطوطة ، ثم أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن وأن يصب عليه النفط ، وراح ينظر اليها والنار تشتعل ، فعرف رسمها ، وفهم أنه تحقق فيها ما يريد وأوعز أن يحفـــر أساسها على ذلك الرسم وأن يبدأ بعملها •

وانتهى المنصور من بنائها سنة (١٤٩هـ ـ ٧٦٦م) ، وأكد المؤرخون العرب أنه لا تعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها ، لانها كانت أروع مثل عن المدن المدورة ، ولان معظم المدن المدورة كانت قد اندثرت في عصر انشاء بغـــداد • ومما يؤسف أنه لم يصل الى زماننا كذلك شـــيء عن أقسام مدينـــة المنصور وعماراتها فقد انهارت صـــروحها ، وأزالت الـكوارث الطبيعية والحروب معالمها وطمست خططها ، ومن المعلوم انه ولم يسلم من بغداد الا بعض العمارات العباسية التي انشئت في عصر متأخر من عصر المنصور ومن اللازم أن نعود الى ما تركه من أوصافها المؤرخـــون العرب كالخطيب البغدادي واليعقوبي والطبري وغيرهم لرسم بعض الخطوط العامة عنها • وقد فعل ذلك بذكاء ومهارة العلماء والمؤرخون الاوربيـــون كلوسترانج وهرزفيلد وكريزويل(٢١) • ولا يمكننا في هذه العجالة الا أن نختار ونصف مايفيد موضوعنا من هذه الدراسات القيمة(٢٢) •

تبدت بغداد في منتصف القرن الثاني الهجرى مدينة ملكية منيعة ذات مظهر عسكري واضح وكانت تبدأ بالخندق المستدير الذي يحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، والذي كان يبلغ عرضه (٤٠ ذراعا ـ ٢٧ر٢٠ مترا) ثم يليه رصيف من الآجر ، فالسور الاول الذى علته الشرفات المدورة ، وبلغ ارتفاعه (١٨ ذراعا ـ ٩ أمتار) ، ففصيل أول غير مبني بعرض (٧٥ ذراعا ـ ٣٨ر٨٥ مترا) فالسور الثانى الذى ارتفع (٦٠ ذراعا ـ ١٤ر٣٤) مترا• وكان يوجد فى كل قسم من أقسام هذا السور ثمانية وعشرون برجا ، مـا عدا القسم الجنوبي الغربي منه حيث شيدت فيه تسعة وعشرون برجا •ويلي هذا السور فصيل ثان عرضه (٢٥ ذراعا ـ ٩٥ر١٢ متراً) ، ثم منطقـــة

سكنية بعرض (٥٣٨ ذراعا = ٢٧٨ر٦٨ مترا) قسمت أراضيها ، وأقطعت هذه الاراضي الى قواد الخليفة وكبار رجال دولته ومواليه ، ونظمت على أشكال الاحياء ، وخصص كل حي بفئة من سكان بغداد العرب والخراسانيين والخوارزميين • وكان لكل حي منها باب يغلق ليلا ، وكانت طرقات هذه الاحياء تبدأ من الفصيل الثاني ، وأكبر الظن انها كانت على اشكال انصاف دائرة ، ولا يستبعد أن تكون قد جعلت متقاطعة مع شوارع موازية للفصيلين الثاني والثالث بزوايا قائمة أو شبه قائمة • وقد جعل المنصور فيما بعد عرض كل طريق اربعين ذراعا ، وأمر بهدم ما شخص من الدور عن ذلك المقدار •

ثم يأتي بعد منطقة السكن فصيل الثالث يحوى فراغا رحيبا خصص لمنشآت جهاز الحكم المركزي • وكان يوجد فيه المسجد الجامع وقصر المنصور المسمى (باب الذهب) ، وكانت تعلو ايوان هذا القصر القبة الخضراء التي تذهب في السماء (٨٠ ذراعا = ٤٢ر٤١ مترا) ، وكذلك كان في الفراغ المذكور بيت المال وخزانة السلاح ، وبيوت للمهدي وبقية أولاد المنصور ، وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند •

وقد قسمت مدينة المنصور لتأمين مواصلاتها في داخلها وخارجها ، وتسهيل هذه المواصلات الى أربعة أقسام متساوية ، وجعل لكل قسم باب • وهذه الابواب هي : باب خراسان في الشمال الشرقي ، وباب البصرة في الجنوب الغربي(٢٣) ، وباب الشام في الشمال الغربي وباب الكوفة في الجنوب(٢٤) وهكذا كان يتحتم على من يقصد الجامع الكبير أو قصر المنصور ، أن يجتاز الخندق ثم بابين في السور الخارجي بينهما دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله (٣٠ ذراعا = ١٥ر٥٤ مترا) وعرضه (٢٠ ذراعا = ١٠ر٥٦ أمتار) • ثم يقطع رحبة طولها (٦٠ ذراعا = ٣١ر٠٨ مترا) وعرضها (٤٠ ذراعا = ٢٠ر٧٢ مترا) يفصلها جداران من اليمين واليسار عن طرفي الفصيل الاول • ثم ينفذ ما بابين آخرين في السور الثاني الكبير بينهما أيضا دهليز معقود بالآجر والجص ، طوله (٢٠ ذراعا = ١٠ر٥٦م) وعرضه (١٢ ذراعا = ٦م) ، ويبلغ رحبة ثانية مربعة تتصل بجزئي الفصيل الثاني ، ضلعها (٢٠ ذراعا = ١٠ر٥٦ م) ، ثم يدخل الى شارع على جنبه الطاقات وهي الاروقة التي يبلغ عددها ثلاثا وخمسين طاقة ، وعرضها خمسة وعشرين ذراعا ، وطولها عرض المنطقة السكنية • ووراء هذه الطاقات كانت تقوم قاعات مستطيلة واسعة وهي تنتهي برحبة ثالثة كالرحبة الثانية تماما ، يتصل الرد منها بالفصيل الثالث وتنتهي بالطاقات الصغرى عند مدخل السور الثالث •

ولم يعرف في تاريخ العمران العالمي تنظيم هندسي دقيق مثل هذا التنظيم الذي احتاج الى خبرات فنية عميقة وجهود كبرى قصرت عنها على وجه التأكيد الخبرات والجهود التي تهيأ بذلها لاي ملك من ملوك العالم

الذين أتوا قبل المنصور · لقد كانت السنوات (١٤٥-١٤٩هـ) التي انقضت في تشييد بغداد حافلة بالتجارب العمرانية والمعمارية ، توفرت خلالها للخليفة ولمهندسيه أفكار عملية واسعة في التنظيم العمراني · وقد أدرك أن المدينة الجديدة لابد من أن تتوسع اذا اريد أن تتوفر للدولة العربية جميع ما يلزم لاداراتها ولحاجات سكانها ، وأن عليه أن يؤمن تنظيمها الاجتماعي وأن يوجه توسيعها · ومما لا ريب فيه أنه لم يكن بالامكان حصر كل منشآت العاصمة داخل أسوارها وتجلى بوضوح أنه لا محيد لها عن الامتداد الى أرباضها ، وعن تنظيم كل ربض منها وربطه بالنواة المركزية ، كما كان لا مناص من بلوغ ضفة دجلة الشرقية والامتداد عليها · ان بغداد مدينة نهرية ومن الضروري أن تعتمد على هذا النهر العظيم في تأمين اتصالها بعوالم الخليج العربي ، الشرق الاقصى ، وافريقيا ومن غير الطبيعي الا ترتكز على الضفتين معا ، وألا تتابع في هذا المجال الموسع أعمال تنظيم الفراغ ، وتهيئة جميع ما يلزم من اطارات مادية لائقة للمدنية العربية التي بدأت تعيش عصرها الذهبي ·

وأنا أشك كما شك غيري في القصة التي اوردها الخطيب البغدادي عن البطريق الرومي الذي بعد أن زار بغداد على رأس وفد أرسله (بازلوس القسطنطينية) ، ذكر للمنصور ثلاثة عيوب في مدينته وهي قلة المياه ، وفقدان الخضرة ، وانتساس الاسواق فيها مما يستدعي وفود الغرباء عليها وتهديدهم لامنها(٢٥) ويقوم شكي على أن تلافي العيوب المذكورة كما حدث تماما عن طريق مد الانهار وأقنية الماء في كل ارجاء المدينة ، وادخال الحدائق الى قصورها وبيوتها واحاطتها بالبساتين ، وتخصيص الاسواق بمنطقة معينة من المدينة ، يوفر للشرق العربي في العصر الوسيط المدينة المثلية التي هو بحاجة اليها · كما أن تحقيق الاصلاحات المذكورة يؤلف الخصائص الأساسية لفن العمران عند العرب التي تميز بها فن غيره من الفنون العمرانية الأخرى · ولم يكن لفن العمران البيزنطي مثل هذه الخصائص ، ولم تشتهر القسطنطينية أو سالونيك أو غيرهما من المدن البيزنطية قبل تأسيس بغداد كما اشتهرت به المدن العربية · وعلى الرغم من اعتقادي أن فن العمران العربي مدين ببعض الشيء لفن العمران البيزنطي ، الا أن الفن الأول حلق في المضمارين العملي والجمالي اللذين شرحناهما بأجنحته الخاصة ، وكانت مكتسباته فيهما نتيجة لتجارب خاصة محلية وجب أن تلي المبتكرات العمرانية الكبرى التي حققها المنصور والتي جرى الحديث عنها ·

وفي الواقع وضع تلافي العيوب المشار اليها أمام المنصور وخلفائه كمنهاج عمراني يتوجه تحقيقه لتحسين بغداد وتجميلها · وقد تحقق هذا المنهاج في بغداد وعنها أخذته المدن العربية التي بنيت بعدها · وأظن أن السبب الذي حدا بالمنصور الى اخراج الأسواق وأصحاب الصناعات من

طاقات مداخل المدينة بعد عدة سنوات من بنائها ، هو ضيق الاطار المذكور عن استيعاب كل حاجات حياة بغداد الاقتصادية • وكنا ذكرنا أن عدد طاقات كل باب كان ثلاثا وخمسين طاقة • ولا ريب أن مائتين واثنتي عشرة طاقة لا يمكن أن تكفي تلك العاصمة التي جعلت تجذب الناس اليها من كل أقاليم الدولة العربية حتى أصبحت أكبر مركز للبضائع في الشرق ، وقد زاد عدد تسكانها حتى أربوا بعد زمن غير طويل على مليون نسمة •

لهذا فان المنصور نقل أسواق بغداد خارج سوارها لجعلها في اطار أوسع ، وأمر ببنائها على نفقته في منطقة الكرخ وقد دعا كما يقول الخطيب البغدادي « بثوب واسع فحد فيه الأسواق ، ورتب كل صنف منها في موضعه »[٢٦] • وأوعز بجعل سوق القصابين في آخر الأسواق ، لأن هؤلاء الناس في أيديهم الحديد القاطع • وهكذا تم العمل المذكور حسب أفكار الخليفة ونظرياته ، متابعا به خطة (زوننغ Zoning) هو مبتكرها في تقسيم رقعة المدينة الى مناطق ، وتخصيص منطقة منها بالتجارة والصناعة وعزل الصناعات الخطرة عن غيرها • وقد اتسعت المنطقة التجارية الصناعية غربي المدينة المدورة وجنوبها ، بعد أن نظمها المنصور وبنى لاهلها مسجدا ، وأقام عليهم من يهتم بأمرهم وخصص له قصرا في جانب المسجد •

وأكملت خطة المنصور في جمع أصحاب المهن في قطاع خاص من المدينة خطته الاجتماعية في تخصيص قواده وكبار رجال دولته ومواليه وغيرهم بأحياء تقسم بينهم بحسب منشئهم العرقي كعرب وخراسانيين وخوارزميين، وتخصيص كل فئة منهم بحي أو عدة أحياء وذلك حتى تصرف كل فئات هذه السكان في بغداد حياتها داخل اطارات عرقية أو مهنية وتتجاوز وتتعايش سلميا بين بعضها البعض •

أما عن عيب بغداد الثاني وهو قلة مياهها ، فانه كان يوجد في موقع المدينة بعض الأنهار والأقنية التي شقت في العصر الساساني[٢٧] • ولابد أن الأمر احتاج في زمن المنصور الى اعادة توزيع هذه الشبكة المائية وتوسيعها وجعلها تسد حاجات المدينة المدورة وأرباضها لهذا فان المنصور « مد قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما الى مدينته في عقود »[٢٨] • وقد تكامل هذا العمل فيما بعد ، وعمت الأنهار والأقنية أرض بغداد وكان أشهرها نهر عيسى ، الذي يأخذ منه نهر الصراة ، وتتفرع من هذا أنهار عديدة منها خندق طاهر الذي يدور حول بغداد • ومن نهر كرخايا الذي تقدم ذكره تتفرع أنهار رزين والبزازين والدجاج وقطيعة الكلاب والقلائين ، وطابق • ومن هذه الأنهار والأقنية أيضا نهر موسى ونهر المعلى ونهر المهدي ونهر الفضل ، وأنهار الحربية التي كانت أوائلها مكشوفة ثم تجري في قنوات تحت الأرض • وكانت كل قناة تجتاز الأرباض وتنفذ الى المدينة ، وتساير الشوارع

والدروب والأحياء وتتخرق ، بين المحال والبيوت ، وتجري صيفا وشتاء ولا ينقطع ماؤها ، وتمتد فوقها القناطر التي تسمى بأسماء الأحياء التي تجتازها ·

ونتج عن انشاء الشبكة المائية المذكورة توفر امكانيات كبيرة لامتداد المدينة خارج أسوارها ولتوسع أرباضها · وقد انتشرت منشآتها مباشرة في عهد المهدي بن المنصور على رقعة من الأرض تبلغ طولا وعرضا بين (٧ ـ ٨ كيلومترات)(٢٩) · وكان المنصور هو الذي بدأ حركة التوسع هذه اذ أنه شيد على شاطيء دجلة في موضع دير قديم قصرا اسماه (الخلد) ، ثم أمر أن يشيد لابنه المهدي على الضفة الشرقية من دجلة عدة مبان بينها قصر الرصافة · وقد أقطع قواده ورجال دولته الأراضي الواسعة على الضفتين الغربية والشرقية ، فقاموا يحتذون مثل الخليفة ، ويبنون القصور التي تجتمع فيها وحولها بيوت أنصارهم · وأخذت هذه القصور تقترب تدريجيا من بعضها ، وتشأت أحياء حولها كانت أشبه بالحجيرات التي يتألف منها جسم المدينة ، وأشهر هذه القصور قصر أسرة البرامكة الذي تحول فيما بعد الى ما سمي بـ (دار الخلافة) · ومنها أيضا القصور التي بناها الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، كـ (قصر التاج وقصر الجوسق الحديث وقصر الفردوس ··· ونتج أيضا من جراء نفوذ الأنهار والأقنية الى كل مكان في بغداد أن الخضرة التي تمناها البطريق الرومي انتشرت في كل مكان واحدثت البساتين والرياض والحدائق · وقد افتن البغداديون في اختيار مواقع حدائقهم ، بحيث أنها كانت تشرف على مشاهد ومناظر طبيعية جميلة ، وانصرفوا الى زراعتها بشغف زائد بسائر أنواع الغروس والأشجار والى رفع مياه الأنهر اليها بواسطة الدواليب · حتى نشأ فن عباسي في تنظيم الحدائق استفاد من كل الفنون التي سبقته(٣٠) ، وأربى عليها بأن جعل الرياض تتجمل بكل مبتكرات الصناعات وتصبح مكان راحة وانس ولذة لأناس صقلتهم الحضارة فغدت أذواقهم صعبة لاتستسيغ الا الكمال والترف في كل شيء · ومن ذلك تزيين الأشجار وتلبيسها بالمعادن الثمينة وزخرفة أقسام الحديقة ونشر الصور والتماثيل في أرجائها · وتكفينا فقرات من وصف حديقة قصر المقتدر بالله الجوسق المحدث لتقرب من خيالنا صورة الحديقة البغدادية العباسية · وقد كان هذا القصر في الضفة الشرقية أحد ثلاثة وعشرين قصرا يقطنها الخليفة · ويتصل بحديقة تحوي ميادين متعددة غرست بأربعمائة نخلة ، ليست جميعها ساجا منقوشا ومحلقا بالنحاس المذهب ، ويجري في هذه الميادين نهر رصاصي قلعي يمر على بركة مستطيلة طولها ثلاثون ذراعا ، وعرضها عشرون ذراعا ، والى جانب هذه الحديقة تقوم دار الشجرة التي تحوي بمنتصفها بركة مدورة في وسطها شجرة قضبانها من ذهب وفضة وعليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة التي تصفر وتهدر · وعلى يمين

البركة ويسارها تماثيل ثلاثين فارسا في أيديهم مطارد على رماح(٣١) .

ونشأت حدائق الحيوانات وجمعت فيها أصناف الوحوش ، وكان في قصر الخليفة(٣٢) المقتدر حير للوحش ، وكانت الحيوانات التي جمعت فيه تقترب من الناس الذين يأتون للتفرج عليها ، وتتشممهم ، وتأكل من أيديهم(٣٣) . ومما يستحسن ذكره أن المقتدر لما استقبل سفارة بيزنطيه أرسلت لزيارة بغداد ، نظم على شرفها استعراضا مشى فيه مائة سبع وأربع خيال و ١٦٠ الف جندي من المشاة والفرسان الخ ..)(٣٤).

وأخيرا لابد من القول ان العمارة العربية خرجت متجددة من التجربة الكبرى التي قام بها المنصور في بغداد . ونتج عن عمله هذا الذي لم يكن له مثيل في التاريخ أن أوجدت جميع نماذج المباني التي تحتاج لها الى مدة طويلة حياة العرب والتي تنسجم مع اقليم بلادهم في عالمهم الفسيح . ولم يعد يفوت المهندس العربي بعد تشييد بغداد أي سر من أسرار البناء بالطوب وبالآجر ، وأصبح ميسورا عليه استخدام كل امكانيات هاتين المادتين في العمارة الدينية ، وفي العمارة المدنية وفي العمارة العسكرية وقد حققت كل هذه العمارات في بغداد ذلك العصر أكبر توسع افقي يمكن أن تناله في عشرات الألوف من المباني التي تزيد أطوال بعضها على (٢٠٠ متر) كما حققت أكبر توسع شاقولي في ارتفاع بعض هذه المباني التي زادت على (٤٠ مترا)(٣٥) .

وسارت عمارة بغداد بعلم رفع القباب على القواعد المثمنة شوطا بعيدا ، وجعلت ارتكاز هذه القباب على الخراطيم وقد حقق ذلك نفس النتائج التي توصلت اليه القباب البيزنطية من ارتكازها على القلائد . وابتكرت كل أنواع العقود والأقواس نصف المدورة والبيضوية والمجزوءة والمنفوخة ، والمفصصة وجعلتها على الدعائم والمساند ، وعممت استخدام الأواوين والأروقة ، وتخذت على الجدران التزيينات الجصية والمرمرية واللازوردية والذهبية والفضية والبرونزية والخشبية(٣٦) .

* * *

وهكذا تألف في بغداد مفهوم المدينة العربية العملية التي جعلها الفن العمراني والمعماري أجمل تجميل وكان من الطبيعي أن يفرض هذا المفهوم كمثل يحتذى أمام كل المدن العربية التي نشأت بعد بغداد ، أو التي احتاجت الى أعمال عمرانية تجديدية . كما كان من الطبيعي ألا تتوفر لهذه المدن كل الامكانيات التي تهيأت لبغداد ، وأن تأخذ فقط من المبتكرات البغدادية ما تسمح لها امكانياتها بأخذه . ومهما يكن فان التجارب التي توفرت للفن العربي العمراني والمعماري عقب تشييد مدينة المنصور ، انتشرت في كل مكان ، واستفاد منها العالم العربي والعالم الغربي على السواء .

وتجلى تأثير بغداد خاصة في المدينة التي بناها المنصور سنة (١٥٥هـ = ٧٧٢ م) واطلق عليها اسم (الرافقة) الى جانب مدينة الرقة القديمة ، وأقام فيها حامية من جنده للدفاع عن بلاد الشام ضد الجيوش البيزنطية . وقد ذكر أن المنصور استقدم العمال لبنائها من العراق(٣٧) ويقول الطبري انها بنيت على نمـوذج بغداد ، وأنه كان لها مثل أبوابهـا وفصيـلها ورحباتها(٣٨) . لهذا فانه لا يستغرب ان كانت هذه المدينة قد أتت نسخة مصغرة عن مدينة بغداد . وما تزال أسوارها قائمة في زماننا على الرغم مما طرأ عليها من تهدم وانهيار . وتعطينا استدارتها غير التـامة ، اذ أن طرفها الجنوبي مستقيم ، وعلى الرغم من شـكل نعل الحصان الـذي اتخذته ، فكرة عما كانت عليه المدينة المدورة في زمن المنصـور . وهي مبنية من اللبن شأن أسوار بغداد ، ولها خندق وسوران خارجيان بينهما فصيل عرضه (٢٠ر٨٠) ، ولا يدرى اذا كان للسور الخـارجي شرفات مدورة ويظن انه كان يرتفع (١٠ أمتار) ، وكانت له أربعة أبواب أيضا وهي : الباب الشرقي وهو باب بغداد والباب الجنوبي الغربي ويتجه منـه الطريق الى مدينة مسكنة ، والباب الجنوبي ، وهو المطل على نهر الفرات والباب الشمالي وكان يبدأ منه الطريق المتجـه الى حران . وقد بقي باب بغداد في السور الخارجي وهو مثل جميل عن العمارة العباسـيـة من الآجر ، وفي فتحته اليمنى قوس مجزوء رائـع ، وكان يوجـد وراءه برج مستدير يبرز من بناء السور الداخلي . وما تزال نرى بقايا عـدد من الأبراج المستديرة الموزعة بالتتابع على طول السور المذكور ، على أساس قيام برج في كل (٣٥ مترا) .

ومما يؤسف ان البيوت الحديثة اجتاحت الفراغ المحصور ضمن السور الداخلي ، بحيث تصعب الآن معرفة ما اذا وزع هذا الفراغ قديما بين منطقة للسكن يتقدمها فصيل ثان وبين سـور ثالث يظـن انه كان يحيط بالقصر والجامع اللذين بناهما المنصور في وسط المدينة . ومهمـا يكن فان ما تبقى من الجامع المذكور يدل على انه كان مستطيلا بطـول (١٠٨ر١٠ مترا) وعرض (٩٢ر٩٠ مترا) وانه جدد عـام (٥٦١ هـ = ١١٦٥ م) في زمن نور الدين الزنكي .

امتدت الرقعة خارج سورها الى الشمال في زمن الخلفاء الذين أتوا بعد المنصور ، ونشأت في تلك المنطقة التي يزيد طولها وعرضها على خمسة كيلومترات مجموعة من القصور والمباني الأخرى التي تخـربت وزالت من الوجود . وقد كشفت تخطيطاتها الصور الجوية التي أخذت عنها . وقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بالتنقيب فيها بعد سنة (١٩٥٠) . وتعد هذه المنطقة أعظم منطقة للآثار العباسية في الشرق بعد سامراء . وتمكنا حتى الآن من اظهار أربعة قصور أحدها للمعتصم حيث وجد اسمه مكتوبا على أحد الجدران ، وقد انتظمت ثلاثة قصور منهـا على

ضفة قنـــاة كانت تأخذ ماءها من نهر بليـــخ رافد الفرات . ولا ريب أن هذه القصور التي يزيد طول بعضها على ١٦٠م وعرضها على (١٢٠ مترا) تشبه قصور بغداد وسامراء ، وتمثل جهود الخلفاء العباسيين في تنظيـم أرباض بالرقة وفقا للأسس والمبادىء العمرانية التي اتخذت في بغداد(٣٩) .

ومن المدن العربية التي انبثقت مباشرة من مفاهيم بغداد العمرانية والمعمارية مدينة (سر من رأى) أو سامراء التي أسسها المعتصـــم ثامن الخلفاء العباسيين سنة (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م) وجعلها عاصـمته بدلا عن بغداد . وقد عاش كما هو معلوم ثمانية خلفاء الى أن أتى الخليفـــة المعتمد فاعاد العاصمة الى بغداد . ولولا حادثة انتقال العاصمة من بغداد لكانت سامراء حيـــا أو جملة أحيـــاء من مدينة المنصور ، على الرغـم من امتدادها على ضفة دجلة خمسة وثلاثين كيلومترا .

ومع ذلك يظهر ان مبدأ المدينة المفتوحة تغلب لدى بناء سامراء على مبدأ المدينة المدورة المحصورة ضمن الأسوار . وخطـــى العمران العربي العباسي خطوة جديدة محققا نموذجا ثانيا من المـــدينة الملكية للـــدولة العربية . وقد احتذى خلفاء سامراء منهـــا نفس الأســـاليب والخطط العمرانية والمعمارية التي اتخذها أسلافهم فخصصوا الأســـواق وجروا الميـــاه الى كل مكان وأنشأوا الرياض . وقام كل منهـــم يبن لنفســـه قصرا وقصورا وكانت هذه القصور بأبعادها الكبيرة والأنهار والأقنيـــة التي تجري فيها والحدائق التي تلحقبها والأسواق والبيوت التي تتألف حولها أشبه بمدينة قائمة بنفسها وقد انصرفوا الى ذلك بحماس واندفاع شديدين حتى ان المتوكل لما انتهى من تشييد مـدينته الجعفرية ســـنة (٢٤٧هـ) تكامل له السرور وقال « الآن علمت اني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها »(٤٠) .

وما بقي من آثار قصر الجوسق الخاقاني الذي شيده المعتصم عـلى الضفة اليسرى من دجلة ، والذي سمي ايوانه المثلث (بمدائن العرب) وقصر بلكوارا الذي بناه المتوكل ، وقصر العاشق(٤١) الذي بناه المعتمد على ضفة دجلة اليمنى والمسجد الجامع ، وجامع أبي دلف وعدد لا يحصى من البيوت الخاصة يبين لنا بفضل ما بدأته بعثة سارة وهربزفيلد الألمانيـة وما تابعته بنشاط وجد المديرية العامة للآثار العراقية مدى الشوط الذي بلغه فن بغداد العمراني وهو في المهجر ، قبل أن يعود ثانية الى المهـد الذي نشأ فيه لمعاودة الانشاء والاشعاع بأنواره المـــلألاة على العـــالمين العربي والغربي .

ويصعب حصر ما وزعته بغداد من دروس العمران والعمارة هنـــا وهناك . أن كثيرا من المدن العربية القديمة والمدن العربية الجديد التي نشأت في افريقيا والاندلس اتخذت الأصول العمرانية التي وضعها خلفاء بغداد ، وتزينت بعمارات تمثلت فيها المبتكرات الفنية التي توصلت اليها

مدرسة بغداد . وبامكان كل باحث أن يعاين بسهولة طابع بغدادالمعماري في كل المباني العظيمة التي رفع صروحها العرب والمسلمون في بغداد والشام ومصر وأفريقيا والأندلس وايران التي بقيت قائمة في عصرنا كقصر اخيضر وكالمسجد الأقصى وصهريج الرملة وجامع بن طولون وجسر طليطلة وأسوارها ، وجامع قرطبة ، وقلعة مريده وأسوار سوزا ، والجامع الكبير في أصفهان وغيرها مما يضيق عن شرحه هذا المقام . وكذلك كان الشأن فيما يتعلق بالعمران ، واني لمكتف بذكر تأثير بغداد العمراني على تطور ثلاث مدن هامة في الشام وهي دمشق وحلب والقدس . ولايخفى ان سور دمشق قد هدم بعد انتهاء عهد الأمويين فيها ، وكان شكله مستطيلا في العهد البيزنطي والأموي(٤٢) . ولما أريد تشييده مجددا في القرن العاشر لم يعد على التخطيط الذي كان له قديما وانما جعل تقريبا على شكل بيضوي يعتمد على خمسة أبواب من اسوار القديم . وأظن أن ذلك كان احتذاء لشكل سور بغداد ولشيوع أشكال هذا السور ونشوء الاعتقاد ان القيمة العسكرية للسور المستدير تفضل القيمة العسكرية للسور المستطيل أو المربع .

وساد دمشق في عهد الفاطميين نظام الأحياء ونشأت فيها الحارات ، وخصص كل منها بطائفة وجعل لها أبواب تغلق ليلا ، وقسمت الأسواق بين المهن ، وامتد العمران خارج المدينة ، ونظمت الأرباض منذ زمن نور الدين ، وجعل لكل منها مسجد وحمام وعدد من الدكاكين ، وظهرت تأثيرات بغداد المعمارية في كل هذه المباني كاتباع نظام التعامد وجعل القباب عليها ، وتزيين أبوابها بالمقرنصات وطلي جدرانها بالزخارف الجصية .

وكان الأمر كذلك في حلب منذ زمن الحمدانيين ، فقد انشأ سيف الدولة قصره في وادي نهر قويق بعيدا عن سور حلب بنحو كيلو مترين ، وكان هذا القصر الذي بلغ محيطه (٧٠٠٠ ذراع) والذي هدمه البيزنطيون سنة (٩٦٠م) نسخة عن قصور الخلفاء في بغداد(٤٣) . ونشأت أيضا في حلب الأسواق على شاكلة أسواق بغداد ، وانتظمت الحارات التي زودت كل منها بباب يغلق ليلا ، ورمم السور الذي تصدع من هجوم البيزنطيين في السنة التي ذكرناها ، وجعل في غربه محدبا ، ويحتذي في تخطيط خندق الروم الذي كان أمامه ، ونظمت الأرباض كما نظمت أرباض دمشق .

وأخيرا فان تطور مدينة القدس في العهد العباسي كان يشبه ما ذكرنا ، ويظن انه كان لها سور مستدير وكان الغربيون ينظرون اليها نظرا مثليا ، وقد نقل الحجاج منهم صورتها الى بلادهم ، وكانت هذه الصورة تتألف من دائرة تامة مقسمة الى أربعة أقسام متساوية تشقها أربعة طرق متعامدة على بعضها . وقد أثرت الصورة المذكورة على مخططات عدد من ٢٩

المدن الأوربية المستديرة التي نشأت قبل القرن الثالث عشر الميلادي(٤٤) .

وفي الواقع لم يكن تأثير عمران بغداد وعمارتها على العالم الغربي أقل من تأثيرهما على العالم العربي وقد ظهر هـذا التأثير خاصـة في بيزنطه . اذ أن بغداد والقسطنطينية ، الى التقائهما في مئات المعارك التي خاضتاها بعضهما ضد بعض ، كانتا تتنافسان سلميا(٤٥) . في ميـادين العلم والثقافة ، وتتطلع كل منهما الى ما يمكنها أخذه من تراث الأخرى . واذا كان العباسيون تلقوا عن البيزنطيين كتبهـم العلميـة والفلسفية وترجموها الى اللغة العربية ، فان البيزنطيين تعلموا من العبـاسيين ما ساعدهم على تجميل مدنهم ، وانشاء عمارات قصورهم . وقـد بهرت أباطرتهم مبتكرات بغداد وسامراء العمرانية والمعمارية فكانوا يرسـلون سفراءهم الى بلاط الخلفاء ، للاطلاع على نماذج قصـور هؤلاء ولطلب تصاميمها وتفاصيلها . ولا يخفى ان الامبراطور تيوفيل الـذي هزمـه المعتصم هزيمة نكراء في عمورية ، أرسل في فاتحة حكمه سفيره يوحنـا النحوي وهو من أكبر علماء عصره في سفارة الى بغداد ، ولما عـاد يوحنا الى القسطنطينية روى لسيده كثيرا من الأمور التي شاهدها في بغـداد وزين له محاكاة قصـورها . وعمل تيوفيل بنصيحته(٤٦) وشيـد عمارة (التريكونك (Tricomique على شاكلة القصـور البغـدادية ، ونثر أقسامها بين الأزهار والظلال ، أحاطها بالحدائق . واسـتخدم أحـد المخططات التي أحضرها معه يوحنا النحوي ، في بنـاء قصره المسـمى الـ (برياس (Bryas ، وقد عرف عنه ذلك وشاع(٤٧) .

ولم يبق هذا التأثير محصورا في قصور الأباطرة . وانتقلت عدواه الى مدينة القسطنطينية التي جعلت هي الأخرى تتخذ مبـاديء العمـران والعمارة البغداديين وتترك مبـاديء العمران والعمارة اليـونانيين الرومانيين ونشرت في أرجائها الأقنية المائية التي انبتت الخضـرة في كل مكان واحتذيت مبادىء تخصيص الأسواق بأرباب المهن ، ونظمت رقعتها على ضفتي البوسفور وزرعت بين الأسواق والأحياء وجعل أهل كل صناعة في سوق لا يشاركهم به سواهم ، وعمل لكل حي باب يغلق ليلا ، وفـرق السكان الغرباء عن المدينة على هذه الأحياء ، فـكان في المدينة أسـواق خاصة بالجنوبيين والبنادقة وأهل رومية وأهل فرانسا وقد تحدث ابن بطوطه في رحلته عن كل ذلك بالتفصيل(٤٨) .

وحذت حذو القسطنطينية مدينة سالونيك ثانية المدن البيزنطيـة التي اتخذت أيضا نظام الحدائق التي أحاطت كنائسها ، وأصول الأقنيـة التي سدت حاجة السكان من المياه ، وتدفقت في حماماتها كما كـان الأمر في حمامات بغداد وسامراء ، وكذلك اتخذت مادات تخصيص الأسـواق والأحياء .

وأخيرا فان مدينة البندقية التي ورثت مدينة القسطنطينية ومـدت

تأثيرها في أوربا اكتسبت هي الأخرى انظمة الأروقة والساحات والأفنية التي ما تزال قائمة فيها الى يومنا هذا دليلا واضحا على تأثير الشرق العربي في الغرب ٤٤ ٠

---

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد طبع القاهرة ١٩٣١ الجزء الاول ، الصفحة (٧٧) ٠

(٢) الخطيب البغدادي ، المصدر المذكور ، الصفحة (٤٥) ٠

(٤) الطبري ، تاريخ البلدان ، الجزء التاسع ، الصفحة ٢٣٨ ٠

(٥) انظر الابحاث :

— H. Stern, Notes sur l'Architecture des châteaux des Omeyyades, Ars Islamic T. III

— K.A.C. Creswell, Architeture Musulmane primitive, Encyclopédie de l'Islam, Architecture, T.I, Nouvelle Edition

— Id. - Early Muslim Architecture. T. II

(٦) كريزويل ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، الصفحة (١٥) ٠

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبع القاهرة ، الصفحة (٢٨٥) ٠

(٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء السابع ، الصفحة (٢٩٥) ٠

(٩) وهي غير مدينة الهاشمية التي بناها أبو العباس السفاح قرب الانبار على شاطيء الفرات ، انظر اليعقوبي ، كتاب البلدان ، الصفحات (١ ــ ٢٢) ٠

(١٠) البغدادي ، تاريخ بغداد ، الجزء الاول ، الصفحة (٦٦) ٠

(١١) انظر المصادر التي تتحدث عن ذلك في :

K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, T. II, p. 6

(١٢) انظر : الشرح ١٣ Christian, Altermskunde, II,

(١٣) انظر كتاب :

Pierre Lavedan: Histoire de l'Urbanisme, T.I, Paris 1926

(١٤) انظر المراجع عن هذه المدن في بحثنا : « فن العمارة العسكرية السورية منذ الالف الثاني قبل الميلاد حتى آخر العهد البيزنطي ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، العدد الثاني ٠

(١٥) ، (١٦)

Sarra and Herzfeld, Archäologische Reise, I, pp. 101-3

(١٧) K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, II, p. 18

(١٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، الصفحة (٢٨٤) ٠

(١٩) ياقوت ، معجم البلدان ، الصفحة (٢٩٥) ٠

(٢٠) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، الجزء التاسع ، الصفحة (٢٤٠) ٠

(٢١) Le Strange (G.), Baghdad during the Abbasid Caliphate, London 1900

اما ما يتعلق بهرزفيلد وكريزويل فقد سبق الاشارة الى كتابيهما ٠

(٢٢) استندنا في سرد الارقام التالية على كتاب كريزويل واعتمدنا على استنتاجاته ٠

(٢٣) الاقلام : كان باب البصرة في الجنوب الشرقي ٠

(٢٤) كان باب الكوفة في الجنوب الغربي ٠

(٢٥) وقد أجاب المنصور البطريق الروماني قائلا : « أما قولك في الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا وأما العيب الثاني ، فاننا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك في سري فمالي سر دون رعيتي » ، الخطيب البغدادي ، المصدر المذكور سابقا ، الصفحة (٧٨) وما بعدها .

(٢٦) الخطيب البغدادي ، الصفحة (٨٠) .

(٢٧) ويشير الى ذلك الحديث الشريف « تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة ويجبى اليها خراج اهل الدنيا وجبابرتها ... » الخطيب البغدادي الصفحة (٢٨) .

(٢٨) الخطيب البغدادي ، الصفحات (٧٨) و (٧٩) و (١١١) .

(٢٩) — A.A. Duri, Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, "Baghdad" T.I

(٣٠) اليعقوبي ، البلدان ، الصفحة ٢٦٤ ، انظر بحثنا عن فن الحدائق عند العرب في المجلد العاشر من مجلة الحوليات الاثرية السورية .

(٣١) الخطيب البغدادي ، المصدر المذكور ، الصفحة (١٠٣) .

(٣٢) لقد كان في قصر الخليفة هذا دار الخيل المعدة لاستقبال السفارات الاجنبية ويظن ان فكرتها مأخوذة عن دار الخيل التى كانت مقابل قصر الخضراء في دمشق خلال العهد الاموي ، ودار الفيل وغيرهما ، وقد اضاف الخليفة المطيع الى هذه المنشآت دار الطواويس ودار المثمنة ودار المربعة ، وانشأ الخليفة الطائع باب الخاصة واصلح الخليفة المستظهر دار الريحانيين الخ .. انظر الصفحات (٥٥ ـ ٦٠) من كتاب جورج سالمون ، المدخل الطوبوغرافي لتأريخ بغداد باللغة الافرنسية المتقدم الذكر .

(٣٣) الخطيب البغدادي، المصدر المذكور، الصفحة (١٠٢) .

(٣٤) أنظر وصفا لاحدى حدائق الحيوانات في سامرا كانت تحوي الوحش من الظباء والحمير الوحش والايايل والارانب والنعام ، في اليعقوبي ، المصدر المذكور سابقا ، الصفحة (٢٩) .

(٣٥) انظر البحث القيم الذى كتبه بشير يوسف فرنسيس ، المظاهر الفنية فى عواصم العراق الاسلامية القديمة على ضوء الاستكشافات الحديثة ، مجلة سومر ، الجزء الاول ، المجلد الرابع الصفحات (١٠٣ ـ ١١٢) .

(٣٦) انظر فصل العمارة العباسية في :

G. Marçais, l'Art de l'Islam, Paris, pp. 33-60

(٣٧) انظر كرزويل ، المصدر المذكور سابقا ، الصفحة (٣٩) .

(٣٨) انظر :

KfiA,C., Fortification in Islam in Islam before A.D. 1250, from the Proceedings of the the British Academy, Vol. XXXVIII, p. 108

(٣٩) للاطلاع على مجمل الاعمال الاثرية التي جرت في مدينة الرقة ، يرجع الى التقارير التي نشرت عنها في اعداد مجلة الحوليات الاثرية السورية الآتية :

— S. Abdul Hak, Chronique ds Fouilles en Syrie, Les fouilles de la Direction Générale des Antiquités à Rakka, T.I No. 1, pp. 111—121

— Nassib Saliby, Rapport préliminaire sur la 2ème campagne de fouilles à Raqqa, T.IV/V, pp. 205—212

Deuxième Exposition des découvertes archéologiques 1954-1955

تسيب صليبي ـ حفريات الرقة ـ تقرير اولي عن الموسم الثاني ـ خريف ١٩٥٢ الصفحات ٦٧ الى ٧٦ الجزء الرابع ٠

ـــــ ـ حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث خريف ١٩٥٣ ـ الجزء السادس الصفحات ٢٥ الى ٣٩ ٠

ابو الفرج العش ـ الرقة من خلال التاريخ وكتب الرحالة ، الجزء السابع ، الصفحات ٥٣ الى ٧٢ ، وكذلك انظر في الصفحات ٤٦ ـ ٥٠ من

(٤٠) انظر : y. — Sauvaget: Esquisse d'une historie de la ville de Damas, Revue des Etudes Islamiques, Année 1934, pp. 425-480

(٤١) الاقلام : هو المعشوق ، لا العاشق ٠

(٤٢) انظر : y. Sauvaget, Aleps, Paris 1941, p. 101.

(٤٣) لافدان المصدر المذكور سابقا ، الصفحة (٢٧٢) ٠

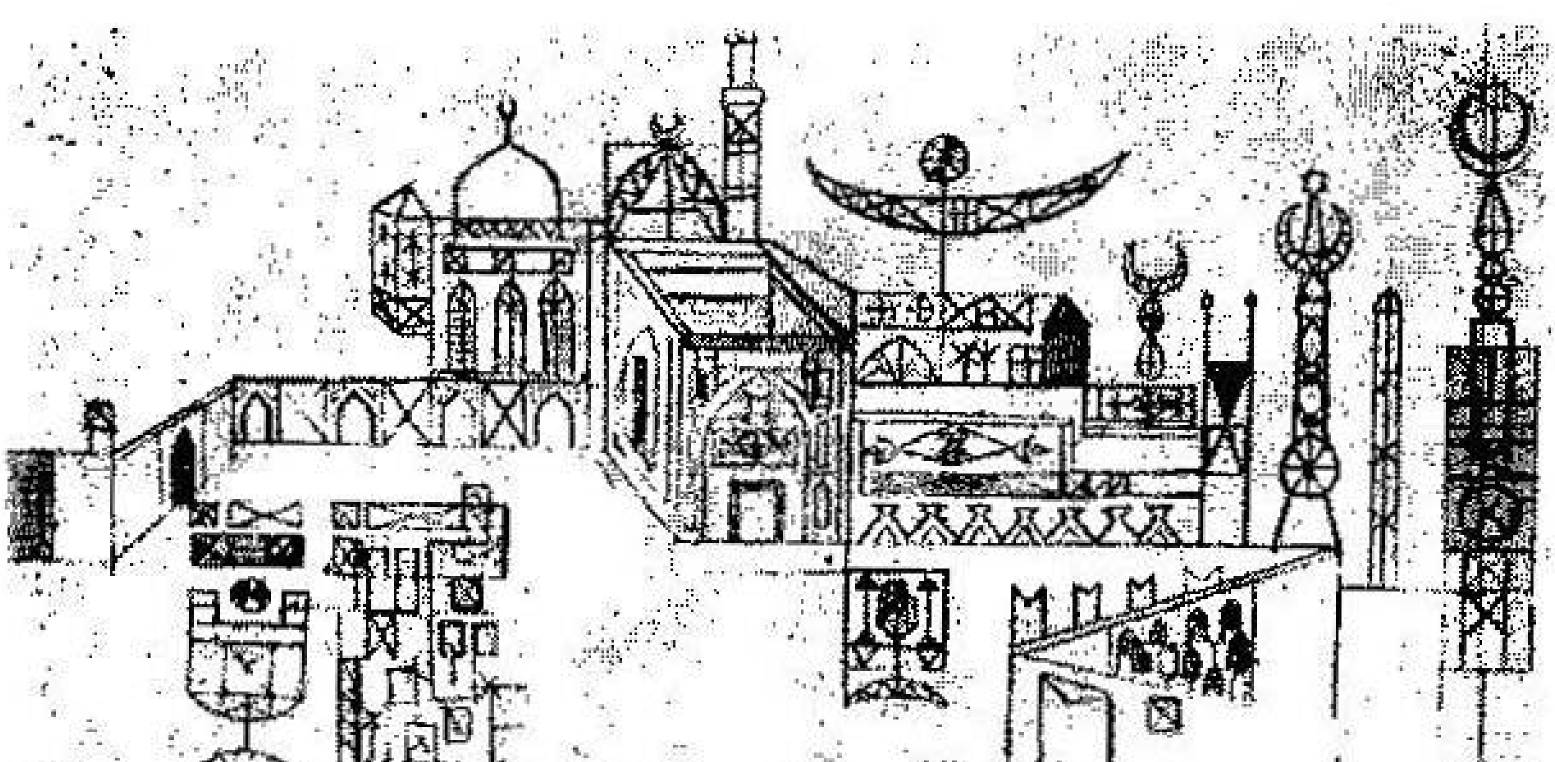
(٤٤) ستيف رانسمان ، بغداد والقسطنطينية ، مجلة سومر ، المجلد الثاني نشر ١٩٥٦ ، الصحيفة ١٠١ وما بعدها ٠

(٤٥) انظر : Charles Diehl et Georges Marçais, le Monde Oriental de 395 à 1081, Paris 1936, pp. 332-333.

(٤٦) ويظن ان ذلك هو الذي دعى الخطيب البغدادي لكي يقول في تاريخه الجزء الاول ، الصفحة (٩٤) : « ان بغداد صورت لملك الروم ارضها واسواقها وشوارعها وقصورها وانهارها ٠٠٠ فكان اذا شرب دعا بالصور ، فيشرب على مثال شارع سويقة نصر بن مالك ، ويقول لم أر صورة شيء من الابنية أحسن منه » ٠

(٤٧) رحلة ابن بطوطة ، الجزء الاول ، الصفحة ٢٢٦ ٠

(٤٨) لافدان ، المصدر المذكور سابقا ، الصفحة (٢٧٣) ٠



المطولات او

شعر الملاحم

جمال الدين الآلوسي

في لسان العرب : الملحمة هي الموقعة العظيمة وقيل موضع القتال • وفي الحديث (اليوم يوم الملحمة) والجمع الملاحم ، هذا معنى الملحمة في اللغة •

وقد عد أبو يزيد القرشي صاحب جمهرة العرب سبعة من الشعراء عدهم شعراء الملاحم واورد نماذج من ملاحمهم واراد معناها اللغوي وهم (الفرزدق وجرير والاخطل وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت والطرماح) •

أما معناها في الاصطلاح الأدبي فتطلق على قصائد اتسمت بالحديث عن الأبطال وتعتمد على الخيال المجنح وتصور بطولة المتحاربين وتتميز بالطول وتحكي قصص الاحداث التأريخية ويتجلى فيها تدخل الآلهة •

جاء في كتاب اصول الأدب للاستاذ أحمد حسن الزيات عن الملحمة قوله (ان خصائص الملحمة كما وجدت عند هوميروس من حيث الخيال والخرافة والطول لا توجد نظائر لها في الشعر العربي ، اللهم الا فيما وجد من الشعر العامي مثل قصص بني هلال وعنتره فانه يشبه الى حد كبير خصائص الملحمة) •

وفي الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين قال (ان شعر الملاحم لا يعتمد على ذكر الأبطال والحروب ليس غير ، وانما يعتمد على ذلك وعلى أشياء اخرى منها اللفظي ومنها المعنوي فهو في لفظه طويل تبلغ القصيدة من قصائده آلافا من الأبيات وهو في معناه يذكر الحروب والمحن وبلاء الأبطال فيها ولكنه يذكر الآلهة ويستوحيهم ما يريد أن يقول ثم هو في معناه اجتماعي يفني شخصية الشاعر فناء تاما أو كالتام في الجماعة التي يصفها من جهة والجماعة التي ينشدها • وليس في الشعر العربي شيء من هذا (ص ٢٥٦) •

وجاء في مقدمة البستاني لترجمة الالياذة قوله (اليساذة هوميروس

ملحمة من الشعر القصصي بالنظر الى ما تضمنه من سرد الوقائع والأخبار وما تجاوزت به الى ما وراء الطبيعة من شؤون الآلهة وملابستهم للبشر) .
وقال في أسباب خلودها :

(ان هوميروس انما نقر على أوتار الافئدة فأثارها ونفخ في بوق الارواح فأطارها ومزج الحقيقة بالخيال مزجا يخيل لك انهما تآلفا فتحالفا وسبر أعماق النفس في سذاجتها وتحرى الفطرة في بساطتها وهاج العواطف والشعائر وتكلم بجلاء لاتشوبه مسحة التكلف فأسهب موضع الاسهاب واوجز موضع الايجاز ومثل تمثيلا صادقا عن العقيدة) .

ولقد سجل العرب في الجاهلية والاسلام كثيرا من أيامهم وأخبار حروبهم وأبطالهم ، ووصفوا الابل لأنها تحملهم الى أرض لم يكونوا بالغيها الا بشق الأنفس تؤنسهم في وحدتهم وتصبر على الجفاء وتحتمل لأوار الصحراء وجدبها وقلة مائها فأحبها الشاعر لم يفته شيء من أعضائها الا ووصفه وكأنه مغرم بها ، ووصفوا الخيل لأنها مصدر قوة لهم في كرهم وفرهم ، صوروا بيئتهم المترامية الأطراف خير تصوير تصوروا الغول والجن والشياطين ، ومن يضرب في الصحراء وتتشعب عليه طرقاتها وتنبهم عليه شعابها ووهادها وتختفي أمام ناظريه الصوى والعلامات من المحتم أن تعتريه الوحشة ويداخله الخوف ويملأ اذنيه صفير الرياح يتصور من ينفرد في الصحراء ان الجن تناجيه وان الوحوش ستغتاله يتوهم الهمسة نداء ويظن خفيات الامور تناديا ، سجل السراب والظل والطيف والوحش والسماء والنجم ووضع النجم علامات يستهدي بها .

هذه هي مادة الملحمة وان لم يذكر الآلهة في حروبه ولم يجعل من الخرافة مادة لشعره وربما استعان على ذلك بذكر الأوثان وأثرها في حياته فقد كان الشاعر الجاهلي يستعين بالأوثان ويحسب ان لها قوة تقربه من الله الواحد الذي اهتدى الى التوحيد بفطرته . من ذلك ما روي ان امرأ القيس قد حطم صنم قبيلته عندما استقسم اليه فنهاه عن الخروج الى الحرب فقال:

(لو كنت (ياذا الخلص) الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

والشعر العربي من حماسة وفخر ورثاء ووصف للحروب مليء بأخبار البطولات ونكران الشاعر ذاته وفنائها في قبيلته ، واذا تحدث عن نفسه فهو يتحدث عن قومه الذين يقودهم وعن انتصاراته بمؤازرتهم له ، فكان شعره مرآة لحياة البطل الذي يمثل المحاربين من شباب قبيلته ، كما يستطيع المتتبع للشعر العربي في ادواره المختلفة ان يجد الكثير من هذا الشعر يصور حياة الامة ، خذ مثلا معلقة عمرو بن كلثوم وعنترة ولبيد والحارث فنحن اذا قرأناها نحس حياة البادية مجسدة والوانها واضحة ، تمر امام اعيننا روى الصحراء ونتصور حياتهم ظاهرة ونلمس شخصية الابطال في اشعارهم

وطول الملحمة عند اليونان ووحدة العقيدة عندهم لا ينقص من الشعر العربي حين خلا من قصائد طوال لم تبلغ ما بلغته الالياذة والاودسه او الشهنامة مثلا ، واذا لم تكن في شعرنا قصيدة واحدة تقص علينا أيام العرب وتأريخهم وتصف ابطالهم فقد وجدت قصائد متعددة تكمل الملحمة او ما يشبه الملحمة.

قيل ان معلقة عمرو بن كلثوم قد بلغت الف بيت ولهجت بها القبيلة حتى عيرهم بذلك احد الشعراء فقال :

الهى بني تغلب عن كل مكرمة
فصيدة قالها عمرو بن كلثوم

وفي العصور الاسلامية حصلت محاولات للمطولات فقد نظم احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد مطولة جاءت في خمس مئة وخمسين بيتا ، وصف فيها الحروب والاحداث التي جرت ايام عبدالرحمن الثالث الذي حكم الاندلس من ٣٠٠هـ الى ٣٥٠ وكان عصره يعد أزهى عصور العرب في الاندلس حضارة وسطوة ومنعة وعمرانا وفي الجزء الرابع من العقد من ٥٠٠ الى ٥٢٧ القصيدة بكاملها استخدم فيها بحر الرجز ، وقد احتوت احداثا وقصصا ووصفا لبطولات الناصر تجعل هذه المطولة في عداد الملحمة ، قال في غزوة جيان :

ثم انتحى جيان في غزاته
بعسكر يسعر من حماته
فاستنزل الوحش من الهضاب
كأنما حطت من السحاب
فأذعنت مراقها سراعا
واقبلت حصونها تداعى
لما رماها بسيوف العزم
مشحوذة على دروع الحزم
كادت لها أنفسهم تجود
وكادت الارض بهم تميد
وافتتح الحصون حصنا حصنا
واوسع الناس جميعا أمنا
ثم انتحى من فوره البيرة
وهي بكل آفة مشهورة
فداسها بخيله ورجله
حتى توطا خدها بفعله
ولم يدع من جنها مريدا
بها ولا من انسها عنيدا
الا كساه الذل والصغارا
وعمه وأهله دمارا

فمــــا رأيـت مثـل ذاك العـمـــام
ومثـل صنـع الله للاســــلام

وعلى هذا النمط تمضي الارجوزة تصور حروب عبدالرحمن الناصر وتصف الاحداث التي تغلب عليها الخليفة الحازم ، وعلى غرارها ملحمة ابى طالب بن عبدالجبار الذي كان يسمى متنبي المغرب وهي تدور على وصف حروب العرب الاندلسيين مع الاسبان وعدد ابياتها ٤٥٤ بيتا اثبتها ابن بسام في الجزء الثاني من المجلد الاول من ٤٠٥ ـ ٤٣١ قال في دولة العرب في الاندلس ٠

وزمــن الـوليـد كــان فتحهــا
بحسب مـا قـدم قبـل شرحهـا
وبعدكـم حـرب وكـم مـن هـول
ليوسـف الفهـــري والصميل
استـوسـق الملك بهـذي الناحيه
لعـابد الرحمن بـن معـاويـة
ثـم تـولاه ابنـــه هشـــام
حتـى اتـاه بعـده الحمـام
فبــايعـوا ابنـه المسمى حكمـا
فـابـرم الملـك لـه وأحكمـا
فأعتـرض الملك لـه مـن اعتـرض
فاوقـع الصلـب على اهـل الربض

وهكذا يمضي في تعداد الملوك الذين ولوا الحكم في الاندلس ويشير الى اهم الاحداث التي جرت في زمنهم من ذلك قوله في دولة بني جهور ٠

لمـا رأى اعــلام مصـر قـرطبـة
ان الامـور عنـدهـم مضطـربـة
وعـدمـت شـاكلة للطــاعـة
استعملـت آراءهـــا الجمـاعـة
فقدمـوا الشيـخ مـن آل جهـور
المكتنـى بـالحـزم والتـدبـر
ثـم ابنـه ابـا الـوليـد بعـده
وكان يحـدو في السـداد قصـده

يقول شوقي ضيف في كتابه دراسات في الشعر العربي المعاصر (وتعرض بعض الشعراء لكتابة التاريخ او فصل منه بالشعر على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه في نظمه لحروب عبدالرحمن الناصر ولسـان الـدين بن الخطيب في نظمه التاريخ حتى عصره شعـرا وكثيرا مـا نظمـت سيـرة

الرسول صلى الله عليه وسلم وقصتنا اسرائه ومعراجه ولكن اكثره ليس من الشعر القصصي في شيء انما هو غالبا ما يكون بنظم المتون اذ تحصي المعلومات التاريخية احصاء على نحو ما يحصون في متون الشعر التعليمي قواعد العلوم فهم ينظمون الحوادث في اسلاك من الشعر وقلما يضيفون روعة من خيال او تمثلا صحيحا لحقائق التأريخ وما اندمجت فيه من متناقضات او لمع على جبينها من بطولة وابطال .

وقال الدكتور المحاسني (ادب الملاحم والملحمة العربية) (لو رجعنا الى قصائد الشعراء الذين شهدوا المعارك او وصفوها لرأينا فيها ما يشبه الملاحم عند الامم العريقة في هذا الفن وضرب امثلة من الشعر العربي في العصر العباسي عند ابي تمام وابي نواس والمتنبي ثم قال (لئن كانت تهاويل الاساطير في الخيال وخوارق الحدثان شروط الملاحم القديمة والملاحم الغربية فاني لارى هذا جديرا بالملحمة العربية العتيدة فان عصرنا لم يعد اهلا للاساطير وديننا الحنيف قضى عليها منذ اقدم العصور) وتعد مقصورة ابن الحسن بن حازم القرطاجني خطوة موفقة للشعر الملحمي وقد بلغت الف بيت عدا .

ويمكننا ان نسلك قصيدة المرحوم سامي البارودي في مدح الرسول وذكر سيرته الكريمة وقد بلغت ٤٤٧ بيتا وهي على وزن وقافية قصيدة البوصيري وعنيت بحروب الرسول وأفعاله صلى الله عليه وسلم قال في وصف غار حراء :

وسجف العنكبوت الغار مختفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم

قد شد أطنابها فاستحكمت ورست
بالارض لكنها قامت بلا دعم

كأنها سابري حاكه لبق
بأرض سابور في بحبوحة العجم

وارت فم الغار عن عين تلم به
فصار يحكي خفاء وجه ملتثم

فيا له من ستار دونه قمر
يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم

فظل فيه رسول الله معتكفا
كالدر في البحر او كالشمس في النسم

حتى اذا سكن الارجاف واحترقت
اكباد قوم بنار اليأس والوغم

اوصى الرسول باعداد الرحيل الى
من عنده السر من خل ومن حشم

وســار بعـــد ثلاث من مبـــاءته

يـــوم طيبـــة ماوى كـــل معتصـــم

ويمضي في سرد الحوادث وتفصيل معجزاته وغزواته وبطولات اصحابه ويختمها :

اني وان مال بي دهري وبرح بي

ضيم اشاط على جمر النوى ادمي

لثـــابت العهـــد لم يحلل قـــوى املي

يأس ولم تخط بي في سلوة قدمي

لم يترك الدهر لي ما استعين بـــه

عـــلى التجمل الا ســـاعدي وفمـــي

هذا يحبر مدحي في الرسول وذا

يتلو على الناس ما ازجيه من كلمي

وفي الشعر الحديث مطولات كثيرة جاروا فيها البارودي منها قصيدة أحمد شوقي التي مطلعها :

ريم على القاع بين البـــان والعلـــم

احل سفك دمي في الاشهر الحرم

وقد بلغت ابياتها ١٩٠ بيتا : ومن ابلغها قوله :

افديك الفـــا ولا الـــو الخيـــال فدى

اغراك بالبخـــل من اغـــراه بالكـــرم

سرى فصادف جرحـــا داميـــا فأســا

ورب فضـــل على العشـــاق للحلـــم

ومن هذه المطولات قصيدة الرصافي في نكبة بغداد على يد هـــولاكو ومنها :

هو الدهر لم يرحم اذا شد في حرب

ولـــم يتئـــد امـــا تمخض بالخطـــب

يزمجـــر احيـــانـــا ويضحـــك تـــارة

فيظهـــر في بردين للجـــد واللعـــب

فـــلا هـــو في سلـــم فنأمن بطشـــه

ولا هو في حرب فنقعـــد للحـــرب

ارى الدهر كالميزان يصعـــد بالحصى

ويهبط بالموزون ذو الثمن المـــربي

ادال من العـــرب الاعـــاجم بعدمـــا

ادال بني عباسها من بني حرب

وفيها من عناصر الملحمة الشيء الكثير ، الخيال والوصف والقصص ولا يمكن ان نعدها ملحمة بكل معانيها .

وعمرية حافظ ابراهيم من هذه المطولات ومطلعها :

حسب القوافي وحسبي حين القيها
انى الى ساحة الفاروق أهديها

وفى مقتل عمر يقول :

مولى المغيرة لا جادتك غادية
من رحمة الله ما جادت غواديها

مزقت منه اديما حشوه همم
فى ذمة الله عاليها وماضيها

طعنت خاصرة الفاروق منتقما
من الحنيفة فى اعلى مجاليها

فأصبحت دولة الاسلام راسخة
وزان بالعدل والتقوى مغانيها

ومنها .

يا رافعا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرا من محبيها

لم يلهك النزع عن تأييد دولتها
وللمنية آلام تعانيها

وفى هذه الفترة ظهرت قصائد ومطولات ومقصورات منها مقصورة السيد رشيد رضا صاحب المنار (وعلوية) عبدالمطلب و (بكرية) عبدالحليم المصرى وارجوزة احمد شوقي التي بلغت (١٧٢٦) بيتا وعرفت بـ (دول العرب وعظماء الاسلام) وصاغ معناها ولفظها وهو يعانى الم النفى ويتجرع غصص النوى) ابان الحرب العالمية الاولى ، وفي لغة العرب يقول :

تبارك الرحمن ذو الاحسان
مميز الانسان باللسان

لولاه لم ينهض بسائر النعم
ولا عدا في الارض سائم النعم

فهو اداة العلم والبيان
وهيكل الحكمة والاديان

ومفجر الفكر والاختراع
ومستقى اللهاة واليراع

وصدف المنظوم والمنثور
ومصحف المعلوم والمأثور

ومسكة العمران بين الناس
على العصور وعلى الاجناس
رب لبنان جمع الاقواما
وكان كالجنس لهم قواما
واستمسكت واعتصمت به الفطن
كعروة الملة او حبل الوطن
ورب شعب نال مجدا باللغة
لم يبلغ الاقوام فيه مبلغه
كانت له في ظلها حضارة
رفت نعيما وجرت نضارة
سالت على الاجيال من ضياء
واشرعت قرائح الاحياء
وكل حسن كامن او باد
اودعه الله اللسان البادي
هذبه العرض على الاذواق
فيما يقيم القوم من اسواق

ان ظهور هذه المطولات في فترة بدأت من الاحتلال الانكليزي لم يكن ظهورها عفويا او وقع من غير قصد وانما كان ابرازها على يد شعراء متعددين في هذه الفترة التي يرتقي عهدها الى سنة ١٨٨١ـ١٩٣٥ كان يهدف الى اذكاء الوطنية في نفوس الشباب الذين تكتنفهم تيارات مختلفة ودعوات تشكيكية هادفة وتغمرهم مناهج دراسية من وضع الاستعمار فكانت هذه المطولات دروسا في الوطنية والعزة القومية ونشر الوعي الاسلامي والقومي واحياء أمجاد الامة العربية ليطرحوا عنهم المذلة والمسكنة أو الشعور بالصغار الذي كان ينشره التعليم الاستعماري والذي كان أبرز ما فيه التقليل من شأن الحضارة الاسلامية فراح الشعراء وهم في كل دور الحداة للشعب العربي والقادة للجماهير في الهاب الحماسة واذكاء نسار الوطنية راحوا يصورون ما كان لاسلافنا من أمجاد وبطولات وحضارات الى أن توج هذا النوع من الشعر بالملحمة الكبرى للمرحوم (احمد محرم) سنة ١٩٣٥ وعرفت ب (ديوان مجد الاسلام) او (الالياذة الاسلامية) وطبعت سنة ١٩٦٣ جاء في مقدمتها عن المواطن العربي :

(وقد نسي امانته فكانت مدفونة تحت الخرابة التي انضوى اليها او انطوى بين انقاضها ولم يعد يعرف أن له رسالة ولا انه صاحب تلك الامانة التي سعدت بها الانسانية في ازهر عصورها وآلت بعد ذلك ان تدفن تحت الانقاض فتكون مجهولة حتى من وارثها الذي الف العيش بين انقاض الخرائب ، تلك هي صورة الناشيء العربي التي كانت في عقلي وقلبي واعماق

نفسي قبل اكثر من ستين عاما) .

كان المرحوم احمد محرم قد تملى التأريخ العربي وقد نما هذا الحب بالتربة الصالحة والري المتواصل على يد الشيخ طاهر الجزائري الذي تخرج عليه كبار علماء سوريا امثال كرد علي وعبدالقادر المغربي .

ولقد اضطلع الشاعر محرم بتسجيل امجاد الاسلام ومفاخر العروبة قبل ثلاثين عاما بدعوة من صاحب الفتح محب‌الدين الخطيب المجاهد الذي اوقف نفسه لخدمة الاسلام والعروبة بما كتبه ونشره قال (هممت غير مرة ان اكتب اليكم اقترح عليكم مشروعا كنا نحاول اقناع شوقي رحمه الله به) ويقول في رسالته (اليس من العار ان يكون للفرس ديوان مفاخر يغطي فيه البيان على العيوب ويلون ذا الوجهة منها بالوان زاهية ويسلطه على ضئيل الخير منها شعاعا قويا مكبرا بأعظم المكبرات فتكـــون من ذلـــك (شاهنامة الفردوسي) وان يكون لليونان زمن وثنيتهم وأوهامهم ديوان مفاخر كالالياذة تتغنى بها الانسانية الى يوم الناس هذا والاسلام الذي لم تفتح الانسانية عينيها على أعلى منه رتبة الخ ..)

كانت هذه الدعوة الكريمة حافزا للشاعر ان يبدأ بنظم ملحمته الاسلامية وأعلن بواكيرها سنة ١٩٣٥ ونشرت الرسالة فصولا منهسا كان لها صدى استحسان في نفوس أبناء العروبة والمسلمين في الاقطار القريبة والنائية .

وجاء في المقدمة (وحشد محرم كل طاقاته الفنية وعكف على التاريخ الاسلامي يستخلص حقائقه ويستوعب مفاخره ويسجلها فنا عاليا يسنده صدق الواقع وتؤكده حقائق التأريخ وقد تهيأ له عاملان رئيسيان كان لهما اكبر الاثر في نجاحه وبلوغه بالفكرة غايتها المنشودة واملها المرجو ، اولهما شاعرية اصيلة ناضجة وقوة فنية قادرة على استيعاب الحقائق وتمثل التجارب الانسانية تمثلا حيا يعيش في ظلالها وينفعل بها) .

كان محرم يمهد لكل فصل بآيات من القرآن الكريم ويعقبها بأقوال لبعض كبار التابعين الذين تضلعوا في المغازي والسير ، واطلق بعض الكتاب المتحمسين للشاعر صاحب ديوان مجد الاسلام على ملحمته اسم (الالياذة الاسلامية) وراح بعضهم يوازن بينها وبين الياذة هوميروس وما كان يدور بخلد محرم ان يصنع الياذة تجمع الصفات التي يجب ان تتوافر في الياذة هوميروس كالاسطورة والبطولة والخيال الذي يجعل من ابطاله انصاف آلهة والذي اعتقده ان جل قصد الشاعر احمد محرم هو تسجيل امجاد الاسلام وأن يلتزم صدق الاحداث وذكر الحقائق التاريخية ولم يحد عنها لان السيرة النبوية لها مكانتها وقدسيتها في قلوب الملايين من المسلمين واحداثها شائعة حققتها كتب الحديث والسيرة فلا ينتظر ان يداخلها وهم او خرافة او مبالغة اذن فتسمية مطولته بالالياذة فيه تجوز وعدم تسميتها

بذلك لا ينقص من قيمة الديوان ولا يقلل من جهد الشاعر افتتحها بقوله :

املأ الارض يا محمد نورا
واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سرا تجلى
يكشف الحجب كلها والشعورا
صب سيل الفساد في كل واد
فتدفق عليه حتى يغورا
جئت ترمي عبابه بعباب
أمم الارض أن تذوق الثبورا

ومنها في هجرة الرسول الى المدينة :

اقبل فتلك ديار يثرب تقبل
يكفيك من اشواقها ما تحمل
القوم مذ فارقت مكة اعين
تأبى الكرى وجوانح تتململ
يتطلعون الى الفجاج وقولهم
افما يطالعنا النبي المرسل
أقبلت في بيض الثياب مباركا
يزجي البشائر وجهك المتهلل
خف الرجال اليك يهتف جمعهم
وقلوبهم فرحا اخف واعجل
انظر بين النجار حولك عكفا
يردون نورك حين فاض المنهل

ومن غزوة بدر قوله :

ما للنفوس الى العماية تجنح
أتظن ان السيف عنها يصفح
داويت بالحسنى فلج فسادها
ولديك ان شئت الدواء الاصلح
الاذن جاء فقل لقومك أقبلوا
بل غرهم حلم يمد ويفسح
المشركون عموا وانت موكل
بالشرك يمحى والعماية تمسح
خذهم ببأسك لا ترعك جموعهم
فلأنت ان وزنوا الكتائب ارجح
ضلوا السبيل وفي يمينك ساطع
يهدى النفوس الى التي هي اوضح

اراد محرم ا نيسجل مفاخر الاسلام وامجاد المسلمين في لوحات رائعة تكون مثلا للشباب ودرسا يربي عن طريقه الناشئة العربية على العـــزة والكرامة يعرفها بهذه الصور الفنية عظائم اسلافه وبطولات اجداده فليس لك ان تطلب من محرم في لوحاته ما تجده في الالياذة من خصائص عرفهـا النقاد لما اشتملت عليه الالياذة ولقد نقد الدكتور شوقي ضيف احمد محرم في كتابه واعنفه (دراسات في الشعر العربي المعاصر) من ٤٤ـ٧د وحكم عليها انها تتردد بين الشعر الغنائي والتعليمي الجاف ، وانه لم يزد على ان حول السيرة الى نظم ٠

ودافع عنه (عن الشاعر) الدكتور سعدالدين الجيزاوي قال (اما انه لم ينظم قصيدة واحدة بقافية واحدة ووزن واحد كما فعل هوميروس فان طبيعة الشعر العربي وقيود القافية لا تسعف (محرما) ولا غـيره بانشاء اكثر من خمسة الاف بت على قافية واحة وتعدد الاوزان والقوافي لا يقدح في عمل محرم مادامت هنا وحدة وتسلسل في تصوير الاحداث) ٠

المصادر :

١ ـ الخريدة لابن بسام الجزء الثاني من المجلد الاول ٠
٢ ـ العقد الفريد طبعة لجنة الترجمة والنشر ٠
٣ ـ الموازنة للدكتور ـ زكي مبارك ٠
٤ ـ الازهر السنة الخامسة الصفحات ٤٤٤ ، ٧١٢ ، ٧٩٥ ، ١٠٩٠ ٠
٥ ـ ديوان البارودي ٠
٦ ـ ديوان شوقي ٠
٧ ـ دول العرب وعظماء الاسلام (ارجوزة شوقي) ٠
٨ ـ ديوان حافظ ٠
٩ ـ ديوان الرصافي ٠
١٠ـ الادب الجاهلي للدكتور طه حسين ٠
١١ـ تأريخ الادب العربي الاستاذ الزيات ٠
١٢ـ دراسات في الشعر العربي المعاصر ٠

●

البلاغة العربية بين التجديد والتبديد

الدكتور بدوي طبانه

تحتل الدراسات البلاغية مكانا ملحوظا بين علوم اللغة ، كما تحتل دراستها محلا ممتازا بين الدراسات التي تتعلق بألوان التفكير الفني عند الأمم والجماعات التي نالت حظا من الحضارة ، ونالت لغتهـــا قسطا من العناية والاهتمام عند أصحابها أو عند غيرهم من الأمم بما وجدت في أعمالها الأدبية من ظواهر تدعو الى التأمل فيها ، والاهتمام بها ، ومحاولة وصفها وتقدير قيمتها بين الظواهر الفنية المماثلة أو المخالفة في الآداب الانسانية .

والى هذه البلاغة ، أو الى الاتصاف بها ، تتسامى طبقة الخاصة من الأدباء الذين تتميز لغتهم عن لغة غيرهم من الذين يتكلمون باللسان الذي يتكلمون به ، بخصائص فنية تتوافر في تعبيرهم ، وترفعهم الى رتبة أرباب الفنون ، وترفع كلامهم الى مرتبة الفن الذي يدعو أصحاب الأذواق الرفيعة الى الاعجـــاب به ، أو الاعجاب بتلك الخصائص التي يتحملها ، ومحاولة حفظه والتمثل به في الأحوال والتجارب التي يمر بها الناس في حياتهـــم الزاخرة بما يدعو الى التدبر والتأمل ، والمتقلبة بين موجبات رضا النفس الانسانية وتذمرها وسخطها ؛ فتتناقله الانسانية ، ويجري على ألسنتها من زمان الى زمان ، وتحرص عليها حرصها على كل نفيس من آثار الانسانية وتراثها . وكثيرا ما تجعله مادة للدرس والبحث ، وتوازن بينه وبين غيره من الآثار الجديرة بالموازنة والدرس ، كما يعمد المبتدئون من أهل الفن الأدبي أو الذين يحاولون تقليده الى الافادة منه والنسج على منواله .

والسبب الظاهر في ذلك الاهتمام أن أولئك الأدباء يتحرون التعبير الممتاز عن مشاعرهم وآلامهم وآمالهم ويبحثون عنه ، في حين أن أكثر طبقات الناس لايتطلعون في تعبيرهم الا الى التعبير المفهم عن أغراضهم في الحياة ، وليست العبارة المنطوقة أو المكتوبة عند هذه الطبقات الكثيرة الا وسيـــلة واحدة من وسائل الافهام وأدواته الكثيرة التي يستعملها الناس .

ومجال التفاوت بين تلك الوسائل وبين ما تدل عليه ضيق محدود اذا كانت غاية التعبير افهام الحاجات والمقاصد التي تعرض في حيـــاة

الانسان ، ويريد الكشف والابانة عنها •

فالاشارة باليد أو بالحاجب أو غيرهما من الأعضاء وسيلة من وسائل الافهام التي استعملها الانسان منذ كان ولا يزال يستعملها ، وكثيرا ما تؤدي هذه الغاية ، فيقوم مقام العبارة اذا اصطلح الناس عليها أو اصطلحت عليها احدى الجماعات في بيئة من البيئات ، فتصبح حينئذ دلالة الاشارات المختلفة مفهومة عندهم ، كما أن دلالات الألفاظ والتراكيب التي يستعملونها من غير محاولة لتخير أجزائها أو سبكها سبكا فنيا مفهومة عند جمهور الذين يتكلمون بلغة من اللغات •

بل ان للصمت في بعض الأحوال من الدلالة ما للكلام والاشارات ، ذلك أن الصمت ليس معناه عدم التجاوب أو فقد التفاعل مع الأحوال والمواقف ، فان التفاعل عملية داخلية تؤثر في القلب وتثير العقل ، فتبدو آثارها على قسمات الوجوه ، وما يترادف عليها من آثار الانفعالات التي تكون معبرة عن مكامن الشعور ، فتكشف وتبين كما يكشف الكلام المكتوب أو الكلام المنطوق أو الاشارة الدالة على المراد •

ومن العسير الحكم بأن اشارة من الاشارات أرفع من غيرها ، أو بأن ذلك الصمت الذي برزت آثاره خير من صمت آخر ، لأن الانسان يشير كما يشير غيره ، فهي حركة واحدة ذات مفهوم واحد ، كما أن الصمت تبدو آثاره على وجه صاحبه كما تبدو على وجوه الآخرين ، ويستشف منه الناس حقيقة شعور صاحبه ، ومدى سخطه أو رضاه ••

فالتباين بين الناس والتفاوت بينهم في هذين وأمثالهما قليل ضئيل، والاختلاف في فهم دلالتهما قليل ضئيل أيضا •

•□•

وعلى هذا فان التعبير الممتاز عن معنى من معاني الحياة بالعبارة المنطوقة أو بالعبارة المكتوبة هو الذي اتفق الناس على أن يسموه أدبا ، وعلى أن يخلعوا على صاحبه القادر عليه لقب الأديب ، حتى اجتمع للانسانية من هذا الفن الأدبي تراث هائل يعز على الحصر والاستقصاء في كل لغة من اللغات التي عرفها الانسان •• وهذا التراث يفوق في كثرته وضخامته سائر الآثار التي خلفتها الانسانية في مختلف العلوم وسائر الفنون •

وكذلك وجدت في كل أمة من الأمم طبقة احتلت منزلتها بين طبقات المجتمع فيها تسمى طبقة الأدباء ، واتخذت هذه الطبقة فن الأدب صناعة لها ، فعرفت به واشتهرت ، وتميزت به من سائر أرباب الصناعات والفنون اذ كان في نتاجهم المنظوم في الشعر ونتاجهم المنثور في الخطب والمقالات والقصص ما يجمع بين خصائص الفنون ومزايا العلوم ، وبين حاجات القلب وأعمال العقل ، بما حشد فيه من ألوان الجمال الذي يربي الأذواق ، ويمتع النفوس ، ويثير الاعجاب بما تحمله مما يمس العواطف الانسانية ، ومما

يعبر به عن تجارب الحياة ، وبما قد يكون فيه من الحقائق التي يسلم بها العقل ، ويجد فيها ما يبعثه على التأمل والتفكير .

•□•

والجمال الذي يتميز به التعبير الأدبي ، ويعد من أبرز خصائصه ، هو الذي تنبه اليه الانسان وفتن به منذ اطلع عليه عن طريق السمع من أفواه قائليه ، أو من حفظته ورواته ، أو فيما قرأه مكتوبا منه .. وقد اشترك في الاعجاب به عدد من الناس الذين نبهتهم ملكاتهم الفنية الى مواضع الاحسان ومواطن الضعف والتقصير فيه ، وهؤلاء هم الذين استطاعوا أن يوازنوا تعبيرا بغيره من تعابير الناس ، فوقفوا على محاسنه ومزاياه ، ووقفوا على أسرار الجمال ومظاهر الافتنان فيه ، ثم وازنوه بنظائره من الأعمال الأدبية حتى اهتدوا الى جهات الفضل فيما عرضوا له من نصوص الأدب وفنونه المختلفة .

وكان ادراك نواحي الاحسان وصفات الجمال في تلك الأعمال الأدبية عملية تلقائية هدت اليها الفطر السليمة من غير حاجة الى تعليم أو توقيف .

وكان الأمر كذلك في تلك القرون الأولى البعيدة التي ألف فيها الأدباء الأولون أدبهم الذي أعجب معاصريهم ، وجعلهم يصغون الى منشديه ، وينشطون لسماعه ، ويطربون لترديده بما رأوا فيه من آثار التأنق التي عبروا عن اعجابهم بها .

وكذلك رأوا في بعض ذلك الأدب ما لايلائم عملية التنسيق والتآلف التي هي روح الأعمال الأدبية ، فعابوها ونبهوا الأدباء الى ملاحظاتهم عليها ، والى ما رأوه مخلا بالمثل الفنية التي انطبعت في اذهانهم والتي رأوها في أعمال أدبية كاملة أو أقرب ما تكون الى الكمال .

وكان على أولئك الذين استطاعوا أن يميزوا القيم الفنية في الأعمال الأدبية ، وأن يفطنوا الى مواطن الابداع التي أثارتهم وأثرت فيهم واخذت بألبابهم ، أن يفصلوا القول في مزايا الأدب الذي أعجبهم ، وفي مظاهر الاحسان التي استوقفتهم ، وأن يعرفوا طرائق أصحاب الفن الأدبي التي أنزلتهم منازلهم .

ولم يكن من الممكن أن يكتفى منهم بالرضا او السخط ، أو الحكم بالجودة أو بالرداءة ، بل لابد من تفصيل للأسباب التي بنوا عليها آراءهم .. وما أحسن ما مثل به امام البلاغة عبدالقاهر للحاجة الى ذلك التفصيل في قوله « كما يذكر لك من تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة ، أو حتى يعمله بين يديك .. حتى ترى عيانا كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء ، وماذا يذهب منها طولا ، وماذا يذهب منها عرضا ، وبم يبدأ ؟ وبم يثني ؟ وبم يثلث ؟.. وتبصر من الحساب الدقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم منه مكان الحذق وموضع الاستاذية .. وجملة

الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علماً تمر فيه وتحلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ، ويفصل بين الاساءة والاحسان ، بل حتى تفاضل بين الاحسان والاحسان ، وتعرف طبقات المحسنين » ..

وكان ذلك الذي اجتمع عليه الخبراء بهذا الفن الأدبي والتقت عنده أذواقهم هوسمات الجمال في الأعمال الأدبية التي صيغت منها معالم البلاغة، واستخرجت منها فنونها الكثيرة التي تكاملت واجتمعت حتى أصبحت لونا من ألوان المعرفة متميزا من سائر المعارف الانسانية ، بل متميزا من سائر العلوم الأدبية ، شرحت مسائله ، وفصلت مباحثه .

وبذلك دخلت البلاغة في دورها الحضاري ، دور الكتابة والتأليف ، واتخذت صبغة العلوم التي تعنى بتحديد الموضوع ، ثم تعالجه علاجا منهجيا يظهر فيه جانب العقل المنظم والتفكير بعد أن كان ذلك المنهج منهجا فنيا يحتكم فيه الى الأذواق التي قد تتباين ، ويرجع فيه الى اختبار العواطف ، واستعادة التجارب التي كان لها مساس بتجارب الأديب التي عبر عنها في أعماله الأدبية .

ولا شك أن المناهج الفنية متباينة أصابها الذين قد تختلف نوازع أحكامهم ودوافع تقديرهم ، ومن ثم تختلف وجهات النظر بين باحث وآخر، فلم يكن بد من وضع المعالم الظاهرة التي يلتقي عندها أصحاب تلك المناهج ويقيس غيرهم ما يعرض لهم من الأعمال الأدبية بمقاييسها .. ولذلك، قلنا ان أثر العقل وثمرة التفكير تبدو بوضوح في تلك المناهج .

ولعل الأقوال التي قيلت في تحديد معنى « البلاغة » لم تبلغ من الكثرة عند أمة من الأمم ما بلغت في الأمة العربية ، والمأثور عن غيرهم في تحديد معناها كلمات معدودة عند كل أمة من الأمم التي سبقت العرب الى هذا اللون من ألوان التفكير الفني ، كأمة الفرس واليونان والهند وغيرهم.. وتلك الكلمات تبين تصورهم لمعنى «البلاغة» . وحقيقة هذا التصور أنه يتصل بجانب واحد أو جوانب قليلة من جوانب البلاغة ومجالاتها الكثيرة.

وأكثر الألفاظ دورانا في اللغات الأوربية في الدلالة على المعاني التي نعبر عنها نحن بكلمة «البلاغة» هي كلمة« Rhetoric » ويقابلها في لغتنا كلمة «الخطابة» التي تطلق على ذلك الفن الكلامي الذي يرمي الى التأثير في الجماهير وقيادتها وتوجيهها نحو غاية من الغايات التي يرمي اليها الخطباء . وهي كلمة يونانية قديمة أطلقها أرسطاليس على كتاب من كتبه سماه بها Rhetoric وعالج فيه فن الخطابة عند أمة اليونان القديمة التي برعت في هذا الفن براعة طغت على أجواء حياتها الأدبية على أيدي خطباء اليونان ولا سيما الطبقة التي اشتهرت باسم «السفسطائيين» والتي كان الأشراف يعهدون الى رجالها بتلقين أبنائهم أصول هذا الفن الخطابي وتدريبهم عليه ، ليرشحهم ذلك لتسنم مناصب الدولة والقدرة على قيادة الجماهير .

ولقد عالج أرسطو في ذلك الكتاب فن الخطابة ، وقسمها باعتبار الزمن الى أقسام ثلاثة : قضائية وقعت جرائمها في الزمن الماضي ، وحملية أو استشارية وزمنها المستقبل لأن الخطيب يريد بخطابته أن يحمل الناس على شيء في الزمن المستقبل ، ثم الخطابة التي يقصد منها المدح أو الذم زمنها الحاضر وتسمى الخطابة الاستدلالية .

كما شرح أرسطو في ذلك الكتاب أهمية الخطابة وعلاقتها بالجدل ، وتطرق في بحثه الى ذكر الخير والشر ، كما عرض للفضائل والرذائل ، وطالب الخطيب بأن يكون قويا دقيقا مؤثرا في نفوس السامعين ، لا بالأفكار وحدها ، ولكن بالجمل والعبارات أيضا ، كما قسم الخطبة الى أجزاء ، وشرح ما ينبغي أن يراعى في كل جزء منها .

ولم يقف استعمال كلمة « Rhetoric » عند ذلك المعنى الأصلي وهو معنى «الخطابة» بل أصبحت تطلق عندهم على ما نريد نحن من كلمة «البلاغة» وما نريد من كلمة «الفصاحة» وهما لفظان من الألفاظ الاصطلاحية العلمية ، وأصبح لكل منهما دلالته الخاصة في لغتنا وفي دراساتنا ، كما احتفظت تلك الكلمة أيضا بدلالتها على معناها الأصلي ، وهو «الخطابة» التي هي فن من فنون النثر الأدبي .

ومع أن الدقة التي ننشدها في تحديد المصطلحات مفقودة في اطلاق تلك الكلمة على تلك المعاني الثلاثة أصلا أو نقلا أو اشتراكا ، فان كتاب أرسطو قد عالج كثيرا من المسائل التي تعرض في الدراسات البلاغية عند العرب وعند غيرهم ، ولا سيما في الجزء الثالث من كتاب الخطابة ، وهو الجزء الذي خصصه أرسطو لدراسة «العبارة» وشرح فيه كثيرا من الفنون التي احتفلت بها البلاغة العربية وغيرها من البلاغات .

وقد أورد الجاحظ في بيانه بعض مفاهيم البلاغة عند بعض الأمم ، وتلك المفاهيم ــ كما أسلفت ــ تمس بعض الجوانب القليلة من الجوانب الكثيرة التي تعرض لها البلاغة ..

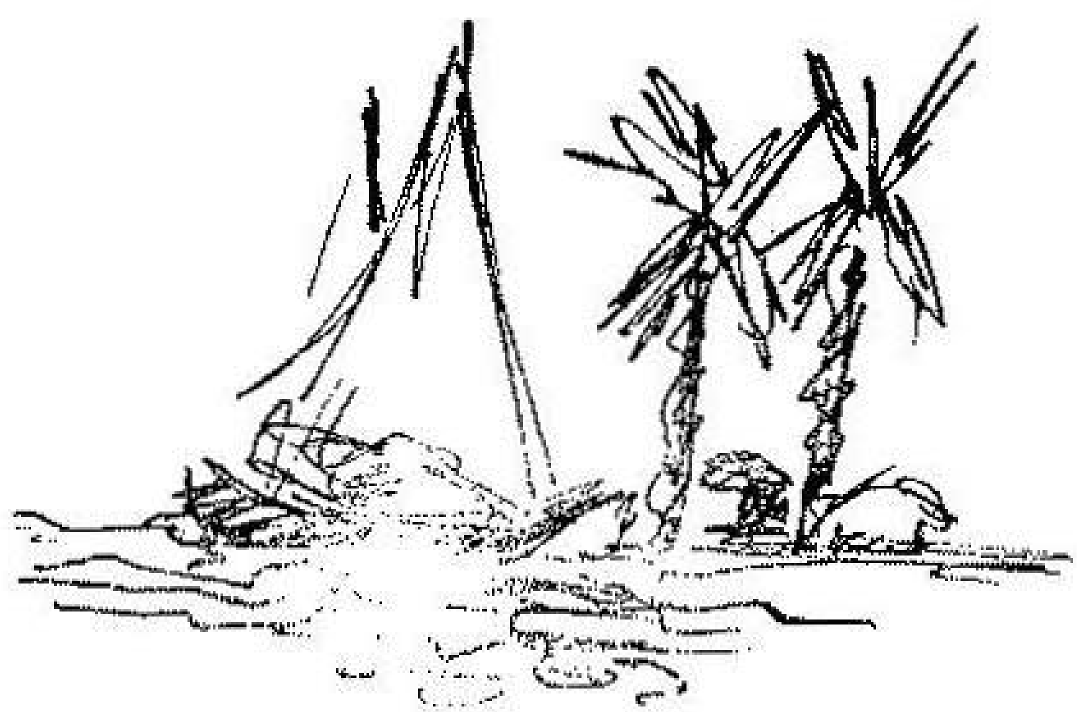
فالبلاغة عند الفارسي معرفة الفصل من الوصل . والبلاغة عند اليوناني تصحيح الأقسام واختيار الكلام . والبلاغة عند الرومي حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة . والبلاغة عند الهندي وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة .. ونقل الجاحظ عن بعض أهل الهند أن جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة .. ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك ، وأحق بالظفر . ونقل عنه أيضا أن جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر .. وزين ذلك كله ، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة والألفاظ معدلة

واللهجة نقية . فان جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال ..

واذا تدبرنا تلك التعريفات ألفيناها حدودا قاصرة غير جامعة وغير مانعة ، ولذلك لاينطبق على واحد منها شرط الحد الصحيح ، وانما هي تمثل على كل حال أبرز خصائص الكلام الفني من وجهة نظر كل جماعة من الجماعات المذكورة ، أو تبرز أهم الأسباب التي ينبني عليها الحكم للخطيب أو الأديب بالتمكن من فنه والقدرة على تحصيل الاعجاب ، فهي مظاهر للاتقان والتمكن من وجهة نظر كل قائل .

وتمثل تلك الخصائص في مجموعها بعض جوانب البلاغة وبعض ماينبغي للبليغ ، ولكنها لاتمثل البلاغة كلها تمثيلا صحيحا .. فان معرفة مواضع الفصل بين التراكيب ، ومواضع وصل بعضها ببعض ناحية واحدة من نواح كثيرة تدرسها البلاغة ، وكذلك صحة الأقسام أو صحة التقسيم فن من فنون هذه البلاغة ، والاختيار الكلام ، والاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة ، والوضوح والاشارة ، والتعريض والكناية ، كل ذلك مما عرضت له البلاغة بالدرس والتفصيل ..

(للبحث صلة)



من أغاني القافلة الضائعة

رضي صدوق

صغيرتي ، يا موعداً في غد … من الشروق ، والرؤى ، والظلال
ألقاك ، ينبوعاً يبل الصدى … في رحلة خلف سراب المحال
أطل في عينيك ، مستلهما … أشلاء ماض ممعن في الزوال
رفعته فوق جبين الرؤى … كما يشاد الصرح فوق الرمال
مضى مع الريح ، الى عالم .. … خلف صحارى الغيب .. خلف الخيال

* * *

وكنت ، يا صغيرتي ، شاعرا … يلون الدنيا .. بأحلامه ..
ويوقد الشمع لها .. عابدا ! … يطعمها أعذب أيامه
يمنحها الحب ، ولا تأتلي … ذاكرة ، تغلو بإيلامه !
تطفيء عينيه ، بإعصارها … ويعبق بردها بأنسامه
وتقلع البسمة عن ثغره … وتسكب الموت بأنغامه .. !

* * *

ولى زمان الخصب .. يا ويلنا … ما عاد غير الموت ، من حولنا
نحن التياهى ، في ضمير الدنى … ضاعت خطانا في دجى دربنا
ترابنا الموؤد في غربة .. … يحسن ، كالشوق ، لأيامنا
وموسم الخصب غدا شاحبا … يتوق أن يونع في أرضنا
جفت ينابيع المنى .. وانطوت … لا ومض في الأعين غير الضنى

* * *

صغيرتي ، أنت هنا عالم .. … من غير لون ، مستباح ، شريد
الشمس لا تشرق في أرضه … ولا يغني بلبل أو يعيد
وكل معنى خير .. خالد .. … تموت سيماه ، ويفنى الخلود
أنت ، هنا ، غريبة يا « رلى »(1) … بنت غريب ، مستذل ، طريد
يعيش للموت .. وما من منى … يحيا لها العمر سوى أن يعود

* * *

فخبئي الجرح .. ولا تحفلي .. … فالصدر أولى أن يواري الألم
وابتسمي .. ألحزن يا طفلتي … يطفيء ، في جنبيك ، نار الحمم
وأوقدي شمعك ، ان الدجى … يضيع الدرب ، وراء الظلم
تربتنا السمراء ، ظمأى لنا .. … وليس تسقيها دموع الندم
خلي دماء الجرح ، يا طفلتي … نسقي ثراها عنفوانا .. ودم

— الكويت —

(1) كريمة الشاعر

الأساطير الموسيقية

الشيخ جلال الحنفي

ينخرط في سلك هذا العنوان ما وقع في كتب المواسقة الأقدمين وما جرى على ألسنة الناس من غريب الأقاويل والتأويلات في مسائل الموسيقى والمقامات ..

فلقد جاء في « الدر النقي في علم الموسيقي » للشيخ أحمد بن المسلم الموصلي المتوفى سنة ١١٥٠ هـ قوله :

(ان موسى عليه السلام اشتغل بالمناجاة لما حصل لبني اسرائيل التيه اربعين سنة ، فجاءه جبرائيل عليه السلام وقال يا موسى ان الله يقرأك السلام ويقول « اضرب بعصاك الحجر » لترى قدرتي فضرب موسى بعصاه الحجر فبان من كل عين صوت حسن غير الآخر لما انفجرت اثنتا عشرة عينا ، فمنها أخذت المقامات الاثنا عشر وهي أصلها ، فقال جبرائيل عليه السلام لموسى عليه السلام « يا موسى اسق » فاختصرت هاتان الكلمتان وجعلتا اسما لهذا الفن فقالوا موسقي ») .

نقلت ذلك عن مخطوطة الأستاذ سعيد الديوهجي الموصلي ..

وفي « الرسالة الفتحية » لمؤلفها محمد بن عبد الحميد اللاذقي المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ـ منها نسخة في مكتبة الأوقاف وأخرى في مكتبة المتحف العراقي ونسخة عند الاستاذ كوركيس عواد ـ قال في تسمية الموسيقى وتعليلها :

(وقيل سمي باسم الفلك الأعظم الذي هو « موسيقاقيا » لتناسبهما في الشرف فحذف بعض الحروف طلبا للخفة نصارت موسيقى) ..

وقال أيضا (اتفق الجمهور على أن واضع هذا الفن أولا «فيثاغورس» بفتح الراء وسكون السين المهملتين ، وهو من تلاميذ سليمان عليه السلام ، ورأى في المنام ثلاث ليال متوالية ، أن شخصا يقول له يافيثاغورس قم واذهب الى ساحل البحر الفلاني وحصل علما غريبا ، فذهب من غد كل من الليالي الثلاثة الى ذلك الساحل ، وبالغ في الصبر هناك فلم ير أحدا يتعلم منه علما ، ولما علم في اليوم الثالث أن تلك الرؤيا ليست مما يؤخذ

جزافاً ، تفكر تفكراً كثيراً وكان هناك جمع من الحدادين يضربون المطارق على وجه متناسب فذهب خاطره اليه وتأمل في تلك المناسبات ، ثم رجع الى بيته وقصد أنواع مناسبات بين الأصوات ولما حصل له ما هو مقصود له بتفكر كثير وفيض رباني ، صنع آلة وشد عليها أبريسما وأنشد شعراً في توحيد الله تعالى وترغيب الخلق على أمور الآخرة) ..

وفي « الرسالة الفتحية » أيضا في الكلام على فيثاغورس (وكان يقول اني أسمع نغمات شهية وألحانات بهية من الحركات الفلكية ، وتمكنت تلك النغمات في خيالي وضميري فوضع قواعد هذا العلم) ..

وكذلك قال اللاذقي في كتابه « زين الألحان في تأليف الأدوار والأوزان » ــ ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الاستاذ كوركيس عواد ببغداد ــ .. مثل الذي نقلناه عن رسالته الفتحية .. أما « زين الألحان » هذا فقد صنفه سنة ٨٨٨هـ على قول الاستاذ العزاوي ..

وفي « رسائل اخوان الصفا » ــ ١٣٢/١ ــ (ويقال ان فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك والكواكب فاستخرج بجودة فطرته أصول الموسيقا ونغمات الألحان ، وهو أول من تكلم في هذا العلم وأخبر عن هذا السر)(١) .

ونقل السيوطي في « المسامرات » أن (اول من وضع علم الموسيقى وأصول الألحان فيثاغورس الهرمسي أدرك بالقوة الذهنية حركات الأفلاك فاستمع الأصوات ورتب الألحان الثمانية بحسب الأدوار الفلكية وأصواتها ..)

وجاء في كتاب « الميزان في علم الأدوار والأوزان » لمؤلف من رجال القرن الثامن الهجري ، ان (أول من أظهر العود واستنخبه لامك بن نوح عليه السلام ، وانه عدم عند الطوفان ، ثم انه في عهد داود عليه السلام استخرجه وهذبه وضرب به .. ــ وقال ايضاً ــ وذكر العلماء أن العود الذي كان يضرب به داود عليه السلام لم يزل بعد وفاته معلقاً في بيت المقدس الى حين دخول نبختنصر ...)

وفي نسخة اخرى من نفس الكتاب ان (أول من أظهر العود وأخرج منه الأنغام نوح عليه السلام) ..

وفي « أوائل » السيوطي (اول من وضع العود بالغناء « لامك بن قائن بن آدم » عليه السلام وبكى به على والده) ..

وفي كتاب « المصوتات الوترية » للكندي ــ نشره زكريا يوسف في مجموعة مؤلفات الكندي الموسيقية ــ (وبعد هذه الأجناس صنع داود آلة ذات ثمانية أوتار في حكاية المزمور الذي يقول فيه بالعبرانية) ثم قال في موضع آخر (اما داود فانه صنع آلة ذات عشرة أوتار) ..

وفي « قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء » تأليف محمد بن محمد سيالة الصفاقسي ، في الكلام على العود قوله : (وقيل وضعه ادريس عليه

السلام لأنه كان يدري أصوات الأفلاك عند دورانها شوقاً الى ربها عز وجل فوضع من أصوات الأفلاك أربع نغمات وهي الرست والعراق وزيرافكند وأصفهان) ٠٠(٢)

وجاء في كتاب « الملاهي » للمفضل بن سلمة النحوي المتوفى سنة ٢٩٠هـ قال (ذكر هشام بن الكلبي : ان أول من عمل العود فضرب به رجل من بني قابيل – بن آدم – يقال له لمك ، وكان عمر زماناً طويلا ولم يكن يولد له فتزوج خمسين امرأة وتسرى بمئتي سرية ، فولدت له جاريتان يقال لأحدهما « صلاء » وللأخرى « بم » ثم ولد له غلام قبل أن يموت بعشر سنين ، فاشتد فرحه فلما أتت على الغلام خمس سنين مات فجزع عليه جزعاً شديداً فأخذه فعلقه على شجرة فقال لا تذهب صورته عن عيني حتى يتقطع أشلاءاً أو أموت ، فجعل لحمه يقع عن عظامه حتى بقيت الفخذ بالساق والأصابع فأخذ عوداً فشقه ورققه وجعل يؤلف بعضه على بعض فجعل صدره على صورة الفخذ ، والعنق على صورة الساق ، والابزيم على قدر القدم ، والملاوى كالأصابع ، وعلق عليه أوتاراً كالعروق ، ثم جعل يضرب به ويبكي وينوح ، حتى عمي فكان أول ناح ، وسمي الذي اتخذ عوداً لأنه اتخذ من عود ، وكانت « صلاء » احدى ابنتيه أول من عمل المعازف والطبول ٠٠) نشره الأستاذ عباس العزاوي سنة ١٩٥١م ٠

ونقل الشيخ المسلم في « الدر النقي » عن بعضهم ان كل مقام كان لحن نبي من الأنبياء ٠٠ وأورد « ان الرست كان لحن آدم ، والعشاق لحن موسى ، والعراق لحن يوسف ، وما وراء النهر كان لحن يونس لما وقع في فم الحوت ، والحسيني لحن داود ، والحجازي لحن ابراهيم الخليل ، والنوى لحن اسماعيل » ٠٠

وأورد كذلك قائلا « ونقل عن مولانا حسين البروردى أنه قال سمعت ممن أثق به انه قال تسبيح الملائكة بالجاركاه لحلاوته ولذته » ٠٠ وفي الكتاب نفسه ان الأستاذ « علي الروياني » ذكر في كتابه « نزهة الأنام في تعريف كل وزن ومقام » ان روح آدم لما أتوا بها لتدخل في قالب الطين استوحشت منه ، لأن الروح علوي والطين سفلي ، فأمر الله ملكين أن يدخلا في ذلك القالب فدخلا فيه وجعلوا يسبحون الله فكان تسبيحهم بمقام العزال فاستأنست الروح ودخلت ، فلما استقرت الروح خرج الملكان من ذلك القالب فلما انقطع الصوت همت الروح ان تخرج فاستوى آدم جالساً فبقيت كلما تسمع لحناً تميل اليه » ٠٠

وفي بحث لي نشرته في مجلة « المعرفة البغدادية » (العدد الصادر في كانون الأول ١٩٦٢) عنوانه « دراسة تحليلية للأساطير والمعتقدات البغدادية » جاء ما نصه :

(يقول العامة ان الروح حين أمرت ان تدخل في جسد آدم عليه السلام أبت وتمنعت حتى قرىء لها مقام « الصبا » فانصاعت الى ما امرت به

ونزلت في جسم أبينا آدم .. وفي رواية اخرى أن الروح اقترحت ان يقرأ لها مقام « الأرواح » لكي تستجيب للأمر الصادر بدخولهـا بدن الانسان الأول) ..

وجاء في « مخطوط في مكتبة الأوقاف » ضمن مجموع رقمـه ٥٦٤١ استنسخه جامعه محمد بن محمد طاهر سنة ١١٥٧ هـ في الكلام على ماينبغي التزامه من المقامات والأنغام في القراءة والتغني ، عند كل وقت من الأوقات، قال (... وعند السحر « الزنكولة » فانه موافق ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وقت السحر في هذا المقام به) ..

وجاء في هذا المخطوط أيضاً أن الأبيض من الناس يوافقـه مقـام المخالف ، وأن الأسمر يوافقه مقام أوج العراق والمـاهور ، أما الحنطي اللون فيوافقه الرست ..

ونقل الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه « ايضاح الـدلالات في سماع الآلات » قائلا (ذكر العلامة الزمخشري في « ربيع الأبرار » قـال زعموا أن في البحر دواب ربما زمرت أصواتا مطربة ولحونا مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها ، فاعتنى وضعة الألحان أن يشبهوا بهـا أغانيهم فلم يبلغوا ، وزعموا أن في بلاد يونان طائراً يصـوت بالظهـاير أصواتاً تجتمع أصناف الطير استلذاذاً بها ..)

وقال الصفاقسي في « قانون الأصفياء » :

(وقيل ان باب الجنة اذا فتح تسمع له رنة كرنة الحسيني ولهذا ـ فان ـ المؤذنين يميلون اليه خصوصا ليلة الجمعة ويومها) ..

ونقل العلامة أحمد تيمور باشا في موسوعته عن « المنتقى من جامع الفنون » للحراني « زعم بعضهم تمايل النبات من الطرب » ..

وفي « ايضاح الدلالات في سماع الآلات » للنـابلسي : (وقيل ان داود عليه السلام كان يسمع لقراءته الجن والانس والوحش والطير اذا قرأ الزبور ، وكان يحمل من مجلسه أربعماية جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته ..)

وفي « الموسوعة التيمورية » : (ان داود عليه السلام كان يخرج الى صحراء بيت المقدس يوما في الأسبوع ويجتمع الخلق فيقرأ الزبور بالقراءة الرخيمة ، وكانت له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان ينتحب ، وكانت الوحوش والطيور تجتمع لاستماع قراءته) ..

وفيها أيضا : (ان في الجنة اشجاراً عليها أجراس من فضة فـاذا أراد أهل الجنة السماع ـ أي الغناء ـ بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتتحرك الأجراس التي عليها بأصوات لو سمعها أهـل الدنيا لماتوا طرباً ») ..

وفي الموسوعة التيمورية نقلا عن «المقامات الجلالية الصفدية» مانصه

« ان داود عليه السلام كان اذا قرأ الزبور يقف الماء الجاري ويركد الهواء ويعرق المحموم ويفيق المغمى عليه وكل هذا من حنين الأرواح الى ما كانت تتأنس في الأزل من نغمات دوران الأفلاك ٠٠ »

وفي « المقامات الجلالية الصفدية » عن وهب من منبه ان داود عليه السلام كان يقرأ الزبور بسبعين لحناً كل لحن لايشبه الآخر وكانت تحن الطيور اليه وتصطف على رأسه وتتساقط في مجلسه وتستأنس الوحوش اليه وتحف به الأنعام والهوام والجن والانس ، فلا ينفصل مجلسه الا وقد مات من الناس خلق كثير ، حتى ان الرجل كان اذا خرج الى مجلس داود يوصي أخاه أو ولده أو جاره : انني متوجـــه الى مجلس داود فان أنا مت فوصيتي الى أهلي كذا وكذا » ٠٠

ونسبوا الى الأوزاعي ان أهل الجنة اذا غنوا لم تبق في الجنة شجرة الا غنت ٠٠ وفي « اوائل » السيوطي أن اول من ضرب بالدف كلثوم اخت موسى عليه السلام لما جاوز البحر ٠٠

وفي كتاب « الاصطلاحات الموسيقية » تأليف الاستاذ أ٠كاظم المطبوع سنة ١٣١٠ هـ في القسطنطينية باللغة التركية ، وقــد عربه الأســتاذ ابراهيم الداقوقي ، جاء قوله على مقام الجارگاه : (ويعتقد بعض النــاس بأن التغني بهذا المقام يجلب الشؤم ، الا ان هذا الظن لا يستند على أساس علمي لذلك فهو باطل) ٠٠

وقال الكندي في « المصوتات الوترية » ـ نشره زكريا يوسف ـ (أما الفرس فانهم يزعمون أنه نشأ في مملكة انوشروان صبي يقال له فلهوذ٠٠٠ وأنه اخترع أشياء كثيرة مطربة) ٠٠

وقال الكندي في نفس المصدر في الكلام على أوتار العــود ـ وكانوا يصبغونها كل وتر بلون ، وقبل ذلك تكلم على ألوان الطيف الشمسي ـ (ولما أرتنا الطبيعة تلك الالوان دالة على العناصر احتالت الفلاسفة لاظهار آثار الطبيعة بآلة ترينا اياهاوتوجدها لنا حسا ٠٠ فالزير يشبه بالصفراء ، والمثنى بالحمرة والدم ، والمثلث ببياض البلغم ، والبم بسواد السوداء) ٠٠

وغالب ما اورده الكندي من القول على نغمات الموسيقارين ، ونسبة ذلك الى أحوال الأزمنة والطبائع ، انما هو ضرب من هذه الأساطير ٠٠ ومن هذا القبيل أيضاً ماجاء في كتابه « أجزاء خبرية في الموسيقى » من كلامـه على مشــاكلة الأوتار لأرباع الفلك وأرباع البروج وأرباع القمر وأركان العناصر ومهب الرياح ٠٠٠ » فكل أولئك من المسائل الأساطيرية في مسألة الموسيقى ٠٠

ومما يعد من هذا البــاب ما ذكره الصفاقسي في كتــابه « قانون الأصفياء » من مثل قوله « السيكاه أصله عربي بالصاد ثم نقل الى العجـم فبدلوا الصاد بالسين وهو عندهم محل ثلاث نغمات ويسمى عندنا الصيكة استخرجه « صيكة بن تميم العراقي » ثم نقل الى أهل فارس » ٠٠

ومنهـــا ماذكـــره مؤلف « الميـــزان في علـــم الأدوار والأوزان » اذ قـــال : « اذا ســـأل ســـائل لم كـــان الزير وهو ناري وهو أسفل الثلاثة تحت المثنى وهو هوائي ، والمثلث تحت البم وهو مائي ، والبم وهو الأعلى وهو الأرضي ؟ وهـــذا عكس النظـام الطبيعي ، فالجواب انه لما كان تحرك النار الى جهة فوق جعل الزير اسفل ليمتزج نغمه في تحركه بباقي الأوتار ، وتحرك الأراضي بالطبع الى جهـــة تحت جعل أعلاها يمتزج نغمه بها ، وكذلك الباقي بالنسبة ، وهذه نكتة غريبة .. »

وجاء في كتاب « أحكام السماع » تأليف أحمد بن محمد التونسي(٣) « قال ــ الشيخ تاج الدين الفزاري شيخ دمشق ومفتيهـــا ــ في الكتاب الذي اسمه « نور القبس » انه كان في عصره شيخ مقعد فاذا غشيه الحال في السماع قام منتصباً زماناً طويلا كأصح الرجال » .

وفي كتاب « أحكام السماع » أيضاً ، أن رجلا أثر فيه الغناء تأثيراً عظيما فما كان منه الا ان قام على رأسه ولبث على تلك الحال الى الليل فلما دنوا منه اذا هو ميت » ..

ومن الأساطير الشعبية الشائعة ان آدم يوم كان في الجنة ســـمع صوت غناء من خارجها فهرع اليه نابذاً الجنة وراءه ظهرياً ، وهكذا رجع الغناء على الجنة ، . وبذلك اغلقت أبوابها وراءه ..

ونقل الأستاذ العزاوي في « الموسيقى العراقية » عن كتاب الفـــرق لأبي محمد وهو مخطوط عنده نسخته ، أن « يارد » وهو أبو ادريس عليه السلام حذر قومه الذين كانوا يسكنون في الجبل المقدس من النزول الى الأرض التي كانت فيها مساكن أولاد قابيل .. ولكن هؤلاء خالفوا قولـــه ونزلوا الى الأرض ثم خالطوا أولاد قابيل وتزوجوا منهم ..

وكان السبب في ذلك هو ما صنعه ابليس اذ علم اثنين من أعوانه الغناء والزمر وصنع لهما الطنابير والبرابط ، وكذلك صنع « توبلقين » من ولد قابيل الطبول والدفوف والصـــنوج ولم تكن تعرف قبل ذاك ، فلعبوا بها وأخذوا يصيحون ويضحكون فلما بلغت أصواتهم اهل الجبـــل هبطوا اليهم ينظرون ما سبب تلك الأصوات ...

هذه جمهرة من الأساطير الموسيقية وهي على ما تلاحـــظ تنسب مسائل الموسيقى والغناء وآلات الطرب ، الى مقامات مقدسة من نحـــو الأنبياء والملائكة ، ومنها ما يعلق الألحان والعيدان بالأفلاك والنجوم ، ومنها ما هو بين التخليط والتخريف من الآراء والأقاويل ..

ولا جرم ان في بعض هذه الأساطير أشياء كان المراد من وضعـــها اعزاز شأن الموسيقى واجلال مقامها في النفوس ، والتوصل الى ادخالها في المساجد والمعابد ، والبراءة بذلك من رجوم الناس ومطاعنهم ، فما زال في

الناس حتى يومنا هذا من يفتي بتحريم الغناء ، ولا يقر من الموسيقى بما ولا زيراً ...

ومما ينم عن شيء من هذا المعنى بوضـــوح ما أورده النابلسي في « ايضاح الدلالات » اذ قال (وحكي عن بعض المشايخ انه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام وقلت له ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال هو الصفاء الزلال الذي لاتثبت عليه الا أقدام العلماء رضي الله عنهم) ..



---

(١) ناقش الفارابي هذه الدعاوى في كتابه «المدخل الى صناعة الموسيقى» ـ منه نسخة مصورة عن مخطوط كتب سنة ٦٥٤هـ في المجمع العلمي العراقي ـ فقال « وما يعتقده آل بوثاغورس في الافلاك والكواكب من انها تحدث بحركاتها نغمات تاليفية فذلك باطل ، وقد لخص في العلم الطبيعي ان الذي قالوه غير ممكن ، وان السماوات والافلاك لا يمكن ان تحدث لها بحركاتها أصوات ».

وقال « ابن الاكفاني » المتوفي سنة ٧٤٩ هـ في كتابه « ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد » « أما ما يقال أن سبب انفعال النفس عن الالحان تذكرها عالمها الاول للمناسبات التي بين هذه الالحان وبين حركات الافلاك فيشبه أن يكون رمزا ، فان الافلاك لا اصطكاك بينها ولا قرع فلا صوت لها » .

ولكن جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء يصرون على « ان الافلاك يماس بعضها بعضا وتصطك وتحتك وتطن كما يطن الحديد والنحاس ، وتكون نغماتها متناسبات مؤتلفات كما بينا في مثالها في نغمات أوتار العيدان ومناسبتها » .. انتهى قولهم « ١ : ١٣٠ »

(٢) في رسائل « اخوان الصفا » ـ ١ ص ٧٥ مطبعة الآداب ١٣٠٦ هـ ـ (يحكى عن هرمس المثلث بالحكمة وهو ادريس النبي عليه السلام ، انه صعد الى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة حتى شاهد أحوال الفلك ثم نزل الى الارض فخبر الناس بعلم النجوم) .

(٣) من هذا الكتاب مخطوطة ناقصة ، في مكتبة الاستاذ كوركيس عواد ..

مات الجد العزيز

تمثيلية ذات فصل واحد

للكاتب الانكليزي

ستانلي هاوتن

نقلها الى العربية

مدحة الجادر

الاشخاص

اميليا	زوجة هنري سليتر
فيكتوريا سليتر	ابنتها في العاشرة من العمر
هنري سليتر	زوجها
اليزابث	اختها
بن جوردن	زوج اليزابث
ابل ميري ويلد	والدهما

(تجري الحوادث في احدى مدن الاقاليم في عصر يوم سبت)

(غرفة الاستقبال في منزل صغير في حي يقطنه الأدنون من الطبقة المتوسطة ويقع في احدى مدن الاقاليم ، على يسار النظارة نافذة اسدل ستارها وأمامهم أريكة ، وعلى يمينهم موقد بجانبه كرسي • وفي وسط الجدار المواجه لهم باب تؤدي الى الممر ، على يسارها صوان بال رخيص ، وعلى يمينها خزانة آنية ، وفي وسط الغرفة مائدة من حولها كراسي • وعلى رف الموقد زينات وساعة أمريكية رخيصة • وفي الموقد غلاية • والى جانب الخزانة نعلان زاهيان • والمائدة على وشك أن تهيأ للشاي ، ولوازم ذلك ما تزال فوق الخزانة ، وعلى المائدة كذلك وضعت بعض الصحف • وباب الغرفة يفضي عن يساره الى الباب الخارجي ، وعن يمينه الى الطابق الأعلى • وفي الممر يرى مشجر للقبعات •

يرتفع الستار عن اميليا منهمكة في اعداد المائدة ، وهي امرأة قوية بدينة خشنة محمرة الوجه متحفزة للمضي في الصريح من الكلام لكي تنال

وطرها • وقد ارتدت ثوبا أسود ، من غير أن تبدو عليهـا سيماء الحداد الكامل • وهي تصغي لخطة ، ثم تمضي الى النافذة فتفتحها وتنادي نحو الشارع •)

اميليـــا

(بحـــدة)

فكتوريا ، فكتوريا ! أتسمعين ؟ هلمي الى البيت •

(تغلق النافذة وتنزل ستارها ثم تواصل اعداد المائدة ، تدخل فكتوريا وهي فتاة في العاشرة لكنها ناضجة قبل الأوان وترتدي ثوبا متعدد الألوان •)

اميليـــا : اني أحار فيك حقا يافكتوريا ، كيف تصخبين في الشارع وجدك راقد فوق جثة باردة ! امضي فغيري ثوبك قبل أن تصل خالتك اليزابث وزوجها بن ، فلن يرضيهما أن يجداك بهذا الثوب الملون •

فكتوريا : وعلام يجيئان الآن وهما لم يطئا هذا المكان منذ عهد بعيد؟

اميليـــا : انهما قادمان ليبحثا شؤون جدك المسكين اذ ما كدنا نجده ميتا حتى أبرق والـــدك اليهما بذلك (تسمع ضوضاء) يا الهي أرجو ألا يكونا قد وصـــلا (تسرع الى البـــاب فتفتحها) كلا ، شكرا لله ! انه والدك •

(يدخل هنري سليتر، وهو بدين، محدودب، ذو شارب ملتو ؛ ويرتدي سترة طويلـــة سوداء ، وسروالا رماديا ، وربطة ســوداء ، وقبعة بولر ، ويحمل رزمة ورق صغيرة) •

هنـري : ألم يصلا بعد ؟

اميليـــا : كلا ، ألا تستطيع أن ترى ذلك ؟ والآن اصعدي يافكتوريا بسرعة فارتدي ثوبك الأبيض مع حزام أسود •

(تخرج فكتوريا)

اميليـــا : (الى هنري)

اني لست بمطمئنة ، ولكن هذا منتهى جهدنا الى أن تتم ملابسنا السوداء • ان بن واليزابث لما يفكرا في الحداد بعد ، لذلك سوف نسبقهما • (يجلس هنري في المقعد القريب من النار) اخلع حذاءك ياهنري ، فأن لاليزابث من قوة الملاحظة ماترى بها أصغر بقعة من الوسخ •

هنـري : اني أعجب لهما اذا جاءا فعلا ، فلقد قالت اليزابث حين تخاصمت معها انها لن تضع قدمها في بيتك ثانية •

اميليـــا : ستحضر بالسرعة الكافية لتظفر بنصيبها من تركة الوالد· وأنت تعلم انهـــا تستطيع أن تكون قاسية متى شاءت ، ولست أدري من أين اكتسبت هذه الخصلة ·
(تفتح الرزمة التي جلبهـــا هنري ، فتضعها على المائدة ·)

هنـــري : احسب ان ذلك من خصال العائلة ·

اميليـــا : ماذا تعني بذلك ياهنري ؟

هنـــري : كنت أشير الى والدك ، وليس اليك · أين نعلاي ؟

اميليـــا : في المطبخ ، ولكن يلزمك زوج جديد · ان نعليك العتيقتين قد أشرفا على البلي (بانكسار) يبـــدو انك لا تدرك ماذا اقاسي في احتمال ما أنا فيه · ان قلبي يتفطر حين أرى التوافه الصغيرة العائدة لوالدي مبعثرة حوالي ، ثم أتذكر انه لن يستعملها ثانية · (بسرعة) خـــذ ! فالافضل أن تلبس نعلي والدي الآن · ومن حسن الحظ أنه قد ابتاع زوجا جديدا ·

هنـــري : انهما صغيران بالقياس الي ياعزيزتي ·

اميليـــا : سوف يتسعان ، أليس كذلك ؟ اني لا أريـــد أن افرط فيهما · (تنتهي من اعداد المائدة) هنري ، لقـــد كنت افكر في مكتب والدي الموجود في غرفة نومه · فأنت تعلم اني قد تطلعت دائما للظفر به بعد موته ·

هنـــري : ينبغي أن تدبري ذلك مع اليزابث حين تقتسمان التركة·

اميليـــا : ان لـــدى اليزابث من الذكاء ماسيدلها على اني أريده ، ولذلك سوف تساومني عليه أشد المساومة · ايه ، ما قيمة المرء اذا كانت نفسه قليلة الطمع !

هنـــري : لربما كانت هي الاخرى قد عزمت على أخذ المكتب ·

اميليـــا : انها لم تحضر هنا منذ أن شراه والدي · فلو نقل من غرفته الى هذا المكان ، فلن تدرك انه ليس لنا ·

هنري (مرتاعا) : اميليا ! (ينهض)

اميليـــا : هنري مايمنعنا من أن ننزل الآن ذلك المكتب الى هـــذا المكان ؟ اننا نستطيع أن نفعل هذا قبل أن يحضرا ·

هنـــري : لست تواقا لذلك ·

اميليـــا : لا تكن أحمق ، ولم لا ؟

هنـــري : انه أمر خال من اللياقة على كل حال ·

اميليـــا : يمكننا الآن أن نضع هذا الصوان العتيق البالي في مكان

المكتب بالطابق الأعلى فتستطيع اليزابث أن تأخذه على الرحب والسعة ، فلطالما رغبت في الخلاص منه •
(تشير الى الصوان)

هنري : واذا حضرا ونحن نفعل ذلك ؟

اميليا : سأغلق الباب الخارجي • اخلع سترتك ياهنري ، ولنبدلنه
(تخرج اميليا لتغلق الباب الخارجي ، ويخلع هنري سترته • تعود اميليا •)

اميليا : سأسرع الى فوق فأزيح الكراسي عن الطريق
(تظهر فكتوريا وهي ترتدي ما أشارت به والدتها •)

فكتوريا : أرجو أن تثبتي ثوبي من الخلف يا أماه •

اميليا : اني مشغولة ، ليفعل ذلك والدك •
(تسرع الى الطابق الاعلى ، وينهمك هنري في تثبيت الثوب) •

فكتوريا : علام أنت خالع سترتك يا أبتاه ؟

هنري : سأنقل مع أمك مكتب جدك الى هذا المكان

فكتوريا : (بعد أن تفكر لحظة) أنضع أيدينا عليه قبل أن تحضر خالتي اليزابث ؟

هنري : (مذعورا) كلا ، ياطفلتي ، فقد منحه جدك لوالدتك قبل أن يموت •

فكتوريا : هذا الصباح ؟

هنري : نعم

فكتوريا : آه ! لقد كان ثملا هذا الصباح •

هنري : صه : واياك أن تفوهي بذلك الان •
(ينتهي من تثبيت الثوب ، وتظهر اميليا حاملة ساعة جميلة تحت ذراعها)

اميليا : لقد رأيت أن أجلب هذه أيضا • (تضعها على رف الموقد) ان ساعتنا لاتساوي شيئا أما هذه فقد كانت تستهويني دائما •

فكتوريا : انها ساعة جدي

اميليا : الزمي الصمت ! انها لنا الآن • تعال ياهنري ، وشمر عن ساعدك • فكتوريا ، لاتنطقي بكلمة أمام خالتك عن الساعة والمكتب •
(يحملان الصوان نحو الباب •)

فكتوريا : (لنفسها) لقد علمت اننا نستولي عليهما .

(صمت قصير . ثم تسمع دقة شديدة على الباب الخارجي)

اميليا : (من فوق) : فكتوريا ، ان كان الطارق خالتك وزوجها فلا تفتحي الباب .

(تسترق فكتوريا النظر من النافذة)

فكتوريا : اماه ، لقد جاءا .

اميليا : لاتفتحي الباب حتى أنزل . (يتكرر الطرق) دعيهما يطرقان (يسمع صوت شيء ثقيل يرفع) انتبه الى الجدار يا هنري .

(يدخل هنري واميليا الى الغرفة مترنحين وخائفين وهما يحملان مكتبا قديم الطراز جميلا ، به درج مقفل فيضعانه في مكان الصوان ثم يرتبان الزينات ... الخ . يتكرر الطرق .)

اميليا : لقد تم الامر بيسر . افتحي الباب يافكتوريا ، والبس سترتك الان ياهنري .

هنري : هل أطحنا بكثير من جبس الحائط ؟

اميليا : لا تأبه للجبس . هل أبدو بحالة جيدة ؟ (تنظم شعرها أمام المرآة) ماعليك الا أن ترقب وجه اليزابث حين ترى اننا في نصف حداد (تلقي اليه بصحيفة) خذ هذه واجلس وحاول أن يبدو عليك اننا كنا في انتظارهم .

(يجلس هنري في المقعد واميليا الى يسار المائدة ، ويتظاهران بالقراءة . تقود فكتوريا بن وزوجته الى الغرفة . والاخيرة سيدة بدينة طلقة الوجه رصينة وعليها سيماء من يقلق على أن يكون دائما على صواب . وهي ترتدي ثياب حداد كاملة جديدة وعلى رأسها قبعة سوداء كبيرة مزينة بالريش . وبن هو الآخر في ثياب حداد كاملة وجديدة ، وبيده قفاز أسود ، وحول قبعته شريط بنفس اللون . وهو رجل صغير الحجم مرح ميال للدعابة لولا انه يحاول الان أن يلائم بين نفسه وبين المناسبة الحزينة وصوته مشرق ضعيف كسقسقة الطير . تمضي زوجته في رزانة نحو

اميليسا مباشـــــــرة فتقبلها • أما الرجلان فيتصافحان • وتقبل زوجة بن هنري ، ويقبل بن زوجة الاخير • ولا ينبس أحد بكلمة • وتستعرض اميليا ثيـــــاب الحداد الجديدة خلسة •)

اليزابث : وهكذا توفي أخيرا يا اميليا •

اميليـــا : أجل توفي • ولقـــد بلغ الثانية والسبعين واسبوعين يوم الاحد الماضي •

(تكبح دمعهـا • وقد جلست السيدة جوردن على يسار المائدة واميليا على يمينها ، وهنري في المقعد ، وبن على الاريكة بالقرب من فكتوريا •)

بـــن : (بصوته المعهود) والان عليك أن لاتتخاذلي يااميليا ، فكلنا نموت في وقت من الاوقات ولربما كان يقع ماهو أمروأدهى •

اميليـــا : لا أفهم كيف يكون ذلك •

بـــن : كان محتملا أن يموت أحدنا •

هنـري : أحسب انك استنفدت وقتا طويلا للوصول الينا يااليزابث •

اليزابث : اوه ، كان هناك مالم أستطع فعله ، لم أستطع حقا •

اميليـــا : (في ريبة) ماالذي لم تستطيعي فعله ؟

اليزابث : لم أستطع الحضور بدون ثياب حداد (تلقي نظرة الى اختها)

اميليـــا : ثقي بأننا قد أوصينا بصنع ثياب حداد لنا • (بنفور) فاني لا أستطيع شراء الاشياء الجاهزة •

اليزابث : لا تستطيعين ؟ أما أنا فلبس السواد يشيع في نفسي راحة كبرى • والان لعلك تودين أن تقصي علينا جلية الحادث • ماذا قال الطبيب ؟

اميليـــا : اوه ، لما يره •

اليزابث : لما يره ؟

بـــن : (بنفس اللهجة) : وهل طلبته على الفور ؟

اميليـــا : بالطبع ، هل تحسبني حمقاء ؟ لقـــد بعث هنري فورا الى الطبيب برنكل فوجده قد خرج •

بـــن : كان لزاما أن تذهبي الى غيره يااميليا •

اليزابث : أجل ، انها غلطة قاتلة •

اميليـــا : لقد عالجه برنكل حين كان حيا ، فكان لزاما أن يعالجه وهو على فراش الموت • ذلك أدب المهنة •

بـــن : حسنا هذا من شأنك وأنت أدرى به من غيرك ولكن ــــ

اليزابث : أجل ، انها غلطة قاتلة .

اميليـــا : لاتتكلمي كالحمقى يااليزابث . أي خير كان بوسع الطبيب أن يفعله ؟

اليزابث : تذكري الحوادث الكثيرة التي اعيدت فيها الحياة لاشخاص ظن انهم قد ماتوا .

هنـري : هذا في حالة الغرق ، ووالدك لم يغرق يااليزابث .

بـــن : (هازلا) لم يكن هناك شديد خوف من غرقه ، لان الماء كان أشد مايضيق به (يضحك ولا يشاركه أحد في ضحكه) .

اليزابث : (متألمة) بن !؟ (يتداعى بن في الحال)

اميليـــا : (ثائرة) اني واثقة من انه كان يغتسل بانتظام .

اليزابث : ماينبغي أن نطيل الكلام في هذا الموضوع .

اميليـــا : لقد كان والدي مرحا هذا الصباح . وقد خرج بعيد الفطور ليدفع قسط التأمين .

بـــن : أرى انه قد أتى أمرا حسنا .

اليزابث : لقد كان دائما في مثل هذه اليقظة . وهو أنبل من أن يموت غير دافع قسط التأمين .

اميليـــا : حسنا ، ولابد انه قد ذهب بعدئذ الى خمارة (قرع الاجراس) فلقد عاد في مرح البائع المتجول فقلت له : « اننـــا ننتظر هنري لنبدأ عشاءنا . » فقال : « لااريد عشاء واني ذاهب الى فراشي . »

بـــن : (يهز رأسه) آه ! مسكين . مسكين .

هنـري : ولما عدت وجدته خالعا ثيـابه بكل تأكيد ، ومسترخيا في فراشه .

(ينهض فيقف على بساط الموقد)

اليزابث : (جازمة) أجل ، اني واثقـة ان هذا كان انذارا له . وهل عرفك ؟

هنـري : نعم ، وكلمني .

اليزابث : هل قال ان حالته تنذر بالخطر ؟

هنـري : كلا ، انما قال : « هنري ، أرجو أن تخلع حذائي ، فلقـد نسيت أن أفعل ذلك قبل أن أدخل الفراش . »

اليزابث : لابد انه كان شارد الذهن .

هنـري : كلا فقد كان الحذاء ملبوسا بانتظام .

اميليـــا : وبعد العشاء خطر لي أن أمضي اليه بصينية فيها شـيء يأكله ، ووجدته مضطجعا كالنائم ، فوضعت الصينية عـلى المكتب (تصحح كلامها) على الصوان ثم دنوت لاوقظـــه (صمت) فألفيته باردا تماما .

هنري : ثم سمعت اميليا تناديني ، فجريت الى الطابق الاعلى ٠
اميليا : ولكن لم نستطع أن نفعل شيئا بالطبع ٠
اليزابث : كان ميتا ؟
هنري : لم يكن هناك أدنى شك في ذلك ٠
اليزابث : لقد كنت أعلم طوال الوقت انه سيموت في النهاية فجأة ٠
(صمت ، ويمسح الجميع عيونهم ، ويكبحون دموعهم ٠)
اميليا : (تنهض أخيرا بسرعة كمن يقدم على أمر) حسنا ، أتحبون الان أن تصعدوا لالقاء نظرة عليه ، أو هل نتناول الشاي؟
اليزابث : ما رأيك يا بن ؟
بن : لست على رأي ٠
اليزابث : (تتفحص المائدة) حسنا لنبدأ بالشاي ان كان جاهزا ٠
(تضع اميليا الغلاية على النار وتهيىء الشاي)
هنري : علينا أن نقرر شيئا آخر الآن : الاعلان في الصحف ٠
اليزابث : كنت افكر في ذلك ، ماذا تريد أن تعلن ؟
اميليا : في منزل ابنته ، ٢٣٥ شارع ايركورنيك ٠٠٠ الخ ٠
هنري : ألا يهمك شيء من الشعر ؟
اليزابث : أحب كلمة « لم ينس » فانها لطيفة ٠
هنري : أجل ، ولكن لما يحن وقتها ٠
بن : اذ لايمكن أبدا أن تنسيه بعد يوم من موته ٠
اميليا : اني أتصور دائما مثل هذه العبارات : « زوج محب ، وأب رؤوف ، وصديق وفي »
بن : (في شك) أتعتقدين ان هذا صحيح ؟
هنري : لا أظن من المهم أن يكون صحيحا أو غير صحيح ٠
اليزابث : كلا ، انما هو وصف للظاهر فقط ٠
هنري : لقد رأيت أمس شعرا في صحيفة أخبار المساء ٠ انه شعر ملائم (يتناول الصحيفة ويقرأ) : (قد ينساك أو يستهين بك البعض ، ولكن البقعة التي تضمك مقدسة لدينا) ٠
اليزابث : هذا غير مناسب ، فانك لاتقول : «مقدسة لدينا» ٠
هنري : انه وارد في الصحيفة ٠
اميليا : لا تقول ذلك في لغة الكلام ، أما في الشعر فان الامر يختلف
هنري : الجواز الشعري ، أنت تعرفينه ٠
اليزابث : كلا ، هذا غير ملائم ٠ اننا نريد شعرا يصف كم أحببناه ، ويشير الى خصاله الحميدة ، ويذكر أية خسارة عظيمة نزلت بنا ٠

اميليـــا : أنت تبغين قصيدة كاملة . وهذا يكلف كثيرا .

اليزابث : حسنا ، لنفكر في ذلك بعد تنـــاول الشاي ، ثم ننظر في التركة فنعد بها قائمة ، ولدينا جميع مافي غرفته من أثاث.

هنـري : ليس هناك جواهر أو أشياء ثمينة من هذا القبيل .

اليزابث : حاشا ساعته الذهبية ، فلقد وعد بها ولدنا جيمي .

اميليـــا : وعد بها جيمي ، لم أسمع بذلك قط .

اليزابث : لقد فعل ذلك ياأميليا حين كان يعيش معنا . فانه كان متعلقا بجيمي أشد التعلق .

اميليـــا : حسنا ، (متحيرة) اني لاأعرف ذلك .

بـــن : على كل حال ، هناك مبلغ التأمين . هل حصلت على ايصال القسط الذي دفعه هذا الصباح ؟

اميليـــا : لما أره .

(تقفزفيكتوريا من الاريكة وتجيء خلف المائدة)

فكتوريا : اماه ، لا أظن جدي قد ذهب ليدفع قسط تأمينه هذاالصباح

اميليـــا : لقد خرج .

فكتوريا : أجل ، ولكنه لم يذهب الى المدينة . لقد لقي في الشارع السيد تاترسول العجوز فذهبا معا حتى اجتازا كنيســة القديس فيليب .

اميليـــا : أظنهما قد ذهبا الى خمارة (قرع الاجراس) .

بـــن : خمارة (قرع الاجراس) ؟

اميليـــا : الخمارة التي تديرها أرملة جون شوبروكس . انه يتسكع هناك دائما . أواه ، ان لم يكن قد دفع القسط .

بـــن : أتظنين انه لم يدفعه ؟ وهل مضت مدة على استحقاقه ؟

اميليـــا : أظن ذلك .

اليزابث : هناك ماينبؤني بأنه لم يدفعه . لقد هجس هذا نفسي ، ولذا فاني عليمة بذلك .

بـــن : ياله من شحاذ عجوز ثمل !

اليزابث : لقد تعمد ذلك لمحض اغاضتنا .

اميليـــا : بعد كل ماصنعته له ، وبعد أن نهضت بعبئه في البيت هذه السنوات الثلاث ، ماهذا سوى الغبن بعينه .

اليزابث : لقد تحملت العيش معه خمس سنوات .

اميليـــا : وكنت تحاولين أن تتركيه لنا طوال الوقت .

هنـري : ولكننا لسنا على يقين من انه لم يدفع القسط .

اليزابث : اني على يقين من ذلك ، فلقد استقر في نفسي بغتة انه لم يدفعه ·

اميليا : فكتوريا ، اصعدي فاجلبي حزمة المفاتيح الموضوعة على مائدة زينة جدك ·

فكتوريا : (في وجل) في غرفة جدي ؟

اميليا : نعم

فكتوريا : لا أحب القيام بذلك

اميليا : ما هذه الحماقة ؟ ليس هناك من يؤذيك · (تخرج فكتوريا في تردد) اننا سنرى اذا كان قد حبس الايصال في المكتب

بن : أين ؟ في هذا الشيء ؟ (ينهض فيتفحص المكتب)

اليزابث : (ناهضة أيضا) من أين أتيت بهذا يااميليا ؟ انه جديد علي منذ أن زرتكم آخر مرة (يتفحصانه عن كثب)

اميليا : لقد جاء به هنري ذات يوم ·

اليزابث : انه يعجبني ، انه أثر فني ، هل شريته من محل للمزايدة ؟

هنري : ايه ، من أين شريته يااميليا ؟

اليزابث : أجل ، من محل للمزايدة ·

بن : (باستخفاف) آه ، انه مستعمل ·

اليزابث : لاتكن جاهلا يابن ، فالآثار الفنية كلها مستعملة · وانظر الى آثار الفنانين الاوائل

(تعود فكتوريا في فزع شديد فتغلق الباب خلفها)

فكتوريا : اماه ! اماه !

اميليا : ماذا هناك ياطفلتي ؟

فكتوريا : ان جدي ينهض ·

بن : ماذا ؟

اميليا : ماذا تقولين ؟

فكتوريا : ان جدي ينهض ·

اليزابث : هذه الطفلة مجنونة ·

اميليا : لا تقولي مثل هذه الحماقة · أفلا تدرين ان جدك ميت ؟

فكتوريا : كلا ، كلا ، لقد رأيته ينهض ·

(تصعق الدهشة الجميع ، بن واليزابث على يسار المائدة ، وفكتوريا متعلقة بأميليا على يمين المائدة ، وهنري بالقرب من الموقد)

اليزابث : اميليا ، من الافضل أن تصعدي فتري بنفسك ·

اميليـــا : تعال معي يا هنري ·

(يتراجع هنري خائفا)

بسسن : (فجأة) : صه ! استمعوا ·

(ينظرون الى الباب ،فتسمع ضحكة خفيفة في الخارج · ثم تفتح الباب فيظهر رجل عجوز يرتدي ثوبا حائل اللون لكنه زاه ، وفي رجليه جورب طويل · وهو قوي حسن اللون عـلى الرغم من انه قد جاوز السبعين ، وعينـاه البراقتـان الخبيثتان تتلألآن تحت حاجبين كثيفين رماديين تشوبهما شيء من الحمرة · وواضح انــه اما الجد آبل ميرى ويذر أو شبح له ·)

آبـل : ما خطب فيكي الصغيرة ؟ (تقـع عيناه على بن واليزابث) مرحبا ! ماذا جاء بكما الى هنا ؟ وكيف حالك يا بن ؟

(يلقي آبل يده على بن فيفلت الاخير منه في لطف ويتراجع مـع اليزابث الى مكان أمين خلف الاريكة)

اميليـــا : (تدنو من آبل بحذر) أبتاه ، أهذا أنت ؟ (تخزه بيـدها لترى اذا كان صلبا ·)

آبـل : هذا أنا بالطبع · لا تفعلي ذلك يا اميليا · وماذا تعنين بهذا الهذر ؟

اميليـــا : (الى الآخرين) : انه ليس بميت ·

بـن : أجل ، لايبدو عليه الموت ·

آبـل : (مغتاضا من الهمس) لقد غبت عنا طويلا يا ليزي ، والآن قد جئت ، ولكن لايبدو عليك انك مسرورة لرؤيتي ·

اليزابث : لقد أخذتنا بغتة يا أبتاه · أأنت بخير تام ؟

آبـل : (يحاول التماس الكلمات) ايه ؟ ماذا ؟

اليزابث : أأنت بخير تام ؟

آبـل : أجل ، لا بأس بي سوى قليل من الدوار · وأنا مستعد لاراهن على اني لست أول من يحمل الى المقبرة في هـذا البيت · وقد كان ظني دائما ان هنـــاك هنري لاينعم بالعافية التامة ·

اليزابث : واني لعلى رأيك !

(يتوجـه آبل الى المقعد ، فيتنحى هنري عن طريقه ذاهبا أمام المائدة)

آبـل : اميليا ، يا للعجب ! ماذا صنعت بنعلي الجديدين ؟

اميليـا : (مضطوبة) أليس هما بجنب الموقد يا أبتاه ؟

آبـل : اني لا أراهما (يلاحظ هنري محاولا نزعهما) لماذا لبستهما يا هنري ؟

اميليـا : (مستدركة) لقد طلبت اليه أن يفعل ذلك ليوسعهما ، فهما جديدان وصلبان • دعهما ياهنري • (تخطف النعلين من هنري وتعطيهما الى آبل فيلبسهما ويجلس في المقعد)

اليزابث : (الى بن) هذا تصرف غير لائق فيما أرى : أن يضع المرء قدميه في حذاء ميت بهذه السرعة •

(يمضي هنري الى النافذة فيرفع ستارها ، وتجري فيكتوزيا نحو آبل فتجلس على الارض عند قدميه)

فكتوريا : آه يا جدي! اني لشديدة الفرح لانك لم تمت •

اميليـا : (بهمسة حاقدة) امسكي لسانك يا فكتوريا •

آبـل : ايه ، ماهذا ؟ من الذي مات ؟

اميليـا : (بصوت عال) تقول فكتوريا انها آسفة على رأسك •

آبـل : آه ، شكرا يا فيكي ، ولكني أشعر بتحسن •

اميليـا : (الى اليزابث) انه شديد التعلق بفكتوريا •

اليزابث : (الى اميليا) أجل ، وانه لشديد التعلق بجيمي كذلك •

اميليـا : الافضل أن تسأليه ان كان قد وعد جيمي بساعته الذهبية

اليزابث : (متحيرة) لا أستطيع ذلك الان، فليس لدي الجرأة الكافية

آبـل : علام أنت مرتد ثياب الحداد يا بن ، وكذلك ليزي واميليا وهنري وفيكي الصغيرة ؟ من ذا الذي مات ؟ انه أحد أفراد العائلة •

(يطلق ضحكة ساخرة)

اميليـا : لا أحد من أفراد العائلة كما تعلم يا أبي ، انما هو قريب لبن •

آبـل : أي قريب له ؟

اميليـا : أخوه

بـن : (الى اميليا) يا للعثرة ، ليس لدي أخ •

آبـل : وا أسفاه أيها العزيز ! وماذا كان اسمه يابن ؟

بـن : (في ارتباك اير — اير — ينتقل الى أمام المائدة) •

اميليـا : (مستدركة وهي على يمين المائدة) فريدريك •

اليزابث : (مستدركة وهي على يسار المائدة) آلبرت •

بـن : ايو ـ فريد ـ الب ـ اسحاق
آبـل : اسحاق ؟ وأين توفي أخوك اسحق هذا ؟
بـن : في ـ ايو ـ في استراليا
آبـل : وا أسفاه أيها العزيز ! أظنه أكبر منك ، أليس كذلك ؟
بـن : نعم ، بخمس سنوات
آبـل : أذاهب أنت لتشييع الجثمان ؟
بـن : أجـل
اميليـا : كلا ، كلا
بـن : كلا ، بالطبع كلا . (ينسحب الى الجهة اليسرى)
آبـل : (ناهضا) حسنا ، أظن انكم كنتم في انتظاري لتناول الشاي، اني لجائع .
اميليـا : (تتناول الغلاية) ساعد الشاي
آبـل : والآن هلموا فاجلسوا ودعونا نمرح .

(يجلس في وسـط المائدة مواجها النظـارة ويجلس بن واليزابيث على يساره ، وتجلب فكتوريا كرسيا فتجلس بقربه . أما اميليـا وهنري فيجلسان عـلى يمينه والسيدتان جالستان على جانبيه مباشرة)

اميليـا : هنري ، قدم لوالدي بعض شرائح اللسان .
آبـل : شكرا لك وسأكون أنا البادىء .

(يتناول خبزا وزبدا . ويوزع هنري شرائح اللسان . بينما تصب اميليا الشاي . ويأكل آبل وحده بشهية)

بـن : يسرني أن أرى لديك هذه الشهية أيها السيد ميري ويذر مع انك لم تكن في أتم عافية .
آبـل : لم يك ذلك شيئا خطيرا اني قد استرخيت قليلا .
اميليـا : أكنت نائما يا أبتاه ؟
آبـل : كلا ، لم أكن نائما .
اميليا وهنري : آه !
آبـل : (وهو يأكل ويشرب) لا أستطيع أن أستعيد لذاكرتي كل شيء بدقة ، ولكن أتذكر كأنني كنت فاقد الرشد ، اذ لم أستطع أن احرك يدي أو قدمي ولو مسافة قصيرة .
بـن : وهل استطعت أن ترى وتسمع شيئا ما أيها السيد ميري ويذر ؟

آبـل : نعم ، ولكن لا أتذكر اني رأيت شيئا معينا • الي بالخردل يا بن • (يناوله بن الخردل)

اميليـا : بالطبع لا تتذكر يا والدي ، فقد كان هذا كلـه محض تصور منك ، ولابد انك قد كنت نائما •

آبـل : (متضايقا) أقول لك اني لم أكن نائما يا اميليا • يا للعنة فاني يجب أن أعلم جلية الأمر •

اليزابث : هل رأيت هنري أو اميليا يدخلان الغرفة ؟

آبـل : (يحك رأسه) دعيني افكر الان —

اميليـا : ماكنت لألح عليه يا اليزابث ، فلا تفعلي ذلك

هنري : كلا واني ماكنت لأقلقه •

آبـل : (يتذكر فجأة) يا للشيطان ! اميليا ، هنري ، ماذا قصدتما باخراج مكتبي من غرفة نومي ؟ (هنري واميليا لاينطقان) ألا تسمعاني ؟ هنري ! اميليا !

اليزابث : أي مكتب يا أبي ؟

آبـل : مكتبي الذي ابتعته •

اليزابث : (مشيرة الى المكتب) أكان هذا يا أبي ؟

آبـل : آه ، انه هو • ماذا يصنع هنـا ؟ ايه ؟ (صمت • تدق الساعة التي على رف الموقد السادسة ، وينظر الجميـع اليها •) يا لحيرتي ان لم تكن هـذه ساعتي أيضا • يا للشيطان ! ماذا كان يجري في هذا البيت ؟

(صمت قصير)

بـن : اني لعلى ريبة •

اليزابث : (ناهضة) سأخبرك بما كان يجري في هذا البيت ياأبي • انه ليس بأقل من السرقة •

اميليـا : اهدئي يا اليزابث •

اليزابث : لن أهدأ • اوه ، اني اسمي هذا الوجه المزدوج •

هنري : مهلا يا اليزابث مهلا •

اليزابث : وأنت أيضا • أتكون ذلك المخلوق التافه الذي يصنع كل قذر تطلبه هي منك ؟

اميليـا : (ناهضة) تذكري أين أنت يا اليزابث •

هنري : (ناهضا) هدأوا روعكم ودعوا النزاع •

بـن : (ناهضا) لزوجتي كل الحق في التعبير عما يدور بخلدها •

اميليـا : عندئذ لها أن تعبر عنه في الخارج ، وليس هنا •

آبـل : (ينهض ويخبط المائدة) سحقا لهـذا كله ، الا يخبرني أحدكم ماذا كان يجري ؟

اليزابث : أجل ، ساخبرك أنا • فلست أود أن أراك تسرق •

آبـل : من ذا الذي كان يسرقني ؟

اليزابث : اميليا وهنري • لقد سـرقا ساعتك ومكتبك (تستطرد متممة) انهما قد تسللا الى غرفتك ليلا بعد موتك فسرقاهما كاللصوص

هنـري : صه ! اهدئي يا اليزابث !

اليزابث : لن يوقفني أحد • لقد قلت بعد موتك •

آبـل : بعد موت من ؟

اليزابث : أنت •

آبـل : ولكنني لست ميتا

اليزابث : كلا ، ولكنهما ظنا انك قد مت •

(صمت • ثم يحول آبل بصره محدقا فيهما)

آبـل : فهذا اذن سبب اتشاحكم اليوم بالسواد • لقد حسبتم اني ميت •

(يطلق ضحكة ساخرة) قد كانت هذه غلطـة كبيرة • (يجلس فيواصل تناول الشاي)

اميليـا : (تبكي) أبتاه !

آبـل : انكم لم تصبروا طويلا على اقتسام تركتي بينكم •

اليزابث : كلا يا أبتاه ، ماينبغي أن تظن هذا • انما حاولت اميليـا أن تستحوذ عليها لنفسها فقط •

آبـل : لقد كنت ذكية دائما يا اميليـا • وأكبر الظن انك قد حسبت الوصية غير عادلة •

هنـري : هل أعددت وصية ؟

آبـل : نعم ، وقفلت عليها المكتب •

اليزابث : وماذا احتوت يا أبتاه ؟

آبـل : هذا غير مهم الآن ، فاني افكر في اتلافها واعداد غيرها •

اميليـا : (باكية) أبتاه ، لاتكن قاسيا علي •

آبـل : اميليا ، سازعجك بطلب كوب آخر من الشاي مع قطعتين من السكر وكثير من اللبن •

اميليـا : بكل سرور يا أبتاه •

(تصب الشاي)

آبــل : اني لا أريد أن أقسو على أحــد منكما وسأنبئكما بما أنا فاعل • فمنذ أن توفيت والدتكما لقــد عشت برهة من الزمن معك يا اميليا ، واخرى معك يا اليزابث • حسنا ، والان سأعد وصية جديدة أترك فيها كل ما لدي لمن أموت وأنا أقيم معه • فما رأيكم في ذلك ؟

هنــري : هذا ضرب من لعبة النصيب •

اليزابث : ومن ذا الذي تريد أن تقيم معه مذ الآن ؟

آبــل : (يشرب الشاي) اني مقرر ذلك وشيكا •

اليزابث : أنت تعلم يا أبي انك الآن ينبغي أن تعود الى أحضــاننا وسنوفر لك كل الراحة •

اميليــا : كلا ، فهو لما يقم معنا بقدر ما أقام معكم •

اليزابث : قد أكون على ضلال ، ولكني ما أظــن والدي سيفكر في العيش معكم بعدما حدث اليوم •

آبــل : واذن ، فأنت ترغبين في ايوائي ثانية يا ليزي ؟

اليزابث : أنت عليم بأننا مستعدون لايوائك الأمد الذي تحب •

آبــل : ما تقولين في ذلك يا اميليا ؟

اميليــا : كل ما أستطيع قوله ان اليزابث قد غيرت رأيها في السنتين الأخيرتين (تنهض) أبتاه ، أتدري علام كنا نتخاصم ؟

اليزابث : اميليا ، لا تكوني حمقاء ، اجلسي •

اميليــا : كلا ، اذا لم يكن لي أن آويه فلن يكون لك هذا أيضا • لقد اختصمنا لأن اليزابث قالت انها لاتريد تقبلك منــا مهما كان الثمن • وقالت انها قد عانت منك مايكفي فلن تصبر على ذلك مدى الحياة ، وان علينا أن نتولى أمرك •

آبــل : يخيل الي ان كلا منكما ليس لهــا أن تشعر بالفخار لتصرفكما هذا معي •

اميليــا : ان كنت قد أخطأت ، فأنا آسفة حقا •

اليزابث : وأنا كذلك ، ولا أستطيع أن أزيد على هذا •

آبــل : لقد سبق السيف العذل - فكلاكما لم تطيقا معي صبرا •

اميليا واليزابث : كلا ، كلا ، يا أبتاه

آبــل : ايه ، انكما تنكران ذلك لاني أخبرتكما كيف سأترك مالي • والآن مادمتما غير راغبتين في ، فسأنطلق الى من يرغب •

بــن : رويدا أيها السيد مري ويذر ، فانه ينبغي لك أن تعيش مع احدى ابنتيك •

آبـل : سأنبئك بما ينبغي لي : ينبغي لي أن أفعل ثلاثة امور يوم الاثنين القادم : علي أن أذهب الى المحامي فاغير وصيتي ، وعلي أن أمضي الى مكتب التامين فأدفع قسطي ، وعلي أن أنطلق الى كنيسة القديس فيليب فأتزوج ٠

بن وهنري : ماذا !

اليزابث : تتزوج !

اميليـا : لقد فقد شعوره ٠

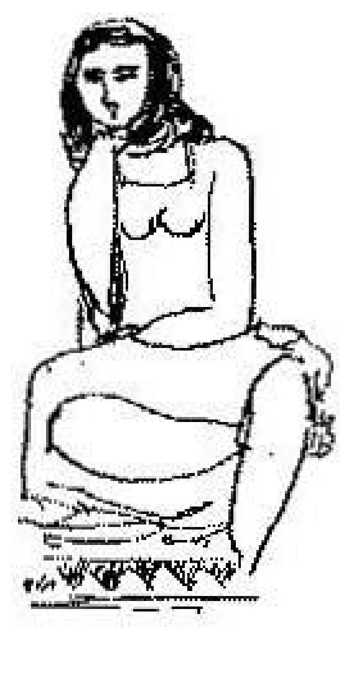
(يذهل الجميع)

آبـل : أقول اني سأتزوج ٠

اميليـا : من ؟

آبـل : سأتزوج من أرملة جون شوروكس التي تدير خمارة قرع الأجراس ٠ ولقد رتبنا ذلك منذ حين ثم كتمته لأجعل منه مفاجاة سارة ٠ (ينهض) لقد شعرت بأني كنت عبئا عليكم ولذلك لقيت من تسره رعايتي ، وسوف يكون من دواعي بهجتنا أن نراكم في الحفل ٠ (يتوجه نحو الباب) الى يوم الاثنين اذن ، في الساعة الثانية عشرة في كنيسة القديس فيليب ٠ (يفتح الباب) نعم ما فعلت يا اميليا حين نقلت ذلك المكتب الى الطابق الأسفل ، اذ سيكون نقله سهلا الى حانة قرع الأجراس يوم الاثنين ٠ (يخرج)

●
●
● ســـتار



فهمي المدرس

خيري العمري

انتقل في شجاعة من بلاط (فيصل الاول) الى صفوف المعارضة الوطنية ، وجرد قلمه البليغ ليحارب سياسة الانتداب البريطاني بمقالات سياسية عنيفة ، عرضته الى صور شتى من الارهاب والوان مختلفة من الاضطهاد ذلك هو الكاتب العراقي المرحوم (فهمي المدرس) .

* * *

لعل أصدق ما يوصف به (فهمي المدرس) هو انه كان يعكس في شخصه المثال الصادق للمثقف العراقي في مطلع هذا القرن واواخر القرن السابق عندما كانت الثقافة العراقية ذلك الوقت مزيجا مختلطا من ثقافات مختلفة : اسلامية وفارسية وتركية وألمام بأصول الشريعة وتمكن في قواعد اللغة واحاطة في اخبار العرب .

وقد كان المدرس أحد العراقيين القلائل الذين اصابوا بسهم وافر في تلك الثقافات الى جانب معرفة في اللغة الفرنسية مكنته من الاطلاع على الثقافة الاوربية ، مما سهل له سبيل التقدم وهو فتى نابه فعهدت اليه مسؤوليات كبيرة وهو بعد لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره فتولى ادارة طبعة الولاية في بغداد ، واشرف على تحرير القسمين العربي والتركي من جريدة « الزوراء »(١) ودرس اللغات العربية والفارسية والتركية في المدرسة الاعدادية في بغداد ، وقام بادارة (مدرسة الصنائع) .

وكان لابد للمدرس شأن غيره من الشباب المثقف ان يتأثر بالدعوات الفكرية التي ظهرت في تلك الحقبة وهذا ما حدث له .

فتأثر بحكم ثقافته الحديثة بالدعوة الدستورية التي انتشرت في ربوع الامبراطورية العثمانية وارجاء الدولة الفارسية حيث حمل لوائها في الاولى (مدحت باشا) وتولى زعامتها في الثانية (كمال الدين) والتي استهدفت حمل (السلطان) وارغام (الشاه) على اعلان الدستور وتأسيس النظام البرلماني وقد ناله من الاستبداد الحميدي ما ناله غيره من الاحرار

فنفى الى جزيرة (رودس) وبقى هناك فترة من الزمن اتيح له خلالها أن يكسب صداقة والي الجزيرة عن طريق تدريس اولاده وتعليمهم فتوسط له لدى الباب العالى ودفع النفي عنه واعيدت له حريته قبل اعلان الدستور بزمن قصير

وتأثر بحكم ثقافته الاسلامية بالدعوة الى الاصلاح الدينى التى بذر بذورها (جمال الدين الافغانى) وقام بها تلاميذه أمثال (محمد عبده) وغيره . وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكننا ان نفسر موقف (فهمي المدرس) من تأييد الانقلاب الدستوري العثماني بحماسة لا تقل عن حماسة غيره من احرار العراق فاذا كان (الرصافي) و (الزهاوي) قد اوقفا ملكتهما الشعرية على مساندة الدستور فان (المدرس) جرد قلمه البليغ للدفاع عنه بمقالات ضافية وخطب رنانة .

توجه المدرس الى الاستانة وهو يحمل كتاب توصيـة الى (ابى الهدي الصيادي) ليستعين بنفوذه الواسع في الحصول على وظيفة ، وبعد أيام من وصوله قصد دار (ابى الهدى) لذلك الغرض وفيما هو فى طريقه اذا به أمام مظاهرات صاخبة ثائرة تهتف فى شوارع استانبول (يشاسون حريت(٢) . يشاسون عدالت . يشاسون قانون اساسي) وبسرعة تسللت يد المدرس الى جيبه لتمزق كتاب التوصية وانضم مع تلك المظاهرات تردد الهتافات بحياة الدستور والحرية والعدالة ، واعتلى أول منصة في الشارع حيث خطب في الجماهير يندد بطغيان السلطان .

وفي الاستانة بدأت صفحة جديدة من حياة فهمي المدرس ، فقد انطوت شخصية المدرس الرجل المحافظ الذي يرتدي العمامة والجبة ويلتحي بلحية وقورة كغيره من رجال الدين لتحل محلها شخصية الفتى المتجدد الذي يرتدي الملابس الافرنجية ويضع الطربوش على رأسه ويحلق لحيته ويحمل العصا فى يده ويغشى المجالس ويرتاد الاندية ليتعرف على رجال الفكر والسياسة . ولعل الذى سهل له سبيل التوثيق من روابطه مع الاوساط الفكرية ، هو توليه منصب استاذ الادب العربى فى (جامعة الاستانة) وقيامه بتدريس مادة (حكمة التشريع الاسلامي) فى مدرسة (ملكية شاهانى) .

ولا شك ان هذين المنصبين قد اتاحا له فرصة الاتصال برجالات الفكر العثمانى ودفعاه الى مزيد من النشاط العلمى فالف فى هذه الفترة كتابين فى اللغة التركية . الاول (تاريخ آداب اللغة العربية) والثانى (حكمة التشريع الاسلامي) كما زود المجلات التركية امثال (ثروت فنون) و (شهبال) بمقالات شيقة وبحوث ممتعة فى الادب والتاريخ .

وعندما انحسر الحكم العثماني في العراق اثر الحرب العالمية الاولى وبدت واجهات جديدة لحكم اهلي في ربوع الرافدين عقب ثـورة حزيران ١٩٢٠ ، وتسابق العراقيون للعودة الى بلادهم تحدوهم الآمال العريضة

كان من المفروض ان يبرز (فهمي المدرس) كرجل عراقي يقف في مقدمة رجالاته علما ومقدرة ، الا انه بحكم الاوضاع الشاذة واجه الرجل صدمات شديدة • وكانت اول هذه الصدمات الصدمة التي تلقاها من الملك (فيصل الاول) نزولا عند رغبة الانكليز الذين وجدوا بقاءه في البلاط خطرا يعرقل مصالحهم ويخلق العثرات امام سياستهم ، وقد استغل المندوب السامي البريطاني السير (برسي كوكس) حادثا وقع في ٢٣-آب-١٩٢٢ واتخذ منه ذريعة لأقالة المدرس •

فقد قامت في ذلك اليوم مظاهرات شعبية نظمها الحزبان : الوطني والنهضة بمناسبة مرور عام على تتويج فيصل الاول تجمعت امام البلاط تطالب بشجب الانتداب واقالة الوزارة الكيلانية التي يترأسها عبدالرحمن النقيب واجراء الانتخابات لتاليف مجلس تأسيسي ، وبينما كانت الجماهير تستمع الى خطباء الحزبين وصل المندوب السامي (السير برسي كوكس) وشق طريقه بين الجماهير ليقدم التهاني الى الملك ، فتعالت في هذه اللحظة هتافات معادية للانتداب وامتقع لون المندوب السامي وخرج بعد اداء المراسيم غاضبا وما كاد يصل الى مكتبه حتى ارسل احتجاجا الى الملك يطلب فيه اقالة المدرس واعتباره مسؤولا عما لحقه من اهانة وسارع الملك الى تلبية الطلب والاعتذار عما وقع •

وقد حاول (امين الريحاني) ان يبرر موقف الملك فيصل من هذه الحادثة فذكر رواية مفادها ان (فهمي المدرس) خطب في تلك المظاهرات خطبة حماسية انطوت على التحريض ضد الانتداب البريطاني فقال في (ملوك العرب) صفحة ٢٩٧ و٢٩٨ الجزء الثاني طبعة (١٩٥١) •

« ••• جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وفد الحزبين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر فطلب الزعماء من الملك ان يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطب • فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني العراقي الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير فهيج في رئيس الامناء الشجون فانتصب خطيبا وحق له الكلام اذا كان الملك انابة عنه وحق له ايضا ان يبرهن على حماسة — (وقيل حماقة) — فيه انسته ان موظف في البلاط وان المندوب السامي لبريطانيا العظمى قادم في تلك الساعة ليهنىء جلالة الملك بعيد الجلوس وان عليه هو واجب الاستقبال والترحيب » •

وكرر الريحاني في هذه الرواية في كتابه — فيصل الاول — ص ٧٥ و٧٦ ، الا ان هناك اسباب تدعو الى الارتياب بصحة هذه الرواية فالمصادر الاخرى التي تعرض لهذه الحادثة لا تشير الى هذه الواقعة — واقعة انتصاب المدرس خطيبا في تلك الحادثة فالصحف اليومية الصادرة ذلك الوقت خلت من الاشارة اليها رغم انها وصفت الحادثة وذكرت تجمع المظاهرات امام البلاط وخطبة البصير وكبة ، والكتب التاريخية سواء منها

العربية والانكليزية لم يرد فيها ما يؤيد هذه هذه الحكاية ، كما ان كتاب الاحتجاج الذى طلب فيه عزل المدرس لا ينسب اليه ما ذكره الريحانى وكل ما جاء فيه هو :

سعادة رئيس الديوان الملكى المحترم

نرجوا ان تخبروا جلالة الملك بأن فخامة المعتمد يحتج بعنف ضد ما لقيه من المعاملة فى وقت كان فخامته يمثل حكومة بريطانيا العظمى مارا بباب غرفة الاستقبال ليؤدي مراسيم التبريك، وان فخامته اخبر لندن عن هذه الحادثة ويطلب ان يعتذر اليه وان يعزل فهمى افندى المدرس اذا كان هو المسؤول رسميا ويطلب فخامته بيانا عن الاجراءات التي ينوى جلالة الملك اتخاذها ضد الخطيبين اللذين حضرا مقام الملك بالقائهما خطبا مهيجة.

٢٤ اوكست سنة ١٩٢٢ التوقيع : جانين بيوسي

وقد روى لى الدكتور (محمد مهدى البصير) ـ وهو خطيب تلك الحادثة الذى نفى بسببها الى هنجام ـ ان هذه الرواية لا اساس لها من الواقع . لذلك فان انفراد (امين الريحانى) بذكر هذه الواقعة دون غيره من الرواة والمؤرخين امر يدعو الى التريث فى قبولها لاسيما اذا علمنا ان الريحانى زار العراق فى تلك الفترة بدعوة من الملك فيصل الاول ليضع كتابا يبرز فيه معالم الدول الجديد فليس من المستبعد ان يذكر هذه(٣) الرواية كمحاولة لتبرير موقف فيصل من هذه الحادثة . ولعل الصراع الذى كان يدور بين موظفي البلاط حول جبر الملك فيصل على انتهاج هذه السياسة المؤيدة للانتداب البريطانى او تلك السياسة المعارضة لها قد لعب دوره فى اختلاق هذه الرواية والتذرع بها لابعاد من يعارضها او يقف بوجهها فى البلاط .

وقد كان المدرس يظن ان رئيس الديوان (رستم حيدر) يختفي وراء هذه المناورة وقد بقى هذا الشعور يسيطر عليه فترة من الزمن .

وروى لى (سامى خندة) صاحب جريدة (الرافدان) انه استدعي الى البلاط مع عبدالغفور البدري صاحب (الاستقلال) وداود السعدي صاحب جريدة (دجلة) يوم ٢١ ـ كانون اول ـ ١٩٢١ الى البلاط حيث اجتمعوا بالسيد رستم حيدر سكرتير الملك فيصل الاول وباحثهم حول المعاهدة وحاول اقناعنا بضرورة عقدها فأبدينا ملاحظاتنا حول عدم ملائمة الظروف لذلك ورفض الشعب لبنودها الثقيلة ، ولما انفض الاجتماع دخلت على فهمي المدرس وكان يشغل وظيفة كبير الامناء ، فسألني عما دار فى الاجتماع ؟ فلما بسطت له الامر قال « لكم ان تدافعوا عن وجهة نظر الشعب فى رفض المعاهدة او قبولها لانكم تمثلون الصحافة العراقية » .

أما الصدمة الثانية فقد تلقاها في عهد وزارة نوري السعيد الاولى عندما قبر المشروع الثقافي الذي تبناه المدرس وكافح من اجل اخراجه بكل

حماسة واخلاص وهو مشروع انشاء جامعة في العراق باسم ـ جامعة آل البيت ـ تكون نواة اولية لجامعة عراقية عصرية، ولكن المشروع لقي معارضة ساطع الحصري ودار بين الرجلين جدل عنيف حول اسس الجامعة والمعاهدة التي تلحق بهما وسياستهما التربوية رددت صداه الصحافة والاندية والبرلمان ، وانقطع عام نيسان ١٩٣٠ عندما الغى نوري السعيد جامعة آل البيت بحجة ضيق الميزانية •

وقد تلقى المدرس هذه الصدمة كما يتلقى الاب نعي ولده بكثير من المرارة والالم لاعتزازه بذلك المشروع الذي كان يحس انه من خلقه وتكوينه ولعل هذا الصراع الذي قام بينه وبين الحصري يعكس التصادم بين عقلية الاديب المتحسس التي يعبر بها (فهمي المدرس) وعقلية العالم المنظم التي يعبر عنها (ساطع الحصري)(٤)•

وقد اتجه المدرس بعد ان انتهى مصير الجامعة الى ميدان السياسة فانظم الى (الحزب الوطني) الذي كان يتزعمه (جعفر ابو التمن) واخذ يشحذ قلمه للاسهام في ميدان الكفاح الوطني والمشاركة في اداء الرسالة التي تفرضها على الاديب واجباته الوطنية فراح يطلع من وقت الى آخر بمقالات سياسية ضافية تنشرها صحف المعارضة ذلك الوقت امثال جريدة (البلاد) والجهاد و (نداء الشعب) و(الاخبار) مذيله بتوقيع (الكاتب العراقي الكبير) وهو توقيع عرف به بين جمهور القراء •

والاسلوب الذي ينتهجه (المدرس) يعكس الى حد بعيد ما تتميز به شخصيته من اناقة يحرص عليها ويلتزم بها ، سواء في زيه الذي يلفت النظر بتناسق الوانه وانسجامها ، او في صالونه الذي يستقبل فيه زواره فيحرص ان يزين جدرانه بالصور الزيتية والسجاد الفاخر او في حديقته التي كان يمضي اوقاته في تنسيقها بالازهار الجميلة والاوراد البديعة او في خطه الذي كان يعرف بجماله ، او في احاديثه التي يسردها بطريقة تستهوي السامعين وتخلب الباءبهم ليس بما تنطوي عليه من (طرف) فحسب ، بل بطريقة عرضها وأسلوب تقديمها الى رواد ذلك المجلس الذي يختلف اليه نخبة من قادة الفكر ورجال السياسة امثال (الرصافي) و (الزهاوي) و (ياسين الهاشمي) و (عبدالعزيز الثعالبي) وغيرهم ، فتطرح فيه موضوعات مختلفة في الادب والتأريخ والسياسة يدور حولها البحث ويحوم حولها الجدل •

ففي هذا المجلس كانت تبرز في المدرس شخصية المحدث اللبق والرواية الاديب فيروي ما تخزنه ذاكرته من اخبار السلف ونوادر الادباء وعبر التأريخ ما يثير العجب ويسترعي الاصغاء •

ولا شك ان الذي يساعد على تبريز هذا الجانب في شخصية المدرس ما يعرف عنه من سرعة الخاطر وحضور البديهه الى جانب سعة الاطلاع وقوة الذاكرة ، وقد روى عن سرعة بديهته ان الزهاوي خرج من مكتبه في

البلاط عندما كان كبير الامناء غاضبا لامر ما وهـو يردد بيتـا من الشعر يغمز فيه المدرس ويقول :ـ

انا لو كنت بليدا فاز في الاسهم سهمي
انمـا اخـرني عن الاقـران فهمـي

فلما بلغ ذلك المدرس اسرع عليه بنفى البيت بعد ان غير بعض الفاظه تغيرا يقلب معناه ، فقال :

انا لو كنت بليدا طائش في الاسـهم سهمي
انمـا قـدمنـي عـن الاقـران فهمـي

وقد انعكست هذه الاناقة التي طبعت شخصية المدرس في اداءه الكتابي فبدت في الالفاظ التى ينتقيها بذوق ، وظهرت فى الاقتباسات التى يقتبسها سواء من آيات القرآن الكريم او من الاحـاديث النبوية ، او من الامثـال العربية بحيث لا يخلو منها مقال من مقالاته وتجلت فى كثرة الاستشـهـاد بالحوادث التاريخية سواء بالتاريخ الاسلامي او بالتأريخ العثمانى والرجوع الى تلك الحوادث لدعم فكرة يريد ابرازها او تفنيد رأى يسعى الى هدمه ، وكثيرا ما كان يعقد مقارنة بين وضع العراق في العهـد العثماني وعهـد الانتداب البريطاني فيرسم للاولى صورة مشرقة ويرسم للثانية صورة قائمة ليخلص من المقارنة الى القول بأن وضع العراق في العهد العثماني خير منـه في عهد الانتداب البريطاني .

ومن مميزات اسلوب المدرس السخرية المريرة والتهكم اللاذع الـذين يظهران حين يتناول المواقف السياسية فيكشف عمـا تنطوي عليـه من مفارقات فيقول مثلا عن الاوضاع الشاذة « اذا أردت أن تعرف كيف يوضع الشيء فى غير محله فأجل طرفك فى دواوين الحكومة وانظر الى المناصب فبينما تسمع انين المرضى يملأ الفضاء وليس هناك من يواسيهم بجس النبض او بجرعة من الدواء اذ ترى الاطباء قد انتقلوا من مكان الاختصاص الى مقاعد لا علاقة لها بالصحة وترى الاستاذ المختص يعلم التربية يرأس كليـة الحقوق »(٥) .

او حين ينعت (جعفر العسكري) بأنه (بطل المعاهدات) ويقول عنـه (يعلم الناس والعالم اجمع ان فخامته بطل المعاهـدات فكلما تقدمـت دار الاعتماد البريطاني بمعاهدة تحركت اسلاك البرق وحضر على جناح السرعة وبعد الابرام عاد الى السفارة المحفوظة له في لندن)(٦) .

وقد وصف الاستاذ روفائيل بطي مدى عناية المدرس باعداد هـذه المقالات فقال (ويتهيأ لها الاستاذ باستعداد حثيل بقراء موضوعات الساعة واكثرها يدور حول المعاهدات الجديـدة او اتفاقية النفط او خطبـاء فى البرلمان وتصريحات للساسة ومقالات وملاحظات صحفية او آراء للصحافـة

العربية والاجنبية ترد في حقول الجرائد وتتناقلها ألسن البرق يضيف اليها ما يتلقفه من مناقشات المجالس السياسية الخاصة ومساجلاتها ويدون يراعه ملاحظات ويشرع في اعداد المقالة ويكتب مسودة في بضعة أيام وبيضها في اطول من يوم واحد فاذا تمت وبيضت وفي خلال ذلك يقرأها خاصة من ساسة وادباء يرتادون ناديه وقلم الاستاذ بين انامله يحور وينقح فتخرج مقالة الاستاذ في اليوم التالي على الناس وهي تقدح شرزا في النقد اللاذع والتهكم المؤلم والنقاش الحاد في القضايا السياسية التي تشغل الرأي العام مكتوبة بأسلوب متين وديباجة فصيحة تنور بين سطور الآيات الكريمة تعزز بمنطق الكاتب وحليا للب القارىء ».(٧) .

وقد حظيت مقالات (فهمي المدرس) باعجاب الجمهور العراقي فتأثر بأسلوبه وافكاره السياسية شباب ذلك الجيل ، فأقبلوا على قراءة ما يكتبه في الصحف وما ينشره في المجلات اقبالا واسعا ، بل راح بعضهم تحت تأثير ذلك الاعجاب يحاول محاكاته ويجرب تقليده ».(٨) .

ولقد عالج (المدرس) في مقالاته موضوعات سياسية ، فكشف النقاب عن الانتداب البريطاني وما ينتهجه من اساليب تستهدف تزييف الانتخابات لتأمين سير المشاريع الاستعمارية ، وتشكيل الوزارات من عناصر تخضع للتوجيه والاشارة ، واصطناع لون من المعارضة لتحقيق المشروعية في اعمال الاكثريات التي يؤتى بها لابرام المعاهدات والاتفاقيات ودافع بحماسة عن اهلية العراق في ممارسة حكم نفسه وفند اقوال دعاة الانتداب من ان العراق لا يستطيع ان يمارس هذا الحق وذهب في ذلك مذهبا لا يخلو من المبالغة « .. ان العراق لم يكن مستعمرة للاتراك وانما كان جزءا من المملكة العثمانية المتمعة بالاستقلال التام والحكم الذاتي اكثر من ستة قرون . والدولة لم تكن تركية بل كانت عثمانية ومعنى ذلك انها تجمع حول رايتها عناصر مختلفة شأن الدولة العراقية في يومنا هذا لو كانت مستقلة ولم يكن العراقيون تحت نير الحكم التركي كما هو اليوم تحت نير الانتداب البريطاني . وانما كانوا شركاء في الحكم مع الاتراك في جميع مظاهر الدولة كباقي العناصر ....» ـ ص ١٣٠ مقالات المدرس ـ الجزء الاول ـ وعارض معاهدة (١٩٣٠) التي أبرمها نوري السعيد في وزارته الاولى معارضة شديدة فكتب في الحملة عليها مقالات عنيفة شديدة كشفت عما تنطوي عليه من اعتداء على حقوق الشعب وتوجه يوم اجتمع البرلمان للبت في هذه المعاهدة بكلمة الى اعضاء المجلس المذكور قال فيها « ... لقد كثرت الاقاويل في انتخابكم واجتماعكم وحقيق بالامة وهي في يوم محنتها ان ترتعد فرائصها لمصيرها المعلق على كلمة هي الان بين شفتيكم فاما فناء ولا معاد واما بقاء وخلود فأجرحوا الاقوال بالاعمال ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . ان المعاهدة التي ستعرض بين عشية وضحاها ليست كالصكوك البسيطة وانما هي قيود رق وعبودية

وسلاسل يئن تحتها الشعب العراقي الى ابد الآبدين ... فضعوا ايديكم على ضمائركم واجعلوا التأريخ نصب اعينكم واعملوا على خيركم وخير ابنائكم واحفادكم « ومن عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها » ـ ص ٢١٩ مقالات المدرس ـ الجزء الاول ـ .

وعندما اضرب الشعب العراقي عام (١٩٣١) احتجاجا على تعديل قانون رسوم البلديات وفرض ضرائب جديدة انتقلت من كاهل العمال وقف (المدرس) يسند هذا الاضراب ويرد التهم التي الصقت به فقال « ... اذا سلمنا جدلا بأن الاضراب كان نتيجة ايعاز وتحريض من جانب عصابة او شرذمة افلا تكون تلك العصابة او الشرذمة حينئذ هي التي تمثل الرأي العام ... وهل من الوطنية الصادقة ان نجرد الشعب من الشعور والعاطفة ونجعله بمثابة الجماد يتدحرج الى حيث يراد به ... واية مزية تبقى لاصحاب الفخامات والمعالي والنواب والاعيان اذا عرف القريب والبعيد ان الشعب العراقي لا فرق بينه وبين بهيمة الانعام كما تنم عنه الاساليب الهمجية وهل لهذه الطبقة السامية مبعث غير هذا الشعب ... ام ان الشعب العراقي ينقسم الى قسمين ساذج يتحرك بارادة غيره وهو الذي تتالف منه الملايين من النفوس وقسم مستجمع لجميع صفات الكمال وهو الذي لا يتناول غير الجالسين بالفعل على الكراسي والعراق انما يدخل حضيرة الامم باسم هؤلاء الآحاد » ـ ص ٢٠٦ مقالات المدرس ـ الجزء الثاني ـ .

وكانت الهوة بين فهمي المدرس والملك فيصل تزداد إتساعا كلما اشتدت لهجة المدرس عنفا في المعارضة ، وعندما كتب المدرس مقاله المعروف بعنوان (الاستفتاء ومصيره) وعارض فيه معاهدة ١٩٣٠ بعنف وغمز قناة فيصل مفكرا اياه بمصير العروش التي تنكرت لاماني شعوبها غضب الملك واوعز الى حكومة نوري السعيد ان ترفع الدعوى على رفائيل بطي صاحب الجريدة وباعتبار ان المقال لم يذيل بتوقيع (المدرس) وان كان الجمهور يعرف كاتبه(٩) .

وكان فيصل يحسب ان هذه الاشارة تكفي لتهديد المدرس فلما توالت مقالاته وكلها سخرية بالوضع وتنديد بسياسته لم يطق صبرا فأوعز الى رجاله بالبحث عن وسيلة تشل قلم المدرس عن مواصلة الكتابة فابتدعت حكومة نوري السعيد حيلة قانونية وطبقت على (فهمي المدرس) (ورفائيل بطي) قانون دعاوي العشائر وابعدتهما في شتاء عام ١٩٣٣ الى (السليمانية) .

وقد اثار هذا العمل استهجان مختلف الاوساط بما فيه المجلس النيابي الذي طالما اشبعه المدرس نقدا وتجريحا واطلق عليه من باب التهكم (مجلس جامعة آل البيت) فشنت المعارضة(١٠) حملة شعواء على الحكومة وكان (معروف الرصافي) ابرز خطباء تلك الجلسة الصاخبة .

وقد اراد (ناجي شوكة) وزير الداخلية ان يبرر هذا الاراء فاتهم المدرس بانه يسمم افكار الجيل بمس المقدسات والتعرض للعرش !! الا ان خطباء المعارضة كشفوا في خطبهم عن مجانبة ذلك الاجراء لقانون دعاوي العشائر وعدم جواز شموله لاهل المدن .

ووقف الرصافي في تلك الجلسة يدافع عن زميله (فهمي المدرس) قائلا « .. الحرية السياسية لا تحدد الا بالقانون . وكل شيء لا يمنعه القانون استطيع ان اتكلم به واعمل بموجبه ولو كنت من المعارضين للحكومة على طول لصرت مسرورا لان الحكومة بهذه المعاملة اعطت سلاحا صارما بيد خصومها وثانيا لانها اظهرت ضعفا ... » .

وقال صادق البصام (.. ما ذنب فهمي المدرس الذي انتقد هذه الامور حتى ينفى برغم شيخوخته في حين نرى في اوربا ان الذين يعملون اعمالا جليلة ينصبون لهم الهياكل اما هياكل هؤلاء فهي السجون والنفي الى المحلات البعيدة ..) .

ولم يستطع نوري السعيد في تلك الجلسة امام هذه الحملة ان يتمالك اعصابه فلمح من حيث لم يقصد الى سلطان فهمي المدرس على النواب المعارضين وغمزه قائلا « ... نعم هناك آراء موجودة في مستشفى المجانين ... ولا يوجد ضرر من هؤلاء الموجودين في مستشفى المجانين... لقد اجتهدنا لالغاء الانتداب عن هذه البلاد ولكن اقول لكم بقي انتداب آخر يجب ان نلغيه هو انتداب هؤلاء الناس كل واحد منهم موضوع تحت انتداب الآخر فيجب ان نلغيه ونحطمه حتى نتمكن من تخليص البلاد من هؤلاء ... » .

وقال نوري السعيد في نفس الجلسة ايضا (.. وطنية . مدرس .. او شيخ وغير ذلك من هذه الكلمات لا افهمها ويجب ان لا نتأثر بها ... انا لا افهم الوطنية بغير هذا المعنى ولا افهم الشيخوخة ولا غير ذلك ... واطلب من النائب ان يقرأ مقالة (١١) شباط ويحكم على المقالة وينصب لكاتبها تمثالا !! » (١١) .

وأثر النفي في نفسية فهمي المدرس تأثيرا شديدا وترك عنده جرحا عميقا ، فضعفت اعصابه وزادت وساوسه وكثرت اوهامه ، فأخذ يسرف في توجس الشر ويجسم الامور ويهولها ، وفجأة راوده وهو في المنفى شعور بأن مصيره سيكون نفس المصير الذي انتهى اليه توفيق الخالدي حيث قتل غدرا ، والح عليه هذا الشعور وأخذ يشغل فكره ويقلق باله ، وقد حدثني روفائيل بطي الذي نفي معه الى (السليمانية) عن تلك الوساوس التي استولت على المدرس فقال : كنا نقيم في ثكنة عسكرية في (السليمانية) وكان فهمي المدرس يمضي الليل ساهرا لا ينام خوفا من ان يتعرض خلال نومه الى الغدر وكلما لاح له شبح من النافذة ، او سمع وقع اقدام اضطرب وحسب ان ساعة البطش بنا قد دنت !!

وقد بقي (المدرس) ناقما على الملك فيصل الاول وعبثا حاول ارضاءه بترشيحه الى مجلس الاعيان الا انه رفض ، حتى اذا توفى عام ١٩٣٣ فيصل واقيمت له الحفلات التأبينية وتسابق الادباء والشعراء والساسة الى رثاءه بما فيهم اولئك الذين عارضوا سياسته كالرصافي ، لازم المدرس الصمت ولم يسهم بشيء رغم المحاولات التى بذلت لاقناعه في المساهمة بتلك الحفلات ولم يكن شعور المدرس تجاه رجال فيصل كنوري السعيد وجعفر العسكري ورستم حيدر ليختلف عن شعوره ازاء فيصل فقد نقل لي احد اصدقائه عن دهشته واستغرابه حين تلقى المدرس وهو في مجلسه بشبطة خبر مصرع جعفر العسكري واخذ يستفسر وعلائم البشر بادية عليه عن تفاصيل الحادث !!

وفي نيسان ١٩٣٢ ظهرت نتائج الحملة التي اقيمت حول ابعاد المدرس فعاد الرجل الى بغداد بعد ان ساءت صحته واخذ اليأس كل مأخذ منه واستقال من (الحزب الوطني) في شباط ١٩٣٤ بالرغم من انتخابه عضوا في اللجنة المركزية ، ولعل الخلاف الذى دب بين قادته واعتزال ابو التمن السياسة لم يشجعه على البقاء فيه والعمل تحت لواءه ، فأنزوى في داره لا يبرحها الا قليلا يقطع اوقات فراغه بمطالعة الكتب واستقبال الزوار وتنسيق حديقته والعناية بقطة اليفة اسمها «واوية» .

وقد تقلص انتاج المدرس الذى بلغ اوجه (١٩٣٠-١٩٣٢) فلم يسمع له صوت الا في مناسبتين :

الاولى عند قيام حركة ٤١ مايس واصطدام الجيش العراقي بالقوات البريطانية ، فقد انقلب فهمي المدرس الشيخ الطاعن في السن الى شاب يتقد حماسه ويلتهب نارا ، فحمل على السفير البريطاني السير كورنواليس حملة شعواء وأهاب بالشعب العراقي الى الدفاع عن الوطن .

وقال في تلك الكلمة التي نقلتها اذاعة بغداد « ايها الشباب المتحفز الى المجد الباذخ ويا اشبال الغزاة الفاتحين ويا اباة الضيم .. العدو يجوس خلال الديار ويطأ بأقدامه القذرة تربة ابائكم الطاهرة وان ارواح اجدادكم العظام تحف بكم حاملة صحائف تأريخكم المجيد ترتل آيات ذلك الماضي المحفوف بالسؤدد والشرف الرفيع وان اجنحة الملائكة المقربين ترفرف فوق رؤوسكم صارخة (وبشر المؤمنين يا محمد) ... فذبوا عن اوطانكم واعراضكم ومقدساتكم .. »(١١) .

والثانية في عام ١٩٤٤ عندما قامت ضجة ضد (معروف الرصافي) استهدفت اتهامه بالكفر والالحاد بسبب ما ورد في كتابه ـ رسائل التعليقات ـ من آراء ضاق بها المتزمتون ، فكتب (المدرس) الى مدير الاوقاف العام في ٦-٣-١٩٤٤ كتابا ينتصر فيه للرصافي ويدفع عنه الشبهات التي حامت حول عقيدته ، وحمل في ذلك الكتاب على المحافظين ، ولعل من

البواعث التى حفزته على اتخاذ هذا الموقف هو انه اراد ان يقف الى جانب (الرصافي) في هذه المحنة كما وقف هو اي الرصافي الى جانبه يوم ابعد الى (السليمانية) ، ولعلمه ايضا ان بعض الذين اصطنعوا هذه الضجة واثاروا تلك الزوبعة استهدفوا من ورائها التقرب والزلفى الى البلاط الذى كان يحمل حقدا على الرصافي لاسيما بعد موقفه من حركة ٤١ مايس الذي لا يختلف عن موقف زميله (فهمى المدرس)٠

قال المدرس فى ذلك الكتاب يصف ما كتبه الرصافي عن (وحدة الوجود) فند الرصافي في هذا الفصل مزاعم زكي مبارك حول مصطلحات السادة الصوفية وشرحها شرحا يزيل الشك والابهام ويزيد القارىء ايمانا بعظمة هذا المذهب ٠ وهذا البحث الدقيق الفلسفى انما يفهمه اهله لا الذين يقتصر اشتغالهم العلمي على كتب الجادة ولم يطرقوا باب الفلسفة على ان مبادىء التصوف قد كانت مثار النزع بين علماء الظاهر اى الفقهاء وبين علماء الباطن اى الصوفية ، منذ ان انتشر مذهبهم على اثر تعريب الفلسفة اليونانية فى عهد المأمون حتى ادى النزاع الى تكفير بعض المشايخ الصوفية واهانتهم فلا غرابة فيما لو كان الرصافي في هذا الباب مبعث التحامل والانتقاد ، ولاسيما فى هذا العصر الذى اندرست فيه معالم التصوف ٠٠)٠

وفي ختام الكتاب يقول « لم يظهر لنا من تعليقات الرصافي ما يمس كرامة الدين بل ظهر لنا انه قوى الايمان بالله ورسوله راسخ الاعتقاد بما جاء به القرآن الكريم ٠ ومن كفر مسلما فقد كفر ٠٠ »٠

ولا شك ان الصدمات التي تعاقبت عليه وهو فى سن الشيخوخة والهموم الشخصية التى ابتلى بها بسبب تفاوت السن بينه وبين زوجته مما عرضته الى خلافات قد هدت من اعصابه وافقدته الراحة والاستقرار وفراغ البال ، فبدت على الرجل فى بعض الاحيان عوارض الشيخوخة فسيطر عليه تفكير مرده ان الانكليز وراء مشكلة تواجهه وتعترض حياته، وقد بلغ به ذلك حدا جعله يتخيل ان الانكليز وراء مناكفات ومشاكسات زوجته ، وانهم ايضا وراء وفاة اخته (قادرية) وقد خطر له ان يطلب تشريح جثتها لولا ان بعض اصدقاءه صرفوه عن ذلك بعد جهد طويل ٠

ولما اشتدت به العلة واقترح عليه اصدقاءه الانتقال الى المستشفى الحكومى رفض ذلك بشدة قائلا ان مدير المستشفي طبيب انكليزى وقد لا انجو منه ؟ ٠

وقد زادت هذه التجارب من حساسية وارهفت من شعوره وضاعفت من حقده على الانكليز لذلك انتعشت معنوياته عندما احرز الالمان في بداية الحرب العالمية الثانية انتصارات عسكرية فكان كثيرا ما يصغي الى خطب هتلر الحماسية ويمضي في ذلك ساعات طويلة يستغرق في الانصات اليها بكل جوارحه وكان ذلك يثير دهشة اصدقاءه لعلمهم انه لا يعرف اللغة

الالمانية ، فخطر لاحدهم ان يسأله مرة عن سر هذا الاهتمام ، فلما سأله اجاب فهمي المدرس ببساطة : صحيح انني لا افهم شيئا مما يقوله هتلر ولكن بما انني اعرف انه يهاجم الانكليز لذلك اشعر كأن كابوسا ثقيلا ينزاح عن صدري ويخلق عندي شعورا من الارتياح ٠

ولكن آمال المدرس التي كان يعلقها على نجاح الالمان في الحرب سرعان ما تلاشت بفشلهم ، فزاد من همومه وانزوى في داره يتجرع تلك الهموم وشبح الاعتقال الذي كاد ان يحدق به بعد فشل حركة (٤١) مايس يهدده٠

في آب ـ ١٩٤٤ توفي (فهمي المدرس) بعد ان بلغ الثانية والسبعين من العمر وخلف آثارا مختلفة في العربية والتركية منها كتابان في اللغة العربية هما (مقالات سياسية تاريخية اجتماعية) في جزءين والاخر هو العراقية وامهات المجلات التركية القديمة أمثال (شهبال) و (ثروت فنون) العراقية وامهات المجلات التركية القديمة امثال (شهبال) و (ثروت متون) بعضها بتوقيعه الصريح واغلبها بتواقيع مستعارة (ابو حارث) و (الكاتب العراقي الكبير) ٠

والى جانب هذه المقالات والكتب ترك آثارا مدونة بخطه الجميل لم تنشر لحد الآن فعسى ان يحفز هذا الفصل اولاده والمعنيين بتأريخ الادب العراقي الحديث على اخراجها من رفوف النسيان وتقديمها الى القراء تقديرا لمكانة الرجل وخدمة للتأريخ والادب ٠

---

(١) صدرت جريدة الزوراء في عهد تولي مدحة باشا ولاية بغداد واستمرت الى ان انتهى الحكم العثماني في العراق ٠

(٢) عن جريدة الايام في ١٦ـ٨ـ١٩٦٢ ناجي الاصيل ، أي تعيش الحرية ، تعيش العدالة يعيش الدستور ٠

(٣) ملوك العرب ص ٢٩٧ طبعة ٩٥١ ٠

(٤) التعليم العالي في العراق ـ حسن الدجيلي ـ طبعة ١٩٦٣ ٠

(٥) مقالات المدرس ج ٢ ص ١٧٥ يشير الى تعيين سامي شوكة وهو طبيب مديرا للمعارف والى ساطع الحصري وهو اخصائي بالتربية ، مديرا لمدرسة الحقوق ٠

(٦) مقالات المدرس ج ١ ص ١٢٢ ٠

(٧) البلاد في ١٤ آب ١٩٥٣ ٠

(٨) محاولات صديق شنشل ومعمر خالد الشابندر الكتابية الاولى تشير الى تأثرهما بأسلوب فهمي المدرس ٠

(٩) جريدة الزمان في ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٠ سيق مدير تحريرها رفائيل بطي الى المحكمة فحكمت عليه محكمة الجزاء بالحبس لمدة ستة أشهر ونقضته محكمة التمييز و (القضاء الجنائي العراقي) للسيد سلمان بيات ـ راجع قرار المحكمة في ذلك ٠

(١٠) محاضر المجلس النيابي لعام ٩٣٢ جلسة رقم (٣٢) تاريخ الجلسة ١٦ آذار ١٩٣٢ ٠

(١١) جريدة البلاد العدد ١٧٠٧ في ١٦ ايار ١٩٤١ ٠

تراثنا الموسيقي

جريا على خطة الاقلام في طرح قضايا الفكر والفن ومواضيع الساعة الثقافية على بساط البحث والنقاش فقد وجهت للاساتذة الدكتور مصطفى جواد والسيد محمد القبانجي والشيخ جلال الحنفي والسيد عبدالكريم العلاف والسيد زكريا يوسف هذا السؤال :

– من واقع حقيقة موضوعية تؤكد ان مجتمعنا العربي حقق نهوضا وتطورا في مختلف مجال الحياة ، تبرز ضرورة مواكبة موسيقانا العربية لهذا التطور .

ما هي في رأيكم المقومات التي تجعل الموسيقى العربية تحتل مكانتها في دنيا الموسيقى العالمية وهل ترون في تراثنا الموسيقي ما يصلح لذلكم النهوض المنشود ؟

وقد أجاب الاستاذ الدكتور مصطفى جواد قائلا :

مما لا سبيل للتعقيب عليه أن لموسيقى كل جمهرة أصلية من جماهر الامم البشرية خصائص عامة تنتظمها فتميزها عن خصائص موسيقى غيرها من الجماهر ، ولذلك تجد العربي يطرب بالموسيقى السامية عموما فضلا عن طربه بالموسيقى العربية التي يتعاطى فنونها غير شعبه في غير قطره ، وكذلك القول في الانسان الآري والموسيقى الآرية ، اللهم الا ما أثره الاختلاط الديني والتجاور السكني في الشعوب المتحدة الدين والمتجاورة البلاد ، فالموسيقى ليست كالادب تفكير وفكرة وعاطفة مصورة بالكلم والعبارة وخيال يدركه العقل ولا تحسه الحواس ، وعلى هذا لا تستغرب حال العربي حينما يبلغ سمعه الاصوات الموسيقية الاعجمية وخصوصا الاوربية والامريكية فينفر منها ولا يصغى أذنيه اليها ، ولا يرتاح لها لان نفسه لم تتعود الالتذاذ بها ولا السكون اليها ولا استعذابها منذ الطفولة والصبا بله الشباب وما بعده من مراحل الكبر ، والموسيقى تولف فتعرف ، وتعتاد فتستفاد ، وتستعاد استلطافا وأستعذابا وتوقانا وطربا واستئناسا .

وهذا يعنى أن الانسان منذ طفولته يبدأ نشوء ميله الى نوع الموسيقى التى يسمعها والالحان تطرق أذنيه فى مجتمعه فان يعود طفل النوم على لحن من الحان العود فانه يبقى ميالا الى سماع ذلك اللحن قبل نومه دائما ، ويندر أن ينام وادعا من غير سماعه لذلك اللحن ، وقد يصيبه أرق اذا حرم سماع ذلك الصوت الذي يوحى بالنوم ويريح النفس ويثير الحس بالرغبة فى النوم .

ولما كان للعادة سلطان مبين فى الميل الى الموسيقى وجدنا كثيرا من شبان العرب وشوابهم ممن درسوا العلوم والفنون والآداب فى بلاد الغربيين وممن اختلفوا الى معاهدهم للاقتباس والتثقف قد ألفوا الموسيقى الافرنجية واعتادوا سماعها باستعذاب وارتياح وهفوان ، فكان لهم ذوقان في الموسيقى شرقى عربى أصلى وغربى افرنجى وان كان الذوق العربى أحس وأمس لانه الاصل والافرنجي هو الطارىء المكتسب ، ولان العربى هو الناشىء مع الطفولة الذى لابس الروح ومازج الهوى وصادق الطبع وواءم النفس ، وأولئك القوم أتوا العكس فقد نفروا من سماع الموسيقى العربية ، ورغبوا عنهـا ، واستهانوا بها تكبرا واستنكافا وحرموا أنفسهم ما يحسن عمله بالعاقل الالمعى . فان استمروا على هذه الطريقة الوعرة فلن يكون للموسيقى العربية عندهم مقام فيها سوى الدراسة الاجتماعية ، ودراسة علم التلفظ المعروف عندهم « باسم الفونتيك » على أن هذا لن يضر الموسيقى العربية ولن يعوق تقدمها وتطورها على حسب تطور الاذواق العربية الاصيلة والمكتسبة ، فالعرب هم الرابحون الذين ستتسع آفاق موسيقاهم ، وقد بدأ الإتساع ، والافرنج هم الخاسرون ، لان موسيقاهم ستبقى محصورة فى دائرة أذواقهم وان كثرت الحانها ونوعت آلاتها ، لبراعتهم فى صناعة الآلات وصنعة الانغام .

ان قبول الاذواق العربية للتطور والاقتباس فيما ينعش الاحساس جعلاهم في العراق خاصة يستعذبون أفانين الالحان ، وأنواع الانغام ، كالالحان التى ركبت عليها « المقامات » فان المقامات قد جمعت أذواق عدة أمم وفيها أصوات لا تستطيع اداءها الآلات الموسيقية الغربية لجمودها ، واعتزاز الفرنج بذلك الجمود ، على النحو الذى ذكرته آنفا ، ويستطيع القائل أن يقول ان الموسيقى فى مصر قد ترقت ترقيا فنيا عجيبا بتنويع الالحان والتطعيم والاقتباس من الالحان الافرنجية ، وأخذ المغنون العرب فى عدة أقطار عربية يركبون أغانى طريفة على تلك الالحان المستطرفة المقتبسة وأخذت الاذواق الموسيقية العربية تتربى على تحسس وتلذذ واستعذاب جديدة ، وهذا شىء محسوس مسموع مسجل لا يمكن انكاره ، الا ان منهم من يبالغ فى ذلك فيخرج عن أسلوب التدرج والتطور محاولا الطفرة الخطرة .

ومع ذلك فالدقيق النظر فى موسيقانا العربية يرى عجزا فى آلاتها

وكسلا في تلحينها ، وتراخيا في تطويرها ، وقلة في الوانها «المجسدة» المكتوبة بالنوطة ، حتى لقد اعتاد كثير ممن ينشدون الاشعار الرقيقة في دور الاذاعات أن يرسلوا انشادهم بموسيقى افرنجية لان الموسيقى العربية لم تصل الى حد مرافقة الاناشيد الشعرية في الرقة والتلون والاداء العاطفي ، وانه لمن المستغرب جدا أن ينشد شعر عربي على موسيقى افرنجية ، لان ذلك قد تجاوز حد الاقتباس ورمي الموسيقى العربية بالعقم والجفاء ، فعسى أن ينتبه العرب الى هذه النزعة الخطرة من الاعتراف بعجز الموسيقى العربية عن الاداء العاطفي في مراسلة الشعر المنشد والقصيد المردد ، ويتلافوا هذا النقص الذى ان يدم يصبح خطرا على الموسيقى العربية ، وينبغي في الاقل المزج بين الموسيقى الافرنجية والموسيقى العربيةلاستدراج الاسماع واستهواء الطباع وتطوير الاذواق بتطوير الموسيقى على وفق قانون التطور الذى يطبق على جميع أمور الحياة ٠

وقال الاستاذ محمد القبانجي :

اود اولا ان اقدم جواب فقرة على أخرى في سوءالكم ٠ فبقدر ما يتعلق الامر بتراثنا الموسيقى العربي اقول جازما بلا تردد ولا تحفظ ان في تراثنا الموسيقى وفي دنيا موسيقانا العربية ما يصلح اساسا صلدا لبناء موسيقى شامخ نستطيع أن نجعله يواكب تطورات الحياة وتقدمها ٠

ونحن ــ وهنا اجيب على الفقرة الثانية من السوءال ــ اذا ما اتخذنا من هذا المنطلق اساسا استطعنا ان ننهض بفننا ونجعله قادرا على أن يتخطى الحدود ويحتل مكانته العالمية ٠

بقي ثمة سؤال ، كيف نستطيع ان نحقق ذلك كله ؟!

في رأيي ان لذلك وسائل تنهض بأغلبها الدولة ٠ فالموسيقى من حيث الاساس هواية قبل كل شيء ٠ والهاوى الذى يتأصل فيه الحس الموسيقى يتجه ــ شاء ام ابى ــ الى هذا الفن ، وهو ان وجد الطريق ممهدة سار على الدرب ووصل ، وان اعترضته العقبات نكص وتراجع ٠

ولئن مهدت الظروف الطرق امام البعض فقد وقفت حجر عثرة امام الآخرين ٠ وللمضرورات أحكام ، ولطالما اضطرت الظروف فنانا أصيلا على الابتعاد عن اجواء الفن وخنق احساساته ووأد مواهبه ٠

ثم ، هناك مشكلة أخرى ، تتمثل في وسائل تعليم الهواة وتطوير مواهبهم ومرة اخرى تبرز مسوءولية الدولة في انشاء المعاهد الموسيقية وفتح النوادى وتشجيع الملكات ٠

الخلاصة ، ان تراثنا خصب غنى معطاء ٠ ونحن نستطيع ــ ان اخلصنا النية وصدقنا العزم ــ ان نحقق لحاضرنا الكثير ٠

وأجاب الشيخ جلال الحنفي :

أعتقد ان الموسيقى العربية حرية باحتلال المكانة الرفيعة في دنيا

الموسيقى العالمية وذلك لما في جوهرها من الحيوية الفنية ، وما فى عرضها من التعبير الصادق والاداء السليم ..

ونحن لو القينا نظرة على الجمهرة العظيمة من التلاحين الشائعة في البلاد العربية لوجدناها ذات شأن وذات بال ، فان أنغاما تتأتى منها هذه الآلاف المؤلفة من الضروب الموسيقية والاغانى والمقامات والعتابات والبستات والاناشيد وأشغال المولد وما الى ذلك من اقحام هذه الانغام فى العبادات وتلاوة الذكر الحكيم لهى ذات أهمية طبيعية ينبغى أن يعتد بها ..

غير أن شيئين يقعدان في طريقها الى ما تصبو اليه من نهوض وسبق ، هما ضعف ثقافة أصحاب هذه الصناعة أولا ، وندرة الاصوات الصالحة للتعبير الموسيقي ثانيا ، فلو عولجت هاتان النقطتان بانشاء معاهد للتثقيف الموسيقي لتأتى لنا ان نتوقع للموسيقى العربية ما نتمنـاه لها من احتلال مكانتها في دنيا الموسيقى العالمية ..

وهناك نقطة اخرى هي ان اصول الموسيقى العربية وجذورها لم تتبين بعد على الوجه المفصل المستبين ، وذلك ان الثروة الموسيقية التى كانت تغمر أجواء بغداد على عهد الرشيد — مثلا — ما تزال سرا غـامضا ، فلو اتضح أمر هذا السر بعض الاتضـاح لجعلنـاه مدارا لموسيقانـا العربيـة المعاصرة .. وعلى اية حال من الاحوال فان مسألة الموسيقى فى رأيى تعتمد على الاحاسيس المحلية فلقد يطرب بعض الاقـوام لنغم لا يطرب الآخـرون لمثله ، وان كثيرا من اهل الشرق مثلا لا يطربون لموسيقى اهل الغرب ، وقديما قال « اخوان الصفاء » فى رسائلهم « انك تجد اذا تأملت لكل امة من الناس ألحانا ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذ بها غيرهم ولا يفرح بها سواهم ، مثل غناء الديلم والاتراك والاعـراب والارمن والزنـج والفرس والروم وغيرهم من الامم المختلفـة الالسن والطبـاع والاخـلاق والعادات ... » والمهم بالنسبة الينا آن نؤمن بأهمية موسيقانا ونحفل بما عندنا من ألحانها وآلاتها ، ثم نعمد الى صقلها وابراز محاسنهـا واجتلاب الحناجر الطيبة اليها وتهذيب ملفوظاتها ، وتطعيمها بما لا ينبو عنها او تنبو عنه من لحون الامم الاخرى اذا كانت مستملحة طيبة المذاق والنكهة ، وقد كان ذلك دأب الموسيقى العربية من قبل فانها لم تتحرج من تلقف النغـم الغريب وتدجينه وتطبيعه ، حتى زالت هجنته وتعربت عجمته ..

وهذا فى الحقيقة يعتمد على ثقافة مغنينا ومواسقتنا على أن تكـون تصرفاتهم فى هذا الوجه سليمة من شوائب الكفر بقيمنا الموسيقية العربية التى ينبغى الحرص عليها وحمايتها .

وقال الاستاذ عبدالكريم العلاف :

يريدون مني أن أكتب ! ويريدون مني أن أقول !

فماذا أكتب ؟ وماذا أقول ؟ و (لمجلة الأقلام) العذر ان لم تكن تدري

انها تثير في صدري دفائن غيظ طمرتها الأيام وأنا أعلم مع الاسف الموجع ان موسيقانا منسية عن عمد مهين ، وان الظروف القاسـيـة والداء المزمن جعلتني لا أقول عنها شيئا ، ولا أبر بها وهي التي أرضعتني من لبانها وانعشتني بأنغامها ، ولكن نزولا عند رغبة (مجلة الأقلام) وتلبية لطلبهـا اقـول :

بغداد البلد الامين ، والوطن الغالي ، على أرضه الطاهرة نشأنا ، ومن ثماره الطيبة تغذينا ، ومن مائه العذب ارتوينا ٠

لهذا البلد الواسع من جمال الطبيعة وروعة التكوين ماحبب فيه الناس واستهوى اليه القلوب ٠

سماء مشرقة ، وجو صاف ، وأرض كريمة تؤتي اكلهـا كل حين مما ينبت الزرع ، ويروي الضرع ، ويحي النفوس ٠

بغداد مهبط المدنية الاولى ، ومشرق العالم القديم ومنبت الحضـارة الزاهرة ، ومركز دائرة الموسيقى الخالدة ٠

اذا ذكرتها واستمعت الى مقام (الابراهيمي) لابد انك تذكر (ابراهيم الموصلي وولده اسحق) اللذين أخذا بضبعي الغناء وطارا به في سماء الفن ٠

واذا قلت دار السلام وسمعت بها مقام (المنصوري يتبادر الى ذهنك (منصور زلزل) ذلك المغني الذي امتاز بالمواهب الفنية حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء ٠

لقد نالت بغداد بفضل هؤلاء مقاما رفيعا في الغناء واحتلت المرتبةالاولى بين نظائرها في العالم ٠

بغداد كلها موسيقى ، تسمعها في كل منزل رحب ، في كل نافذة وقصر مشرف على (دجلة) ، في كل حانة ، في كل مجتمع انس ٠

بغداد لا تعادلها مدينة اخرى بين مدن الارض ٠

مدينة لها عاطفة موسيقية ففي كل مكان تسمع الغناء وترنم الأوتار حتى أصبح من الصعب الحكم على هذه الموسيقى أهي تسربت من المنـازل والقصور الى الحانات ؟ أم من الحانات الى القصور والمنازل ؟

ظلت بغداد تعج بالموسيقى حتى كل من آنس في نفسه قدرة على شيء منها يؤمها ليجرب حظه فيها ! ولهذا استقر فيها الموصليان وبرز فيها (زلزل) وغيرهم ، ولولا استقرارهم في بلد الموسيقى واستيطانهم في ربوعه ما عرفهم العالم ولأسدل التاريخ عليهم ستر النسيان ٠

هذا مجمل ماكانت عليه الموسيقى في عصـر الخلفاء العباسيين ، ولو أمعنـا النظـر في الموسـيقى اليـوم لاسـيما في مصـر ، لرأيناهـا تخطو خطوات واسعة تاركة وراءها (التواشيح والأدوار) باصولها متجهة الى الامام آخذة بالانتشار وفي حركات كبيرة من حركات الانتقال والتطور ، لأن الفكرة الموسيقية فيها تهذبت وارتقت الى حد بعيد وان الناس كلهـم

أصبحوا في حاجة الى تغذية أرواحهم وقلوبهم حاجتهم الى تغذية أبدانهم ٠

اسمع طبول البشائر تدق في جميع البلاد العربية مبشرة بالرقي سواء في الحياة المادية أو الحياة الأدبية والفنية ، وهذا الدليل الساطع على النهوض والتقدم ومبلغ ادراك الحقائق مما يبرهن على ارتقاء الفنون وبالأخص الموسيقى العربية ٠

أما عندنا في بغداد فلا تزال الموسيقى في بدء نهضتها ونشاطها الفني والفراغ لا يزال حولها وسيما سيما فيما يتعلق بأغانينا الحاضرة في مختلف حالاتها وأدوار اصلاحها ٠

لنترك أغانينا وما هي عليه من تقدم بطيء ، ولنتكلم عن تراثنا الموسيقي (وهل فيه مايصلح أساسا للنهوض بموسيقانا) ؟

أجل ٠٠٠ لدينا تراث ثمين ، وثروة طائلة ، وكنز مطمور ، لدينا (المقامات العراقية) العريقة بوضعها ، الوحيدة بأنغامها وألحانها ، العجيبة بنبراتها واصولها ٠

(المقامات العراقية) لئن اجتمعت أقطاب الموسيقى في العالم على أن يأتوا بمثلها لعجزوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٠

(المقامات العراقية) هي الأساس المتين لتشييد صرح موسيقانا عليه والنهوض بها الى هدفنا المنشود ٠

تعالوا لنفحصها جيدا ، تعالوا لنسبر غورها ونستخرج منها مايليق أن يكون سلما نرتقي به الى قمة الفن ٠

تعالوا لنفتش عن حيثيات (أي ذوات أصوات) صالحة ، تعالوا لنعلمهن الشعر الفصيح ضمن الموسيقى العراقية ، ثم استمعوا كيف سيكون الغناء المتطور ٠

والذي لا أشك فيه أن بين جدران بيوت بغداد ماعدا (القيان) فتيات مثقفات شغفن بالغناء وتعلقن به !

فتشوا عنهن وعلموهن الشعر والموسيقى واحيوا بهن ذكرى مغنيات العصر الذهبي أمثال المغنية (بصيص) التي قال فيها ابن ابي الزوائد : ٠

بصيص[1] أنت الشمس مزدانة	فان تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا	فيما مضى كيف يكون الجمال
اذا دعت بالعود في مشهد	وعاونت يمنى يديها الشمال
غنت غناء يستفز الفتى	حذقاً وزان الحذق منها الدلال

(١) بصيص جارية الخليفة المهدي العباسي ولدت منه علية بنت المهدي ٠

ودنانير التي قال أبو حفص الشطرنجي فيها :

هذي دنانير تنســـاني فأذكرها — وكيف تنسى محبا ليس ينساها
والله والله لو كانت اذا بــرزت — نفس المتيـم في كفيـه ألقــاها

وعبيدة الطنبورية التي قيل فيها :

أمست عبيدة في الاحسان واحــدة — فالله جار لهــا من كـل مخطور
من أحسن الناس وجهاً حين تذكرها — وأحسن النـاس ان غنت بطنبور

هذا رأيي فهل من سامع وهل من مستجيب ، قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ·

وأجاب الاستاذ زكريا يوسف قائلا :

لاشك واننا حققنا نهوضا وتطورا في مختلف المجالات ، ومن الضروري ان تعمل على تطوير موسيقانا العربية لتساير هذا التطور · من ذلك مثلا : انه قد اصبح لنا جيشا منظما عصريا ، والجيوش المنظمة تحتاج الى الآلات الموسيقية مثل حاجتها الى سائر المعدات الحربية ، لان الموسيقى هي وسيلة تنظيم أيضا ، وهنا تظهر حاجتنا الى ايجاد الانواع من الالحان التي تلائم التنظيم وبث روح الحماس ، وايجاد الآلات الموسيقية التي تستطيع اداء هذه الالحان التي تتسم بالقوة ، بان تكون ذات كفاية صوتية قادرة على ايصال أصواتها الى الآذان في الساحات والاماكن ذات المسافات الكبيرة ·

ولغة الموسيقى العربية ليست عاجزة عن امداد المؤلف بمثل هــذه الاصوات القوية ، ولكن آلات الموسيقى العربية الحاضرة عاجزة عن اداء مثل هذه الاصوات · فالعود والناي والقانون والدف مثلا هي من الآلات ذوات الاصوات الناعمة التي تستطيع ان تؤدي مهمتها في حدود معينة من التعبير الموسيقي ، وداخل مساحات صغيرة كالغرف والصالونات ، فــلا يمكن استعمالها في فرقة موسيقى عسكرية ، كما ان عزف الالحان القوية بها مما يضعف هذه الالحان ويفقدها قوتها التأثيرية ، فهي لا تصلح لكل الالحان ·

ولعل الدكتور مصطفى جواد خير من وصف هذه الظاهرة بالابيــات الشعرية التالية في آلة العود وهي :

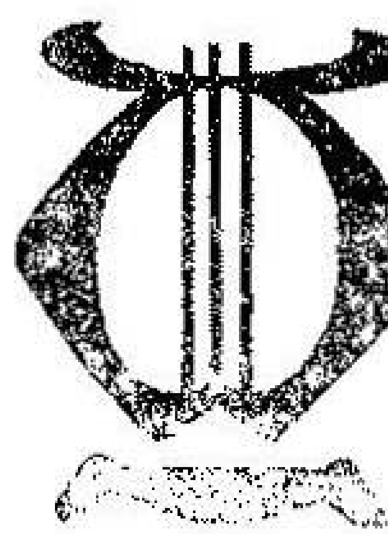
شيخ المعــازف طـول عمره — اعصـابه من فـوق نحــره
يبـكي فيصـمت فجــأة — فـكأن حشـرجة بصـدره
شــيخ يقـاوم دهــره — للآن لـم يظفـر بنصـره
هــل ريشة العـواد اذتــه — فبـدد كـل صبره ؟
ضربــوا بــه كـل اللحـون فيا لــه جهلا بأمره

ومن هذا يتبين اننا بحاجة الى ايجاد الآلات الموسيقية القوية باصواتها والتي باستطاعتها التعبير عن القوة ٠

وقد أخذنا هذه الآلات من الغرب ، وكان بطبيعة الحال ان نأخذ معها ألحان الغرب ، لان هذه الآلات مصممة ومصنوعة لتؤدي النغمات التي تؤلف منها ألحانهم ، وموسيقانا تحوي بعض النغمات التي لا تحويها موسيقاهم ـ مثلما لغتنا تحوي من حروف الهجاء ما لا مثيل لها في لغتهم ـ لهذا فعلينا ان نطور هذه الآلات لتتمكن من أداء ألحاننا بدقة ، وهذا مثل واحد من أمثلة كثـــيرة ٠

وصناعة الآلة الموسيقية لا تختلف عن صناعة أي آلة أخرى ، وهذه تتطلب العلم والمعرفة ، والموسيقى تمتاز عن بقية الفنون بكونها علما الى جانب كونها فنا ٠

فاهم المقومات ـ في نظري ـ التي تجعل الموسيقى العربية تحتل مكانتها في دنيا الموسيقى العالمية هو العلم والعلم وحده ، فعندما يصبح المشتغلون بالموسيقى عندنا بنفس المستوى الثقـــافي للمشتغلين بالطب والهندســـة والأدب ـ مثلا ـ فستنهض وتتطور موسيقانا حتما ، وتراثنا غني بالمـــادة اللازمة لمثل هذه النهضة وهذا التطور المنشود ٠



نوى

نعمان ماهر

سائل الانسام هبّت بالخزامى   نشقتها أم تجافتها الندامى

وارو لي عنها حديثاً فلكم   حنّت النفس الى دار أمامى

يا لقلب بالنوى ممتحن   أيظل العمر صبّاً مستهاما

عمرك الله لقد بات اللقا   حلُماً يخفق شوقاً وهياما

لك بغدادُ على بعد المدى   آهة يزفرها الصدر ضراما

أشجت الفيحاء في لوعتها   فحنت تسبغ بشراً وابتساما

وأست شتى جراحٍ أوغلت   كنّ لولا قلبها الحاني سقاما

* * *

يا أحباي وقد أمسى الهوى   بعدكم سهداً وآمالاً يتامى

هل لليل البعد فجر فلقد ... ضقت بالليل ظلاماً وظلاما

أنا لولا كبرياء عصمت ... لأحل الشوق من سري حراما

عذر الصبر لكم حملني ... فتماسكت حفاظاً وذماما

* * *

فانقلي عني ، نسيمات الدجى ، ... واحملي للكرخ نجوى وسلاما

خبّري النخل الذي يحنو به ... عن حنين علّم السهد الشآما

واذا ما سئل (النادى) فلا ... تكشفي عن حرقة تخفي الملاما[1]

بل فقولي لنجوم بعدت ... هكذا يحتمل النادى الظلاما ؟!

هكذا ينطفىء الزهو به ... ويعود الألق الصافي قتاما

ويطوف اليأس في أرجائه ... سائلا أين مضى عنه الندامى ؟!

وعلى دجلة من جانبه ... كدر يحمل طيناً وركاما ؟!

يا لك الله على هذا الدجى ... مطبقاً لف جراحاً وسهاما

سئم الصبر أما من هبة ... لك بغداد تهز ين النياما ؟!

في تموز ١٩٦١

---

(١) المراد به النادى العسكرى .

الآثار المخطوطة في النجف

- ٢ -

علي الخاقاني

سبق ان قرأتم قسم التراجم والرجال، والان نقدم قسم الادب والشعر :

١ ـ أسماء الاضداد :

رسالة صغيرة ، تأليف أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الباهلي الدينوري المتوفى ٢٧٦ هـ ، بخط علي نقي الرضوي فرغ منه عام ١٢٥٣ هـ ٢٥/٧سم ١٤/٤سم رقمه ٩٧ ٠

٢ ـ اسماء الاضداد :

تأليف ابي منصور عبدالملك بن اسماعيل النيسابوري المعروف بالثعالبي المتوفى ٤٣٠ هـ ، يوجد ضمن الكتاب المتقدم وبالتعريف نفسه ٠

٣ ـ تعليقة على شعر امرىء القيس :

للشريف المرتضى علم الهدى المتوفى ٤٣٦ هـ في تسع صفحات ، ضمن المجموع المرقم ٩٧

٤ ـ تلخيص علم العروض :

تأليف الميرزا غلام علي بن محمد بن عبدالكريم الهروي مولدا ، الحائري مسكنا فرغ من تأليفه ليلة ٢٢ رمضان ١٢٧٣ هـ رتبه على مقدمة وفصول وخاتمة ٠ بخط عبدالباقي بن الحاج هاشم العطار ، فرغ من كتابته في أواخر شهر رمضان من عام ١٢٨١هـ في ١٠٧ ص ، ١٧ س ، ١٧/٩سم ، ١١سم ، ٧سم ، برقم ٨٧ ٠

٥ ـ حماسة الظرفاء من شعر المحدثين والقدماء :

تأليف أبي محمد عبدالله بن محمد العبدلكاني الزوزني ٠ اشتمل على ١١ باباً (١) في الحماسة (٢) في المراثي (٣) في الادب والحكمة ، (٤) في الكبر والمشيب (٥) في النسيب والملاهي (٦) في الهجاء (٧) في المديح (٨) في الاستعطاف (٩) في الاضياف والسخاء واصطناع المعروف (١٠) في الصفات (١١) في الملح ٠ بخط صاحب الحصون فرغ من كتابته في استانبول

يوم الجمعة ١٩ رجب ١٣١١هـ في ١٩٦ ص ٢٣ س ٢٢/٢سم ، ١٥/٢سم ، برقم ١٩٨ دواوين ٠

٦ ـ خبايا الزوايا ، فيما للرجال من البقايا :

تأليف شهاب الدين احمد الخفاجي المصري المتوفى ١٠٦٩ هـ أوله (حمداً لك اللهم يطوق جيد البلاغة نظيم عقوده) ذكر فيه ادباء عصره من شيوخه وشيوخ أبيه من المتقدمين كصاحب الذخيرة ، وقلائد العقيان ، واليتيمة ، والدمية ، وعقود الجمان ، ورتبه على خمسة أقسام (١) في رجال الشام (٢) في رجال الحجاز (٣) في رجال مصر (٤) في رجال المغرب (٥) في رجال الروم ٠ والخاتمة في نظمه ونثره ٠ بخط مؤسس المكتبة صاحب الحصون ، في ٤٢ ص ٢٠ س نقص من آخره ، ٢١/٢سم ١٥/٢ سم ، ٣/٦ سم ، برقم ١٩٨

٧ ـ خلق الانسان :

أي في أسماء اعضائه وصفاته ، تأليف أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الزجاج النحوي المتوفى ٣١٠ هـ ، يوجد ضمن مجموع برقم ٩٧ في ٥٠ ص ١٢ س

٨ ـ خواص البردة :

الاصل للبوصيري ، والشرح للشيخ عبدالسلام ٠ بخط ياسين بن كنعان الشافعي فرغ من كتابته ضحى يوم الخميس ٣ صفر ١٢٦٩ هـ في ١٢ ص برقم ٢ مجاميع ٠

٩ ـ ديوان الصبابة :

لشهاب الدين أبي العباس احمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبدالواحد المغربي الشهير بابن أبي حجلة المتوفى ٧٧٦ هـ ، جمع فيه اخبار أهل الغرام ، ومن قتله الهوى وهام ٠ رتبه على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة ، نقص من آخره ، في ٤٠٧ ص ١٥س جيد الخط ، ٢١سم ، ١٣/٥سم ، ٣/٣سم برقم١٣٦ دواوين ٠ طبع بمصر مستقلا ، وعلى هامش كتاب تزيين الاسواق ٠

١٠ ـ ديوان أوحدي :

لشاعر عرفاني ، باللغة الفارسية ، مرتب على الحروف ، لم يوجد عليه تأريخ ، في ٦٤٩ ص١٨س ، ٢٢سم ، ١٧سم ، ٣/٩سم برقم ٦١ دواوين ٠

١١ ـ ديوان حاتم الطائي :

الجواد العربي المكنى بأبي سفانة ، وبأبي عدي ، توفى قبل الاسلام وذلك عام ٨٤٠ لغلبة الاسكندر ، ودفن بجبل (العوارض) ٠ بخط صاحب الحصون في ٤٠ ص ٢٣ س ، ٢١/٢ سم ، ١٥/٢ سم ، برقم ١٩٨ دواوين ٠

١٢ ـ ديوان الحسين بن الحجاج :

لابي عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج الكاتب البغدادي المتوفى ٣٩١ هـ ، نقل ان ديوانه يقع في عشرة اجـزاء ، ولم يوجد كاملا ، بل وجد منه الجزء السادس والثامن بخط عمر الموصلي كتبه عام ٦٢٠ هـ ، وفي عام ١٣٤٢ هـ زار النجف أمين الخانجي فطلب من صاحب المكتبة الشيخ علي كاشف الغطاء أن يطبعهما فقدمهما اليه ، غير انه لم يبر بالوعد ، وبعث بدلهما نسخة مصورة ٠ وقد نسخ الشيخ محمد السماوي هذين الجزئين السادس في ٢٢٨ ص فرغ من كتابته عاشر رمضان ١٣٥٣ هـ والثامن في ٢٢٤ ص ٢٦ س ، ويوجد الجزء الثالث بمكتبة الاستاذ صالح الجعفري ٠ ويوجد منه نسخة بباريس برقم ٥٩١٣ وبهـا مقدمة لابن الخشاب النحوي ٠ وقد انتخب الشريف الرضي قسماً من الديوان واسماه (الحسن من شعر الحسين) ، ورتبه البديع الاسطرلابي هبة الله بن الحسن المتوفى ٤٣٤ هـ على ١٤١ باباً وجعل كل باب في فن من فنون الشعر واسماه (درة التاج في شعر ابن الحجاج) ، ويوجد قسم من ديوانه (حرف الدال) بأجمعه في المتحف البريطاني ، وبعض رائياته ٠

١٣ ـ ديوان الساعاتي :

للشاعر محمود افندي صفوت الشهير بالساعاتي المتولد بالقاهـرة ١٢٤١ هـ جمعه الاستاذ عبدالحميد بن نافع عام ١٢٧٦ هـ ، بخط صاحب الحصون فرغ من كتابته يوم الخميس رابع جمادي الاولى ١٣١٢هـ في ١٠٨ ص ٢٠ س ، ٢١/٢ سم ، ١٥/٢ سم برقم ١٩٨ مجاميع ٠ رتبه على ثمانية ابواب (١) في المديح وتأريخ ولادات الرجال والابنية في استانبول (٢) في الغزل والنسيب (٣) في الملح والظرف (٤) في الرجاء والاعتذار والتحريض والاستنجاز والاستعطاف (٥) في العتاب والشكوى (٦) في الرثاء وتاريـخ وفيات الرجال (٧) في الهجاء (٨) في الانشاء ٠

١٤ ـ ديوان الشيرازي :

للسيد أبي الحسن علي بن أحمد نظام الدين بن محمد بن معصـوم بن احمد بن ابراهيم الحسيني صاحب (سلافة العصر) المتوفى ١١١٩ هـ رتبه على حروف المعجم ، في ٢٣٨ ص ١٦ س ، ٢٠/٥ سم ، ١٤/٩ سم ، ٢/٤سم ، برقم ٧٢ دواوين ٠ ويوجد بمكتبة السماوي برقم ٤٠ ، وبمكتبة السيد شبر بن السيد عدنان الغريفي بخط والده في البصرة ٠

١٥ ـ ديوان طائر :

من نظم الشاعر المعروف سعدي الشيرازي ، باللغة الفارسية ٠ اوله : (الحمد لله مطلع انوار الوجود ، ومقطع الوجود لكل موجـود ، بديـع السموات والارض ، ناظم عوالم الامكان بعضها مع بعض) صدره بمقدمة

ضافية وافية عن محتويات الديوان والخواطر التي سجلها في شعره ، ومدح فيه طائفة من أعلام المتكلمين والفلاسفة ، في ٤١٠ ص١٥ س ، ٢١سم ، ١٤/٩ سم ، ٢/٩ سم ، برقم ٦٤ ، ترجمت له في كتابي (شعراء بغداد) ٠

١٦ ـ ديوان الطالقاني :

للعالم الشاعر السيد موسى بن السيد جعفر الطالقاني المتوفى ١٢٩٨ هـ رتبه على الحروف ، يقع في ٤٠٠٠ بيت ، شارك في كتابته ثلاثة من الخطاطين آخرهم صاحب الحصون ، في ٢٤٠ ص ١٥ و ١٨ س ، ٢١/٥ سم ، ١٦/٥ سم ، ٢ سم ، برقم ٦٩ ٠ ترجمت له في ج ١١ من كتابي (شعراء الغري) ٠ طبع في النجف باعتناء احد احفاده السيد محمد حسن الطالقاني ٠

١٧ ـ ديوان العشاري :

للشاعر الطبيب حسين بن علي بن حسن بن فارس العشاري البغدادي المتوفى ١١٩٥هـ ٠ كفل فيه مدائح النبي (ص) والصحابة وأهل البيت (ع) والملوك والامراء ، في ١٣٠ ص ١٧ س ، ٢١/٥ سم ، ١٥ سم وبضمنه تشطير قصيدة البردة أيضاً له ٠ يوجد منه نسخة في مكتبة الآثار العامة ، واخرى في مكتبة المرحوم السيد هاشم الالوسي ، وبضمنها عدة (بنود) له أيضاً ، نأتي على وصفهما عند حديثنا عن مكتبات بغداد ٠

١٨ ـ ديوان عفيف الدين الدمشقي :

للشيخ عفيف الدين حسين بن الشيخ رجب الدمشقي الامامي ٠ وبضمنه :

١ ـ قصيدة بقافية التاء في ٩٠٩ بيت له ، أسماها : النصيحة الخالصة الشفيقة ، في الحذر من اوصاف ذوي العلم والطريقة ٠ في ٤٤ ص ٠
٢ ـ مجموع فيه مقطوعات وقصائد لمجموعة شعراء في ٣٦ ص ٠
٣ ـ قصيدة كبرى للشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب القرشي الدمشقي أسماها (نفحة القبول في مدحة الرسول) في ٢٠ ص ٠

كتب المجموع بخط محمد بن علي الطرابلسي في اوائل ذي العقدة عام ١١٠١هـ ٢٠/٩سم ، ١٥سم ، ٢سم ، برقم ٨٦ ، أما الديوان فيقع في ٧٤ ص بالتعريف نفسه ٠

١٩ ـ ديوان المؤمنين :

تأليف الحاج عيسى بن حسين بن علي كبه البغدادي من رجال أوائل القرن الثالث عشر الهجري ٠ انتخب فيه روائع الشعر الحكمي والاخلاقي والعرفاني ، رتبه على الحروف ، في ٣٢٤ ص ٢٦ س ، ٢٠/٩ سم ، ١٥ سم ،

والديوان المتداول منسوب الى الامام علي (عليه السلام) ، فقد عري عن الرواية والمصادر ، غير ان فريقاً من الاعلام اندفعوا الى جمع ما هـو صحيح من شعر الامام ، منهم :

١ ـ الشيخ أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى الشهير بالجلودي المتوفى ٣٣٢ هـ ٠

٢ ـ ابو الحسن علي بن أحمد الفنجكردي النيسابوري جمعه في نحو مائتي بيت ٠

٣ ـ ابو البركات هبة الله بن محمد الحسيني الشهير بابن الشجري ٠

٤ ـ ابو الحسن محمد بن الحسين بن الحسن البيهقي المعـروف بالقطب الكيدري من أعلام القرن السادس الهجري أسماه (الحديقة الانيقة) وفيه يذكر انه جمعه قبل وقوفه على مجموعة ابن الشجري ٠ وجمعه مرة أخرى بعد وقوفه على مجموعة من كتب السير والتواريخ ، وأسماه (انوار العقول فـي اشعار وصي الرسول) ٠

٥ ـ السيد محسن الامين العاملي صاحب الاعيان ٠ جمعه من مصادر يعول عليها ، وطبعه في الشام ، وكرر طبعه في النجف ٠ والديوان المنسوب طبع أكثر من ثلاثين مرة في كل من مصر والهند وايران والعراق ولبنان ٠ ولدي دراسة مستفيضة عن بعض المقطوعات المشهورة للامام تقع فـي ستين صفحـة ٠

٢٥ ـ شرح ديوان المتنبي :

لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المتوفى ٣٩٢ هـ أوله بعد البسملة (قال ابو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي المتنبي :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني ... وفرق الهجر بين الجفن والوسن

وفي آخره وقف على هذا البيت :

سنان في قنـاة بني معـد ... بني اسد اذا دعوا النـزالا

ومنه يظهر أنه نقص آخره ، كما يظهر منه انه لم يرتب على الحروف لاختلاف وضع القصائد ٠ وهو مخطوط قديم كتب في القرن السادس الهجـري ٠ والشرح قيم جداً ، فقد ذكر ابن جني في اجازته للحسين بن احمد بن نصـر قال : وكتابي في تفسير ديوان المتنبي يقع في الف ورقة ونيف ٠ يقع هـذا المخطوط في ٢٧٤ ص ٢١ س ، ٢٤/٩سم ، ١٦/٥سم ، ٣سم ، برقم ١١٦ دواوين ٠

٢٦ ـ شرح القصيدة البسامية :

الاصل والشرح للسيد الشريف صارم الدين ابراهيم بن محمد بـن عبدالله بن الهادي العلوي اليمني الزيدي المتوفى ١٠٤١ هـ ضمنه تأريخ ما

قبل الاسلام واليمن ، بخط يقرب من عصر المؤلف ، في ٢٤ ص ، برقم ٣٠ تراجم ٠

٢٧ ـ شرح القصيدة الرحبية المجنسة :

تأليف محمد بن أحمد البهتي الاسفراييني ، أوله : (الحمد لله الذي خص نوع الانسان بالفصاحة والبيان) في ٤٤ ص ١٥ س ، تأريخ كتابته غرة رمضان عام ١١٣٠ هـ ، برقم ١٨ مجاميع ٠

٢٨ ـ شرح قصيدة الفندرسكي :

الاصل للامير أبي القاسم الفندرسكي ، والشرح لمحمد صالح الخلخالي وكلاهما بالفارسية ، بخط رجل يدعى (عباس) فرغ من كتابته يوم الثلاثاء سلخ ذي القعدة ١٢٥٥ هـ في ٣٨ ص برقم ١٣ مجاميع ٠

٢٩ ـ شرح لامية العجم :

الاصل لأبي اسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبدالصمد الاصفهاني الملقب مؤيد الدين والمعروف بالطغرائي المتوفى ٥١٤ هـ نظمها عام ٥٠٥ هـ ببغداد ، والشرح لجمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي المتوفى مسموما بالهند عام ٩٣٠ هـ أسماه (نشر العلم في شرح لامية العجم) اوله : (الحمد لله الكريم المنان) وقد وقف فيه على شرح الصفدي فوصفه بقوله : ان الصفدي شرحها فاوعى فيه ، وأوعب وأطنب وأسهب وأعجب وأغرب ، وأطلق اعنة الاقلام ، وجر اذيال فضول الكلام ، واسهل وأوعر ، وأنجد وأغور ، واستطرد من فنون الى فنون ، واسترسل في شجون الجد والمجون ، حتى صار ذلك التطويل ، سببا للعجز عن التحصيل ، هذا مع ما خرج فيه عن الحد ، وطغى الماء في المد ، من مستهجنات هزله ، التي لا تليق بقلمه وفضله ، بما لا يحل ذكره وايداعه ، بل تخل بالعدالة روايته وسماعه ٠

المخطوط قديم يرجع الى عهد المؤلف ، يوجد برقم ٧١ أدب ، في ١٤٠ ص ٢٣س ، ٢٦/١سم ، ١٨/١سم ، ٢/٢سم ٠

٣٠ ـ شرح المعلقات السبع :

لأبي الفتح عثمان بن جني النحوي المتوفى ٣٩٢ هـ ، استوفى فيه الموضوع ، بخط قديم ، نقص خطبة الكتاب واول بيت من معلقة امرىء القيس ، وفي الآخر موجود الى آخر قصيدة النابغة الذبياني ، في ٢٣٤ ص ١٧ س الاصل بالمداد الاحمر ، والشرح بالمداد الاسود ، ١٩/٥ سم ١٤ سم ، ٢/٥ سم برقم ٦٣ ٠

٣١ ـ شرح مقصورة ابن دريد :

لأبي عبدالله الحسين بن أحمد الشهير بابن خالويه النحوي المتوفى ٣٧٠هـ شرح فيه مقصورة ابن دريد الازدي المتوفى ٣٢١هـ ٠ أوله : (قال أبو عبدالله الحسين بن خالويه ، بحمد الله ابتدء في تعريب قصيدة محمد

بن دريد رحمه الله) بخط صاحب الحصون فرغ منه صبيحة يوم الاربعاء ٢٦ شعبان ١٣٣٧هـ في النجف ، قابلهـا على نسخة كتبت عام ١٠٠٠هـ ، في ٣٤٢ ص ١٨ س ، ٢١ سم ، ١٦سم ، ٢/٩سم وتوجد بمكتبة الامام علي (ع) في الصحن الحيدري بخط ابن خالويه وقد تخرقت لاهمال السادن ومديرية الاوقاف ٠ وتقع المقصورة في ٢٢٩ بيتا طبع ضمن مجموع في مطبعة الجوائب عام ١٣٠٠ هـ ، وفي طهران ١٨٥٩ م وطبع مع شروح في كوبنهاغن عام ١٨٢٨ م في ٨٨ ص والملاحظات في ٦ ص والمقدمة في ٤٥ ص

٣٢ ـ شوقي الى بغداد :

للعلامة الشيخ علي صاحب الحصون صاحب المكتبة ، رسالة يتشوق فيها الى مدينة بغداد وعهود له سلفت بها ٠ فرغ من تأليفه ليلة الاثنين ١٧ جمادي الاولى من عام ١٢٩٩ هـ في ٢٠ ص ٠ توجد ضمن مجموع برقم ٩٢ لغة

٣٣ ـ صدح الحمام في مدح سيد الانام :

للشاعر الشيخ محمد صالح الهلالي ، يقع في ٢٩ قصيدة مرتبة على حروف المعجم، كل قصيدة تخص حرفا ، ويبدأ الى نصف القصيدة بالنسيب، والنصف الثاني في المدح ، ومجموع أبيات الديوان ١٥٠٠ بيتا ، يلحقها سبعة عشر بيتا لمختلف الشعراء ضمنها خلال شعره ، في ١١٤ ص ١٥ س وفي آخره قسم من شعره جمعه بعض الادباء في ٣٨ ص ٠ أوله : (نحمدك اللهم يا من نظم جواهر حكمته في أسلاك الكائنات ، ورقم بأقلام قدرته ودلايل توحيده على صفحات الممكنات) ٠ ويضمنه قصائد الشاعر عبدالباقي العمري المعروفة بـ (الباقيات الصالحات) ، ١٦/٥ سم ، ١١/٥ سم ٢ سم برقم ١٠٨ دواوين ٠

٣٤ ـ فتيا فقيه العرب :

تأليف احمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي المتوفى ٣٩٥هـ ٠ في ٢٠ ص ٢٥/٧ سم ، ١٤/٤ سم ١/٣ سم برقم ٩٧ أدب ٠

٣٥ ـ الفرق بين الضاد والظاء :

منظومة لأبي العباس احمد بن أبي المكارم المقري الواسطي ، في ٦٣ بيت بحر الرجز ، برقم ١٠ مجاميع ٠

٣٦ ـ قصيدة بانت سعاد :

للشاعر العربي كعب بن زهير ، بخط قديم جدا ، في ١٠ ص كبار ، وعلى هامشها عدة شروح كتب بعضها عام ١١٠٦ هـ ، برقم ١٨ مجاميع ٠

٣٧ ـ مجموع في الشعر والعروض :

لم يعرف جامعه ، وفي أوله : كتاب في علم المعاني والبيان ، وبعده في علم العروض والباقي قصائد لمختلف الشعراء ، وعلى هامشه تعليقات

لصاحب الحصون ، المجموع بخطه برقم ٩ في ٦١٢ ص ، ٢١/٨ سم ، ١٥/٣ سم ٤/١ سم ، وفي آخره مراسلات ٠

٣٨ ـ مجموع في الشعر والنثر :

جمعه الشيخ علي كاشف الغطاء صاحب الحصون ، يوجد بخطه ، وقد ضمنه كثيرا من البند الرقيق ، وقسما من التأريخ الاسلامي ، ٢٠/٦ سم ، ١٤/٣ سم ٤/٥ سم ، برقم ٢١ مجاميع ٠

٣٩ ـ مراثي خير انسان

تأليف الشاعر المعروف السيد حيدر الحلي المتوفي ١٣٠٤ هـ جمع فيه المراثي التي قيلت في حلبة رثاء الميرزا جعفر القزويني المتوفي ١٢٩٨هـ لمشاهير شعراء عصره وقد قدم لكل قصيدة تعريفا لصاحبها ٠ وقد ذيله صاحب الحصون فجمع كل ما قيل في رثاء آل القزويني وبعض المراسلات والمقامات التي تبادلها أعلام آل القزويني مع الشعراء والكتاب والعلماء ، ومنهم الشيخ جواد الشبيبي أشعر أهل عصره ، اشتمل على نوعين من الخط ، النوع الثاني بخط صاحب الحصون ، في ١٣٨ ص ١٥ س ، ٢٢سم ، ١٥ سم في وبضمنه عدة رسائل ٠ سمك المجموع ٢/٥ سم برقم ٦٨ دواوين

٤٠ ـ المغني عن الاغاني :

للامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، اختصر فيه كتاب (الاغاني) لأبي الفرج الاصبهاني المتوفي ٣٥٦ هـ فرغ من تأليفه في نصف العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري ، في ٧٧٩ ص ٢١ س ، ٢١/٨ سم ، ١٦/٦ سم ، ٣/٦ سم ، برقم ١٩٥ أدب ، والكتاب تحفة بوصفه وانتقائه ٠

٤١ ـ المقصور والممدود :

لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية المعروف بأبن دريد المتوفى ٣٢١ هـ في ١٠ ص يوجد ضمن مجموع برقم ٩٧ مجاميع ٠

٤٢ ـ المنام :

للامام حمزة بن حبيب الزيات ، في ست صفحات ، ضمن مجموع برقم ٩٧ ٠

٤٣ ـ من غاب عنه المطرب :

لأبي منصور عبدالملك بن اسماعيل المعروف بالثعالبي المتوفي ٤٣٠ هـ رتبه على سبعة أبواب (١) في البلاغة والخط وما يجري مجراهما (٢) في الربيع وآثاره وفصول السنة (٣) في أوصاف الليالي والايام واوقاتها (٤) في الغزل وما يجرى مجراه (٥) في الخمرة وما يتعلق بها (٦) في الاخوانيات والمدح وما يضاف اليها (٧) في فنون مختلفة ٠ بخط صاحب الحصون فرغ

من كتابته يوم الاحد ١١ رمضان من عام ١٣٠٦ هـ في ٧٢ ص ١٩ س ، ١٧ سم ٥/١٠سم ، وبضمنه كتاب (منتخبات النهاية) أيضا للثعالبي في ٣٠ ص ، برقم ٩٢ لغة . طبع في بيروت عام ١٣٠٩ هـ باعتناء محمد اللبابيدي ، ولكنه نقص عن المخطوطة ، وطبع كاملا في مطبعة الجوائب عام ١٣٠٢ هـ .

٤٤ ـ نظم دعاء الكسا :

باللغة الفارسية من نظم أبي اسحاق النظام ، يوجد برقم ١٢٤ ضمن مجموع (كلام) في ٣٤ ص ١٢ س .

وسنقدم في العدد القادم (فن التأريخ والسير وتأريخ الاديان) ان شاء الله .



كتاب الشرفية في الموسيقى

الدكتور حسين علي محفوظ

صنف صفي الدين عبدالمؤمن الأرموي البغدادي الموسيقار العراقي المشهور ـ المتوفى سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م ـ كتابين قيمين في الموسيقى ؛ هما:

(١) كتاب الادوار ـ في معرفة النغم ، ونسب أبعادها ، وأدوارها ، وادوار الايقاع .

استودعه خمسة عشر فصلا ؛ هي :

الفصل الاول ـ في تعريف النغم ، وبيان الحدة والثقل .
الفصل الثاني ـ في تقسيم الدساتين .
الفصل الثالث ـ في نسب الابعاد .
الفصل الرابع ـ في الاسباب الموجبة للتنافر .
الفصل الخامس ـ في التأليف الملائم .
الفصل السادس ـ في الادوار ونسبها .
الفصل السابع ـ في حكم الوترين .
الفصل الثامن ـ في تسوية اوتار العود ، واستخراج الادوار منه .
الفصل التاسع ـ في أسماء الادوار المشهورة .
الفصل العاشر ـ في تشارك نغم الاوتار .
الفصل الحادي عشر ـ في أدوار الطبقات .
الفصل الثاني عشر ـ في الاصطحاب الغير المعهود .
الفصل الثالث عشر ـ في ادوار الايقاع .
الفصل الرابع عشر ـ في تأثير النغم .
الفصل الخامس عشر ـ في مباشرة العمل .

(٢) كتاب الشرفية في علم النسب التأليفية ، والاوزان الايقاعية .

ويشتمل على خمس مقالات ؛ هي :

المقالة الاولى ـ في الكلام على الصوت ولواحقه ، وفي ذكر شكوك واردة على ما قيل فيه .

وتحتوى على [مقدمة] أثبت فيها قول أبي نصر الفارابي : « ان من الاجسام ما اذا زحمه جسم آخر لم يقاوم الزاحم ، وانقاد له ؛ اما بأن يندفع الى عمق نفسه مثل الاجسام الجامدة اللينة . أو ينحسزق المزاحم مثل الإجسام الرطبة . او يتنحى الى الجهة التى اليها كانت حركة الزاحم من غير

مقاومة بينهما أصلا • فمتى كان كذلك لم يوجد في الجسم الذى زحم صوت •• »

ثم قال : « ومن الاجسام ما اذا زحمه جسم آخر قاوم الزاحم ؛ فلم ينحزق له ، ولم يندفع لا الى عمق نفسه ولا الى الجهة التى اليها كانت حركة الزاحم • وذلك مثل الاجسام الصلبة ؛ متى كانت قوة الزاحم دون قوة الذى زحم • فحينئذ يمكن متى قرع ان يوجد له صوت •• »

ثم قال : « والقرع ؛ هو مماسة الجسم الصلب جسما آخر صلبا ، مزاحما له عن حركة •• » •

ثم قال : « وقد يوجد في الهواء وحده صوت متى قرع بالسياط • »•
وأتبع المقدمة تسعة فصول ؛

الفصل الاول ـ في شكوك واردة على قول الفارابي • فالصوت لا يختص بالمزحوم دون الزاحم •

وليس الحزق والاندفاع والتنحي ولاعدمها مما يجب ان يشترط في وجود الصوت أو عدمه •

وشرطه في وجود الصوت « ان تكون قوة الزاحم دون قوة المزحوم فغير مطرد •

ورسمه للقرع « انه مماسة الجسم الصلب جسما آخر صلبا مزاحما له عن حركة » مما يناقض قوله : « وقد يوجد في الهواء وحده صوت متى قرع بالسياط » •

وشرطه « ان تكون المزاحمة عن حركة » تكرار صرف ، وتحصيل الحاصل •

الفصل الثاني ـ كلما كان الصوت من مكان أبعد كان أبطأ وصولا الى السمع •

الفصل الثالث ـ كلما كان الجسم القارع والمقروع أشداستحصافا كان الصوت أحد ، وبالعكس • وقد ناقش الفارابي في قوله : « ان زحم القارع كلما كان اشد كان الصوت أحد • وكلما كان الزحم أضعف كان الصوت أثقل » •

وناقده في تعريف النغمة انها « صوت واحد لابث زمانا ذا قدر محسوس في الجسم الذي فيه توجد » •

ونقد قول ابن سينا ان « النغمة صوت لابث زمانا ما على حد ما من الحدة والثقل »
اذ كل صوت فانه لايعرى عن ثقل أو حدة •• وقد تسمع النغمة من حلوق مستبشعة يكرهها السامع ، مع انها تعد نغما •

الفصل الرابع ـ النغمة صوت يمكن ادراك تفاوت الكمية من ثقله أو حدته بالنسبة الى آخر •

الفصل الخامس ـ اسباب الثقل والحدة ٠
الفصل السادس ـ كيفية حدوث النغم من الحلوق الانسانية ٠
الفصل السابع ـ كيفية حدوث النغم فى الالات ذوات النفخ ٠
الفصل الثامن ـ كيفية حدوث النغم في الاوتار ٠
الفصل التاسع ـ صفات النغم التي تلحقها من باب الكيف ٠

المقالة الثانية ـ في حصر نسب الاعداد بعضها الى بعض ، واستخراج الابعاد ، ونسبها المستخرجة من نسب مقاديرها ، ومراتبهما في التلاؤم والتنافر ، واسمائها الموضوعة لها ٠

وتحتوي على [مقدمة] في اقسام النسبة ، وهي اثنا عشر قسما :

١ ـ نسبة المساواة ٠
٢ ـ نسبة المثل والجزء ٠
٣ ـ نسبة المثل والاجزاء ٠
٤ ـ نسبة الضعف فقط ٠
٥ ـ نسبة الضعف والجزء ٠
٦ ـ نسبة الضعف والاجزاء ٠
٧ ـ نسبة الامثال ٠
٨ ـ نسبة الامثال والجزء ٠
٩ ـ نسبة الامثال والاجزاء ٠
١٠ـ نسبة الاضعاف ٠
١١ـ نسبة الاضعاف والجزء ٠
١٢ـ نسبة الاضعاف والاجزاء ٠

وقد فصلها في ٢٣ فصلا ٠

المقالة الثالثة ـ في اضافات الابعاد بعضها الى بعض ، وفصل بعضها عن بعض ، واستخراج الاجناس من الابعاد الوسطى ٠

وقد أوسع ذلك تبيينا في ثمانية عشر فصلا ٠

المقالة الرابعة ـ في ترتيب الاجناس في طبقات الابعاد العظمى ، وذكر نسبها ، واعدادها ٠

وقد بينها في سبعة عشر فصلا ٠ عدد في الفصل الاول الاصناف التسعة من الطبقات ؛ وهي :

الصنف الاول ـ المنفصل الاحد ٠
الصنف الثاني ـ المنفصل الاحد الاثقل ٠
الصنف الثالث ـ المنفصل الاحد الاوسط ٠
الصنف الرابع ـ المنفصل الاثقل ٠
الصنف الخامس ـ المنفصل الاثقل الاحد ٠
الصنف السادس ـ المنفصل الاثقل الاوسط ٠

الصنف السابع ـ المنفصل الاوسط ·
الصنف الثامن ـ المنفصل الاوسط الاحد ·
الصنف التاسع ـ المنفصل الاوسط الاثقل ·
وذكر في الفصل الثاني استخراج هذه الاجناس من الطبقة الثانية ·
والفصل الثالث في اسماء اعلام النغمات المرتبة في الجمع الكامل ·
وخص سائر الفصول الاخر بترتيب الاجناس وعززها بجداول مرتبة ، اشار فيها الى ابعادها ، والنغمات المختصة لكل جنس منها باسمائها المتداولة عند ارباب الصناعة العملية ·

الاول ـ عشاق · الثاني ـ نوى ·
الثالث ـ بوسليك · الرابع ـ راسست ·
الخامس ـ نوروز · السادس ـ عسراق ·
السابع ـ اصفهان الثامن ـ بزرك ·
التاسع ـ زيرافكند · العاشر ـ راهوى ·

والمشهور بين ارباب الصناعة العملية من الادوار الكثيرة الاستعمال :
عشاق ، نوى ، بوسليك ، راست ، حجاز ، نوروز ، اصفهان ، زنكله، راهوى ، زيرافكند ، بزرك ، مخير الحسيني ، نهفت ، دور آخر من ادوار الحجاز ، كواشت ، كردنيا ، حسيني ، حسيني مكرر ·
المقالة الخامسة ـ في الايقاع ونسب أدواره وفي السلوك الى كيفية استخراج الالحان بالصناعة العملية ·
وفيها ثلاثة عشر فصلا ؛ هي :
الفصل الاول ـ في تعريف الايقاع ·
الفصل الثاني ـ في اصول الايقاع المستعملة المتداولة ·
الفصل الثالث ـ في الايقاع الموصل ·
الفصل الرابع ـ في تبعيد النقرات بعضها عن بعض ·
الفصل الخامس ـ في الازمنة ·
الفصل السادس ـ في الايقاع المفصل
الفصل السابع ـ في الايقاعات الدورية المتداولة بين ارباب الصناعة العملية ·
الفصل الثامن ـ في انواع ضروب الفرس ·
الفصل التاسع ـ في الحان الفرس ·
الفصل العاشر ـ في هيئة لزوم الآلة والمضراب ·
الفصل الحادي عشر ـ في انواع الدساتين وامكنتها وامتزاجها بمطلقات الاوتار ·
الفصل الثاني عشر ـ في نغمات الدساتين ·
الفصل الثالث عشر ـ في اسماء النغم ·

الأشعار الموثبات في الجاهلية

نوري حمودي القيسي

الموثبات هي مجموعة القصائد التي قيلت لايغار الصدور بالحقد ، والهاب حمية القوم ، واثارة النفوس للمطالبة بالثأر ، واستفزاز الرجال لدفع الاهانة التي تلحق بهم وبقبائلهم ·

وبهذا المعنى تكون الموثبات أقرب الى الاثارة والتحريض ، أو هي هذه المعاني كلها ، ولا يمكن بحث الموثبات بمعزل عن الدواعي الاساسية لها ·

لقد كان المجتمع الجاهلي مجتمعا قبليا بحتا ، ولم تكن هناك سلطة مركزية تجمع بين مختلف القبائل التي تتمتع باللامركزية ، ولا انظمة ذات صلاحية تتحكم في النزاعات الدائمة بين هذه القبائل ، الا تلك التقاليد التي تعارف عليها المجتمع ، والتي اصبحت شريعة مقدسة في الحياة البدوية ، لان العرف القائم في الصحراء ينص على ان الدم لا يغسله الا الدم ، فاذا قتل فرد أو ظلم أو اعتدي عليه فله الحق في انزال العقاب بالجاني جزاء عمله الذي اقترفته يداه ، ولان الدم المراق هو دم الجماعة كلها ·

ومن هنا كانت فكرة « ولي الدم » ، الفكرة التي تمنح الشخص هذا الحق ، للاخذ بالثأر ، فاذا فشل فيه ، اصبح من حق ابناء العم والاقارب الادنين وافراد القبيلة كلهم الاخذ بهذا الحق من أي فرد من افراد قبيلة القاتل ·

ان الانقسامات داخل القبيلة نفسها لم تؤد الى ايجاد سلطة عليا ،ولا كانت حائلا دون وقوع حوادث الاخذ بالثأر حتى بين فروع القبيلة الواحدة ، والتي كانت أصلا متحدا ، ومن هنا كانت أهمية الأخذ بالثأر تأخذ شكلا بارزا في تحديد العلاقات بين افراد القبائل ، لان الاخذ به دليل على الشجاعة والقوة ، والسكوت عنه دليل على الخضوع والذلة والاستكانة ، وباعث على الاستهانة بالفرد والقبيلة ، وعندها يصبح أو تصبح هدفا لغزوات أخرى ·

لقد لعبت المرأة دورا كبيرا في استثارة همم الرجال للاخذ بالثأر ، والانتقام للقتلى ، وكان خروجهن يثير حمية العربي ، ويدفعه الى الاستبسال ، فكيف به وهو يسمعها تستصرخه وتحفزه ·

ان أشد شيء على العربي أن يرى نساءه وقد أصابهن الهوان والذل ، لان ذلك يلهب الرجل غضبا ، وكانت النساء تعرف هذه الحمية فيه ، وتدرك هذا الشعور ، فاستثمرته لاستفزازه عند اشتدادالخطوب ، تحفيزا الى الدفاع عن حماهن ، أو لادراك ثأر يلحق تركه ذلا وعارا ، وفي ذلك يقول المهلهل عندما خرجت نساء تغلب يوم مقتل كليب:(١)٠

كنا نغار على العواتق أن ترى بالامس ، خارجة عن الاوطان ٠
فخرجن يوم ثوى كليب حسراً مستيقنات بعده بهوان

وقد كانت قصائدها حافزا قويا من حوافز دفعهم لادراك هذه الحق المقدس ، وأكثر ما كانت النساء يستعملن في أقوالهن أقوالا جارحة ، وتهكما موءلما ، اذا كان دفع الاهانة اقوى وامضى ٠

ومن هذه الموثبات التى انطلقت من افواه شواعر العرب ، كان اللهيب الذى اشعل قلوب الرجال بالحمية ، ودفعهم الى الاستبسال والتضحية ٠

وقد حاولت ان اجمع في هذا البحث ما وجدته صالحا لهذا المفهوم ، وموافقا للخط الذي أردت أن أسلكه في هذا الجانب الأدبي ٠

ولا يكاد يغرب عن اذهاننا ـ ونحن نتحدث عن هذا الجانب الحماسي ـ قصة ليلى العفيفة زوجة البراق الفارس المشهور(٢) الذى نزل ابوها في ناحية من بلاد الفرس ومعه ابنته ، وكانت من اجمل نساء زمانها ، فأوصل خبرها الى ملك الفرس وقتئذ أحد حاشيته ، فقال له الملك : ماعسى أن نبلغ منها ، والبدوية تفضل الموت على أن يغشاها عجمي ، فقال : نرغبها بالمال ومحاسن الطعام والمشارب والملابس ٠

وارسل الملك فاغتصبها من ابيها ، ثم عرض عليها جميع المشتهيات والمرغبات ، وخوفها بجميع العقوبات ، وعاملها بأقسى أنواع التعذيب ليرى وجهها ، ولكنها ابت ذلك وخيرته بين ان يقتلها او يعيدها الى ابيها ، ولما يئس منها أسكنها في موضع ، وأجرى عليها الرزق ٠

وكان لليلى ابن عم من بنى بكر ، فارس شجاع ، يقال له البراق ، فاحتال حتى خلصها من مغتصبيها ، وأعادها الى ديار ربيعة ، فأثنى عليه اله جميلا ، وتزوج البراق بليلى ، وتولى رئاسة قومه زمانا ٠

وقد نظمت ليلى هذه القصيدة ، تصف ما حصل لها ، وما جرى عليها ، وتستصرخ بالبراق وبأخوتها ، وتهدد بنى انمار واياد لانهم وافقوا العجم على سبيها ٠

والقصيدة تعتبر من اشد شعر الموثبات تحريضا ، لما تطرقت اليه من المسائل التي تثير في نفس العربي الحقد والانتقام ، وتدفعه الى التضحية والاستبسال ٠

ليت للبراق عينا فترى ... ما ألاقي من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلا اخوتي ... يا جنيدا اسعدوني بالبكا
عذبت اختكم يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحا ومسا
قيدوني غللوني وافعلوا ... كل ما شئتم جميعا من بلا
يكذب الاعجم ما يقربني ... ومعي بعض حشاشات الحيا
فانا كارهة بغيتكم ... ومرير الموت عندي قد حلا
اتدلون علينا فارسا ... يا بني انمار يا أهل الخنا
قل لعدنان فديتم شمروا ... لبني الاعجام تشمير الوحى
واعقدوا الرايات في اقطارها ... واشهروا البيض وسيروا في الضحى
يا بني تغلب سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى
واحذروا العار على اعقابكم ... وعليكم ما بقيتم في الدنا

ولم تكد انباء هذه القصيدة تطرق اسماع الفرسان من قبيلتها ، حتى هبوا للدفاع عنها ، فأنتزعوها من غاصبيها ، واعادوها الى حيها معززة مكرمة .

وهذه صفية بنت ثعلبة الشيبانية تخاطب قومها ، وتهددهم بأنها سوف تستجير بقبائل أخرى ، لتريهم العز عندها ، اذا ظلوا صابرين ، لا يدفعون عنهم اذى الخصم ، وفي هذا الكلام اشعار لقومها بالضعف ، واستدلال على الذلة ، وهذا ما يثير في العربي الغيرة ، ويدفعه الى الموت بلا مقدمات ، لان الحياة لا تساوي لديه شيئا اذا لم يحافظ على هذه المثل الخلقية ، واذا لم يدفع عن نفسه وعن قبيلته هذه التهمة فتقول(٣) :

ماذا ترون بني بكر فقد نزلت ... كبر الذوائب والاخرى على الاثر
أتصبرون لشعواء ململمة ... فيها الاعاجم بالنشاب والوتر
ام لستم اهل صبر في لوازمها ... عند الحفائظ والجارات والخفر
اني اجرت بكم يا قوم فاصطبروا ... فالصبر يحلل فوق الانجم الزهر
ايها اجيبوا بني بكر حجيجتكم ... ما عندكم ويحكم من غاية الخبر(٤)
يا أيها الشم أنتم حافظوا ذممي ... وأنتم فلعمري الغر من عمري
أما صبرتم فلا ادعو لغيركم ... وان جزعتم انادي كل ذي حضر

وقد أثار صدى هذه القصيدة في قومها الحمية ، فاستجابوا لطلبها ، واستعدوا للقاء جند كسرى .

وعمرة بنت الحباب التغلبية ، كانت زوجة لبيد بن عنبسة الغساني ، الوالي على ربيعة من قبل ملوك اليمن ، افتخرت يوما بكليب سيد وائل ، فلطمها لبيد ، فقالت له : انا اكرم منك ، وذهبت مغضبة الى كليب ، فقالت

ما كنت أحسب والحوادث جمة — انا عبيد الحي من غسان
حتى علتني من لبيد لطمة — سجرت لها من حرها العينان
ان ترض تغلب وائل بفعالهم — تكن الاذلة عند كل رهان

فخرج كليب الى لبيد حتى صدع هامته بالسيف .

وهذه ام الاغر بنت ربيعة اخت كليب وائل ، ترثي غرثان اخ البراق ، وتحرض بني بكر على الاخذ بثأره فتقول:(٦) .

ألا فابكي أعيني لا تملي — فلي بمصابنا أبدا عويل
فلا سلمت عشيرتنا وعادت — اذا ضرع ابن روحان النبيل
اذا رحتم وخلفتم هبلتم — لغرثان فلا راح القبيل
فرحتم بالغنائم حين رحتم — وبات بموته الغنم الجليل
تركتم ذا الحفاظ وذا السرايا — وراءكم اضلكم الدليل
فقل لنويرة وكليب مهلا — اقيما ان خزيكما طويل

واخبار البسوس بنت منقذ (خالة جساس) ، معروفة في ايام العرب ، لارتباطها بالحرب التي اضيفت الى اسمها ، والتي دارت بين بكر وتغلب ، واستمرت اربعين سنة كما يذكر الرواة .

فقد جاءت ونزلت على ابن اختها جساس ، فكانت جارة لبني مرة ، ولها ناقة اسمها (سراب) خوارة(٧) ومعها فصيل لها . فلما خرج كليب غاضبا من قول زوجه جليلة ، رأى فصيل الناقة ، فرماه بقوسه فقتله .

وراحت الرعاة على جساس ، فأخبروه بالامر ، وولت الناقة ولها عجيج، حتى بركت بفناء البسوس ، فلما رأتها صاحت وا ذلاه ! فقال جساس : اسكتي ، فلك بناقتك ناقة اعظم منها ، فأبت ان ترضى حتى صاروا لها الى عشر ، فلما كان الليل ، انشأت تقول :ـ تخاطب سعدا اخا جساس وترفع صوتها تسمع جساسا ـ .

لعمرك لو اصبحت في دار منقذ — لما ضيم سعد وهو جار لابياتي
ولكنني اصبحت في دار غربة — متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل — فانك في قوم عن الجار أموات
ودونك اذوادي فاني عنهم — لراحلة لا يفقدوني بنياتي
اذا لم يقوموا لي بثاري ويصدقوا — طعانهم والضرب في كل غارات
فلا آب ساعيهم ولا سد فقرهم — ولا زال في الدنيا لهم شر نكبات

فلما سمعها جساس قال لها : اسكتي لاتراعي ، اني سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة ، سأقتل غلالا (كان غلال فحل ابل كليب ، لم ير في زمانه مثله) ، وانما اراد جساس بمقالته كليبا ، ووقعت الحرب بين الحيين .

وهند بنت حذيفة بن بدر الفزارية ، ترثي اخاها حصناً بن حذيفة ،وكان قد قتل يوم وقعة حاجر ، وتحرض قومها على الأخذ بثأره ، وتصمهم بالاماء الضعاف اذا توانوا عن الاخذ به فتقول[٨]:

تطاول ليلي للهموم الحواضر ... وشيب رأسي يوم وقعة حاجر
فلله عينا من رأى مثله فتى ... تناوله بالرمح كرز بن عامر
فيا لبنى ذبيان بكوا عميدكم ... بكل رقيق الحد أبيض باتر
فان انتم لم تصبحوا القوم غارة ... يحدث عنها وارد بعد صادر
وترموا عقيلا بالتى ليس بعدها ... بقاء فكونوا كالأماء العواثر[٩]

وكما فعلت هند ـ وهي تخاطب قومها ـ صنعت بنت حكيم بن عمرو العبديه ، وهي ترثي أباها ، وتحرض قومها على أخذ ثأره فتقول[١٠] :

أيرجو ربيع أن يؤوب وقد ثوى ... حكيم وامسى شلوه بمطبق
فأن كنتم قوما كراما فعجلوا ... له جرأة من بأسكم ذات مصدق
فان لم تنالوا نيلكم بسيوفكم ... فكونوا نساء في الملاء المخلق
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له ... فما انتم الا كمعزى الحبلق

وكما لعبت المرأة الدور الرئيس في التحريض على الاخذ بالثأر ، فقد شاركها الرجل في ذلك في بعض الأحيان ، فبشامه بن عمرو بن الغدير يحرض قومه بني سهم بن مرة على ألا يخذلوا حلفاءهم الحرقة ، لان ذلك يلحق بهم العار ، ويدفعهم الى القتال ويقول ان الموت لابد ان يفتالكم ، فعلام القعود[١١]

وخبرت قومي ـ ولم ألقهم ـ ... اجدوا على ذي شويس حلولا[١٢]
فاما هلكت ولم آتهم ... فأبلغ اماثل سهم رسولا
بسان قومكم خيروا خصلتيين ... كلتاهما جعلوها عدولا
خزي الحياة وحرب الصديق ... وكل أذاه طعاما وبيلا
فان لم يكن غير احداهما ... فسيروا الى الموت سيرا جميلا
ولا تقعدوا وبكسم منة ... كفى بالحوادث للمرء غولا[١٣]

وابيات المتلمس مشهورة لما فيها من اثارة واباء وفخر [١٤] :

ان الهوان حمار القوم يعرفه ... والحر ينكره والرسلة الاجد[١٥]
كونوا كبكر كما قد كان اولكم ... ولاتكونوا كعبدالقيس اذ قعدوا[١٦]
يعطون ما سئلوا والخط منزلهم ... كما اكب على ذي بطنه الفهد[١٧]
ولن يقيم على خسف يسام به ... الا الاذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فما يرثي له أحد[١٨]

وكما كان التحريض على أخذ الثأر يستدعي الاثارة ، فقد كان قبول الدية ـ ثمنا لدم القتيل ـ دافعا قويا من دوافع ايغار الصدور ، واستفزاز الرجال للامتناع عن أخذها ، لان قبولها يعني اسقاط حق الثأر ، وبالتالي فتور عوامل الاثارة ، وهذا ما كان يخشاه العربي في جاهليته ، وما تخشاه المرأة العربية في جاهليتها · لان في ذلك اذلالا ما بعده اذلال ، واهانة لا تساويها اهانة ·

وقد انعكس صدى ذلك في مواقف شواعر العرب وشعرائهم من هذا الانحراف الواضح على تقاليد المجتمع الجاهلي ، والخروج على العرف السائد ·

فأم قرفة زوجة حذيفة بن بدر الفزاري امرأة عزيزة الجانب ، يضرب بعزها المثل ، قتل قيس بن زهير ابنها قرفة ، ويقال انه أول من قتل في حرب داحس والغبراء ، وذلك ان اباه حذيفة ، كان قد ارسله الى قيس ليطلب سبق الغبراء ، فغضب قيس ، وتناول رمحه فطعنه ، فدق صلبه ، وقيل انه قطع يده وعلقها في عنان فرسه ، فرجعت الفرس عارية ، واليد معلقة في عنانها ، فاجتمع الناس ، وحمل ربيع بن زياد العبسي دية القتيل الى ابيه حذيفة ، فقبضها وسكن الناس ، فلما علمت أم قرفة بما صنع زوجها ، قالت ترثي ابنها ، وتعير حذيفة لقبوله الدية(١٩) :

حذيفـة لا سلمت من الاعـادي ... ولا وقيت شـر النائبـات
أيقتـل قرفـة قيس فترضى ... بانعـام ونـوق سـارحات
أما تخشـى اذا قال الاعـادي ... حذيفـة قلبـه قلب البنـات
فخـذ ثـارا باطـراف العوالي ... وبالبيض الحـداد المرهفـات
والا خلنـي ابكـي نهـاري ... وليلي بالدمـوع الجاريـات
لعـل منيتـي تأتـي سـريعا ... وترميني سـهام الحـادثات
فذاك أحب من بعـل جبـان ... تكـون حيـاته اردا الحيـاة

وقيل ان حذيفة لما سمع بهذه الابيات ، ثارت فيه الحمية ، فعاد الى محاربة بني عبس ·

وقد ذكر ان عبدالله بن معد يكرب مر براع لحزم بن سلمة من بني مازن بن زبيد فاستسقاه لبنا ، فأبى فأعقل عليه ، فقتل عبدالله ، فثارت بنو مازن لعبدالله فقتلوه ، وجاءوا الى عمر بن معد يكرب فقالوا : ان أخاك قتله رجل منا سفيه ، ونحن يدك وعضدك ، أفنسألك الرحم الا أخذت الدية ما أحببت ؟ فغضبت اخته كبشة وقالت(٢٠) :

أرسـل عبـدالله اذ حـان يومـه ... الى قومـه لا تعقلوا لهـم دمي(٢١)
ولا تأخذوا منهـم افالا وأبكـرا ... وأترك في بيت بصـعدة مظلـم(٢٢)

يدع عنك عمرا ان عمرا مسالم   وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان أنتم لم تثأروا واتديتم   فمشوا باذان النعام المصلم(٢٣)
ولا تردوا الا فضول نسائكم   اذا ارتحلت اعقابهن من الدم

على ان هذه القصائد لم تكن الوحيدة التي حملت هذه المعاني ، وانما هناك العشرات من القصائد الاخرى التي تحمل هذه الاغراض نفسها ، والتي كانت عاملا قويا من عوامل استمرار الحروب بين القبائل ·

---

(١) شعراء النصرانية ١/١٦٢ ·
(٢) تختلف الروايات في سرد هذه القصة ، ولكنها تتفق على المفهوم العام لها ·
(٣) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٦ ·
(٤) حجيجتكم : لقب الشاعرة صفية بنت ثعلبة ·
(٥) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٣١ ·
(٦) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٣٥ ·
(٧) رقيقة ، حسنة ·
(٨) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ٤٦ ·
(٩) الاماء الحواتر : النساء الضعاف ·
(١٠) بشير يموت : شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ص ١٠٤ ·
(١١) المفضل الضبي : المفضليات جـ ١ ص ٥٧ ·
(١٢) ذو شويس : مكان ·
(١٣) المنة : القوة · الغول : ما غال الشيء فذهب به · يحرض قومه على القتال ، ويقول : لم تعطون الضيم ، والموت لابد أن ينتالكم ·
(١٤) لويس شيخو : شعراء النصرانية · الجزء الاول ص ٣٤٣ ·
(١٥) الرسلة : الناقة السهلة ·
(١٦) يحضهم في هذا البيت على عصيان عمرو بن هند وترك طاعته ، وضرب لهم بكر بن وائل مثلا ، اذ سامهم كليب خسفا فقتلوه وكان سيدهم ، ولا تكونوا كعبد القيس ، غزاهم عمرو بن هند فاصاب فيهم ، فلم يدفعوا عن أنفسهم وأموالهم ·
(١٧) الخط : منزل من ديار عبدالقيس بالبحرين ، ترفأ فيه السفن ، وقيل غير هذا ، ومنه قيل : الرماح الخطية · ذو بطنة : ما القاه من بطنه · والفهد : الضب ، يقال انه اذا شتا اقام على حجره فلم يرم ، وأكل ذا بطنه حتى ينقضي الشتاء ·
(١٨) الرمة : القطعة من الحبل البالي ·
(١٩) لويس شيخو : رياض الادب في مراثي شواعر العرب · جـ ١ ص ٣٨ ·
(٢٠) المرزوقي : حماسة ابي تمام جـ ١ ص ٢١٧ ·
(٢١) عقلت فلانا : اعطيت ديته ، وجعلت الابيات على لسان أخيها · ليكون ابلغ في الحض ·
(٢٢) الافال : جمع واحدة أفيل ، وهي صغار الابل ، والابكر : جمع البكر ، وهو الفتي منها ·
(٢٣) المصلم : قطع الاذن من اصلها ، واتديتم : قبلتم الدية ·

أغنية إلى القمر

عدنان العوادي

أتعلمين ما يسح القمر ..؟ — وما يصب في المدى ويمطر
اتعلمين حين تخضر السماء — أي غابات نجوم تزهر
وأي سر تهمس السنابل — وأي انفاس يضوع العنبر
أتعلمين ما توسوس النخيل — بينها حين ينام الشجر
وبالسواقي الخضر ما تصلصل — وبالنهور السمر ما تكركر
والافق .. اذ تخط فيه نجمة — تنتحر أو غيمة تحتضر
واذ «جميعات»(١) تنام طفلة — تحت السنا كما ينام البيدر
سطوحها شط نضار يرتمي — في قاعه ظل خفيف اسمر
ونخلها الاسمر خيمات هوى — تغازل السعف بها والتمر
بيوتها بيادر وصمتها — مشاعر ونومها تفكر
أتعلمين ما يسح القمر — وما يصب في المدى ويعطر

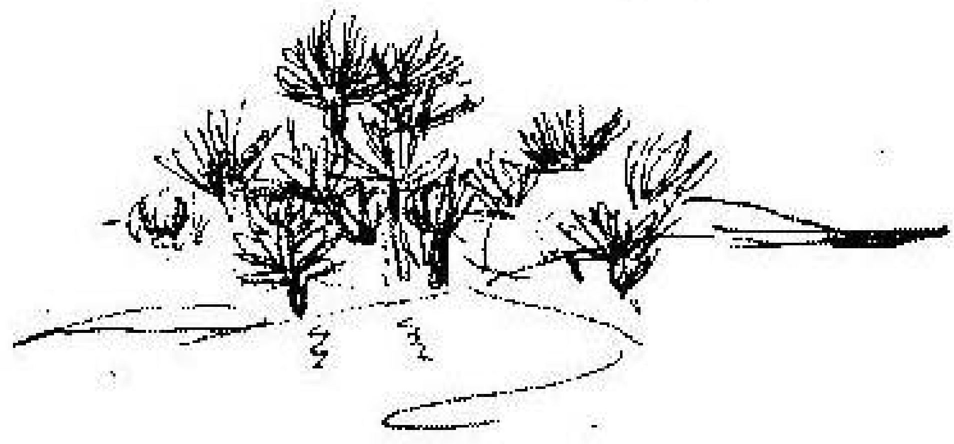
* * *

كم من تباريح يثير السهر — وكم أسى يبعثه التذكر ..؟
وكم يضج من حنين بدمي — لعالم يرسمه التصور
فتستفيق في عروقي نشوة — ويدلهم في شروق أحمر
(لم يكف دمع العين ناري — بفؤادي(٢) وتباريح الهوى تستعر)

أكلما غفـــا جراح بـــدمي ... نز بــه ألف جـراح آخـــر
وأنت تسمين من خلف المـــدى ... الهــة يتيــه فيهــا القدر
« كمباسبي » قد غلبت الههــا ... وقد أطــل وجهــا المنتصر
مشيتهــا ترنم ، وثغــرها ... تبسـم ، وصــدرها تبخنر
واذ تلوحين كظـــل نخلــة ... يرسمه على الفــرات السحر
ينسدل الشعر غصونا غضـة ... الميل في ظلالهــا يختصر
عينــاك كوكبـان حالمـان ... خلف غيمة شـفيفة لا تمطـر
تتســع مقلتاهما بلا مــدى ... كنهر يســرف فيــه القمر ..
عينــاك دوحتــان من كروم ... يستريح فيهما مســاء مقعـر
الدفء ينثــال علي منهمــا ... والحب والاشــواق والتصبر
وتنظرين في ذهــول ســاهم ... ماذا يقول صــمتك المعبر ؟
أتستعيدين معي أشــواقنا ؟ ... أتذكـرين ؟ انني لاذكــر ..

* * *

هيــا بنا نبحر عــلى جزيرة ... أنــا وأنت والمنى والقمــر
شراعنا أهــداب عينيـك التي ... أنعسـها الحيــاء والتكبر
وفوقنــا ماذا يبث فوقنــا ؟ ... نجم وحب ونســيم أخضر
نسيم ايلـول الـدي يمنحني ... الف حياة لم يعشـها البشر
ايلول يا ايلول عـدتي في الهوى ... فمـذ زمان وأنا أنتظـر ..



(١) جميعات : قريتي في منطقة الفرات الاوسط .
(٢) اشارة الى الاغنية الريفية المعروفة (ما يكفي دمع العين نادى بدليل) .
(٣) « كمباسبي » الفتاة التي أسرها الاسكندر المقدوني وأهداها الى المصور (ابيلوس) فجن بها حبا . وعبارة « قد غلبت الهها » اشارة الى قصيدة الشاعر الانكليزي (جون ليلي) التي ذكر فيها ان كمباسب هذه لاعبت كيوبيد الورق وربحت منه ورد خديه ومرجان شفتيه وعينيه وغمازتيه .. والى ذلك تشير عبارة « وجهها المنتصر » .



لقاء مع الفنان

اسماعيل الشيخلي

ـ هل لكم أن تحدثونا عن مكانة الفن العراقي عالميا وعربيا قديما وحديثا ؟

ـ في الحقيقة ان سؤالكم هذا شامل ومتفرع ويحتاج الى أجوبة مطولة ومتفرعة ولكني سأحاول أن أختصر قدر الامكان ، ان فن ما بين النهرين القديم كالفن السومري والآشوري والبابلي هو فن معروف وله ، روعته وأهميته التأريخية التي أثرت بلا شك في الفنون العالمية الاخرى ولا زال المؤرخون والباحثون الاوربيون يهتمون لحد الآن بهذه الفنون وأكبر دليل على ذلك مثلا كتاب آندري بارو محافظ متحف اللوفر الذي صدر أخيرا في مجلدين عن الفن السومري وغيره من البحوث • ولا شك أن الفن

السومري قد أثر في الفنون الاخرى كما ان الكثير من الفنانين العراقيين المعاصرين يحاولون الاستفادة من هذه الفنون وعلى الاخص النحاتين ٠

أما مكانة الفنون الاسلامية والعربية ومدرسة بغداد في الرسم فلها مكانتها الفنية العالمية على قلتها ، وقد أثرت الفنون الشرقية بصورة عامة في الفن الاوربي المعاصر بشكل واضح ٠ أما مكانة الفن العراقي المعاصر (وهذا ماتريدونه من سؤالكم حسبما أعتقد) بالنسبة للفن الغربي بصورة عامة فاني أعتقد بطليعية الفن العراقي في منطقة الشرق الاوسط ٠

ان الفن العراقي هو بمستوى جيد بالنسبة للفن في الأقطار المجاورة لنا ولا نكون قد غالينا اذا أطلقنا تعبير « طليعة الفن العراقي » ٠

ان الفن في العراق بدأ متأخرا لكن بدايته كانت بصورة صحيحة وبذرته جيدة فلقد بدأت الحركة الفنية المعاصرة حين رجع أكثر الفنانين العراقيين المعاصرين من أوربا قبيل أو بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن تشبعوا وأدركوا الاساليب الفنية الحديثة في أوربا مما جعل المسيرة الفنية في بلادنا تسير بخطوات واضحة وذكية وواعية ٠ وأعتقد ان الفن العراقي أصبحت له مميزاته العراقية بشكل أولي يبشر بخير وان الفنانين اجتهدوا وبذلوا الجهد الكبير في سبيل تحقيق هذه المسحة المحلية رغم التزاوج الموجود بينه وبين الاساليب الاوربية الحديثة ، وأعمال كثيرة للفنانين



قرويات ـ زيتية ـ ١٩٦٣

العراقيين في السنوات العشرة الاخيرة كأعمال المرحوم جواد سليم مثلا خير مثال على ما أقول • ان الاوربي الذي يشاهد الكثير من أعمال الفنانين العراقيين يمكنه بسهولة ارجاعها إلى بيئتها الاصلية دون جهد • انني لا أقول ان هذه السمة موجودة في نتاج أغلبية الفنانين العراقيين لكنها بلا شك بدأت تأخذ في الوضوح عند عدد لا بأس به من الفنانين سنة بعد اخرى •

ان المضمون والشكل هما اللذان يصوران سمات أي فن من الفنون وبما ان مضموننا هو عراقي - وان تخلف الشكل أحيانا - فانه لابد أن يحصل بينهما تكافؤ وتلاؤم من شأنه أن يجعله فنا حقيقيا متميزا واضح المعالم في المستقبل • ومن هنا أعتقد بمكانة الفن العراقي دوليا أي ان للفن العراقي امكانية المشاركة في المعارض الدوليــة • وسبق أن ساهم بعض الفنانين العراقيين في معارض دولية كثيرة ولم يوجه لنا النقد آنذاك بل على العكس فلقد نلنا اعجاب الكل واحترامهم • ولنا في النصب التذكاري للمرحوم جواد سليم خير دليل فيمكننا أن نضع هذا العمل الفني الجبار في طليعة الأعمال الفنية العالمية خلال السنوات الاخيرة •

- ما هو رأيكم في المدارس والمذاهب الجديدة في الفن ؟

- خلال هذا القرن ظهــرت مدارس ومذاهب فنية كثيرة متعــددة وقد جاءت نتيجة طبيعية على ما أعتقد لتطور الحياة ونتيجة طبيعية لتطور الحركة الفنية ذاتها ونحن كفنانين نعيش في هذا العصر لابد لنا من مسايرة روح العصر الذي نعيشه لكننا رغم تأثرنا بالكثير من هذه المدارس فاننا لم نفقد هويتنا العراقية • ان حركة الفن الحديث ليست حركة اعتباطية بل هي جزء لا يتجزأ من المذاهب الفلسفية الحديثة والفنون التشكيلية بصورة عامة هي حركة فكرية وفلسفية وليست هي لونا وخطا فقط ، ان الصورة الحديثة رغم تباين المدارس والمذاهب هي أكثر من لوحة ولها خلفية فلسفية عميقة على ما أعتقد ان بيكاسو على رأس هؤلاء الفنانين المفكرين وأعمالـــه كمجموعة عامة تشكل مذهبا معينا ترك أثرا في كل نواحي حياتنا اليوم • هذه الثورة الفنية الحديثــة يمكننا مشابهتها بالثورة الانطباعية في القرن التاسع عشر تلك الثورة التي قاومها بعض الفنانين والنقاد لكنها أصبحت حقيقة بعد ذلك لانها كانت ثورة طبيعية وضرورية بالنسبة لذلك العصر • وقبل أيام كنت اطالع كتابا عن الانطباعيين وقد وجدت فيه أشياء وأقوال مضحكة كان قد كتبها بعض النقاد المعروفين حين ذاك • لقد شب حريق في دار الاوبرا في باريس فكتب أحد النقاد في جريدة الفيغارو يقول : هناك كارثة أهم من كارثة الحريق في دار الاوبرا هي كارثة معرض الانطباعيين • وفي الفن الحديث اليوم تيارات كثيرة منها ما هو عاطفي وآخر حسب نظرية خالف تعرف كما يقال ومنها ما هو حقيقي والزمن هو الكفيل بغربلة هذه الاندفاعات جميعها وابقاء الصالح المفيد منها •

ـ ما هو رأيكم بانتـــاج الفنانين الشـباب باعتبــارك استاذا في فن الرسم ؟

ـ ان الفنــانين الشباب في كل أنحاء العــالم يقلدون ما يجري حولهم ومنهم من يبحث بين الحركات الفنية الجديدة فمن له اصالة يبقى والآخر يظل عائما وهذه الظاهرة تنطبق على كل الفنانين الشباب عندنا فمنهم من يقلد أساتذته ومنهم من يقلد الفنانين العالمين ومنهم من يحاول مخلصــا الاستفادة من تجارب الغير ليجد طريقته الخاصة ويكون شخصيته المتميزة، ان أغلبية الفنانين الشباب في العراق مدركون ونشيطون وهذا مما يعطي ديناميكية جديدة للفن العراقي •

ـ ما هي رسالة الفنان في رأيكم وما له وما عليه ؟

ـ للفنان مسؤوليتان فالاولى مسؤولية أمام ذاتــه فعليــه أن يكون مخلصا مع نفسه ومدركا لأعماله وواجباته ومن هنا تأتي مسؤوليته الثانية اتجاه بلده والانسانية جمعاء ، فعليه أن يدرك مكانته والرسالة الملقاة على عاتقه وأن يحاول جاهدا تقديم خدماته من خلال ميدانه للمسيرة الانسانية فعليه أن يتبنى فلسفة بناءة من شأنها أن ترسم الفرحــة في قلوب النــاس لا فلسفة محزنة من شأنها أن تزيد في شقاء المعذبين منهم •

- اكمل دراسته الثانوية سنة ١٩٤٤ وتخرج في معهد الفنون الجميلة ـ فرع الرسم ـ في السنة نفسها •
- درس الرسم في الاعدادية المركزية ثم نقل لتدريس الرسم في معهد الفنون الجميلة في الفترة بين ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ •
- اختير لعضوية البعثة العراقية لدراسة الرسم في فرنسا وذلك سنة ١٩٤٨ فدرس الرسم في المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة (البوزارت) مع الاستاذ دوبا والاستاذ اوزيه كما درس في مرسم الاستاذ اندريه لوت ، وعاد سنة ١٩٥٢ •
- عين مدرسا في معهد الفنون الجميلة منذ ١٩٥٢ ، وكان مديرا لمعهد الفنون التشكيلية في السنة الماضية ويقوم الآن برئاسة فرع الفنون التشكيلية لاعداد المعلمين في المعهد نفسه •
- اسس مرسما في كلية التجارة والاقتصاد منذ سنة ١٩٥٣ ويقوم حاليا بالاشراف على النشاط الفني في الكلية •
- اشترك وساهم في جميع المعارض العراقية المقامة في العراق وخارجه واشرف على ثلاثة معارض اقيمت خارج العراق • وهو عضو الهيئة الادارية لجمعية الفنانين العراقيين وينتمي الى جماعة الرواد •

موسيقى الشعر

هل لها صلة بموضوعات الشعر وأغراضه ؟

احمد نصيف الجنابي

لا اعني بموسيقى الشعر ما عناه الدكتور ابراهيم انيس في كتابه (موسيقى الشعر) حيث درس الاوزان الشعرية لانه قد درس الموسيقى الخارجية وصلتها بموضوعات الشعر وأغراضه • أما أنا فأريد بذلك الموسيقى الداخلية (أو البناء الصوتي الداخلي للقصيدة) المنبعث أثناء القراءة والفروق واضحة بين الموسيقى الداخلية والموسيقى الخارجية • فالموسيقى الخارجية هي الاوزان التقليدية التي درسها الخليل بن احمد الفراهيدي من قبل • وهي معروفة ومدروسة في كتب الاقدمين والمحدثين لكن الموسيقى الداخلية للقصيدة لاتدرك الا بقراءة الشعر بصوت مسموع وتختفي عند الانتهاء من القصيدة ولا تستعاد الا باعادة القراءة كرة اخرى • والموسيقى الخارجية (او الوزن) يتكرر في كل بيت من ابيات القصيدة بينما لا تتكرر الموسيقى الداخلية •

والموسيقى الداخلية هي خير معبر عن التجربة الشعورية ولابد ان تدرس التجربة الشعورية على أساس الموسيقى الداخلية للشعر لانها هي التعبير الموسيقي الداخلي عن عواطف الشاعر وتجاربه الشعورية • اما ان تكون الأوزان أو الموسيقى الخارجية هي مظهر التجربة ـ كما أراد أن يثبت الدكتوران ابراهيم انيس وعبدالله المجذوب ـ فلا • لانه قد تكون الموسيقى طويلة النغمات بينما البحر من الاوزان القصيرة كما في قصيدة البحتري :

فــؤادي منــك مــلآن ... وســري فيــك اعــلان
غزال فيـــه ابعـــاد ... واعــراض وهجــران

التي هي من بحر الهزج • وهو من الابحر القصيرة كما هو معروف •

وقد تكون الموسيقى خفيفة ويكون البحر من الابحر المتوسطة الطول كما في قصيدة البحتري :

جائر في الحكم لو شـاء قصد ... اخذ النـوم واعطاني السـهد
غاب عمـا بت القى في الهـوى ... وهو النـازح عطفـا لو شـهد

فالبحر هو الرمل · (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن) في كل شطر ·

وقد تكون الموسيقى بطيئة ويكون البحر سريعا كمـا في قصيدة البحتري :

يرح بي الطيف الذي يسري ... وزادني سـكرا الى سـكري
ونشـوة الحب اذا افـرطت ... بالصب جازت نشـوة الخمر
لله ما تجني صـروف النـوى ... على حديث العهـد بالهجـر

وقد تكون الموسيقى الداخلية سريعة جدا كما في قول امرىء القيس في وصف فرسه :

مكر مفر مقبـل مدبر معـا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

بينما البحر من الطويل الذي هو اكثر الاوزان العربية مقاطع ·

والصلة وثيقة بين التجربة الشعورية وموسيقى الشعر الداخلية فكلما كان الشاعر منفعلا وكانت عاطفته ثائرة كانت موسيقى شعره سريعة سواء اكان شعره وصفا ام مدحا ام غزلا ···

فعندما ينفعل الشاعر بمنظر الدنيا النضرة في الربيع فيصفه تكون موسيقى شعره الداخلية سريعة (بغض النظر عن الوزن) · وما اسرع الموسيقى الداخلية في قول البحتري يصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختـال ضاحكا ... من الحسن حتى كـاد ان يتكلمـا
وقد نبـه النوروز في غلس الدجى ... اوائل ورد كـن بالامس نومـا
يفتقها بـرد النـدى فكانـه ... يبث حديثا كان قبـل مكتمـا
احـل فابـدى للعيـون بشاشة ... وكان قـذى للعـين اذ كان محرما
ورق نسـيم الريح حتى حسبته ... يجـيء بانفاس الاحبـة نعمـا

وما اسرع الموسيقى الداخلية المنبعثة من قول البحتري في مدح الفتح بن خاقان بل وما اعذبها ··· فهي في غاية الحسن والعذوبة :

بلونـا ضرائب من قـد نرى ... فما أن رأينـا لفتح ضريبـا
هو المـرء ابدت لـه الحادثا ... ت عزمـاً وشيكاً ورأياً صليبا
تنقـل في خلقـي سـؤدد ... سماحاً مرجى وبأسـاً مهيبـا
فكالسيف ان جئته صـارخاً ... وكالبحر ان جئتـه مستثيبا

وكلما كان حزنه عميقا كانت موسيقى شعره عميقة (او عمودية الاتجاه) · كما في قصيدة البحتري المشهورة في وصف ايوان كسرى :

صنت نفسي عمـا يدنس نفسي ... وترفعت عن جـدا كـل جبس
وتماسكت حيث زعزعني الدهـ ... ـر التماساً منه لتعسي ونكسي

يلسخ من صبابة العيش عندي ... طففتها الايـــام تطفيف بخس
وبعيد ما بـين وارد رفـــه ... عـــلل شـــربه ووارد خمس

وليس هناك ما يدل على ان الشاعر يعين او يخصص لكل غرض من اغراض الشعر وزنا معينا كما ادعى الخليل ابن احمد الفراهيدي (قديما) والدكتور ابراهيم انيس في كتابه « موسيقى الشعر » والدكتور عبدالله المجذوب في كتابه « المرشد الى فهم اشعار العرب » (حديثــا) والدارس للشعر العربي يلاحظ بعد هذا الرأي عن الحقيقة لاننا نجد في الشعر العربي امرين مهمين :

اولا — ان هناك وحدة في الوزن مع اختلاف في الموضوع ·
ثانيا — وحدة في الموضوع مع اختلاف في الوزن ·

وحدة الوزن واختلاف الموضوع :

نلاحظ الشعر العربي فنجد ان الشعراء العرب قـــد نظموا عـــدة موضوعات بوزن واحد وقد يكون تعدد الموضوع في قصيدة واحدة او قصائد متعددة ·

فلو حللنا معلقة من المعلقات ولتكن معلقة عنترة لوجدناها تحتوي على الموضوعات الاتية :

١ — الوقوف على الاطلال · ٢ — وصف الناقة · ٣ — التغزل بحبيبته « عبلة » · ٤ — الفخر · بينما الوزن واحد هو الكامل ·

ونجد الظاهرة نفسها بشكل اخر وذلك عندما يكون الشاعر قـــد تناول موضوعات متعددة في قصائد متعددة بينما الوزن واحد · فالمتنبي مثلا مدح (كافور) بقوله :

وما انا بالباغي على الحب رشـــوة ... ضعيف هـــوى يبغي عليـــه ثواب
واعلـــم قومـــا خالفوني فشرقوا ... وغربت اني قـــد ظفرت وخابـــوا
اذا نلت منك الـــود فالمال هـين ... وكـــل الذي فوق التراب تراب

ورثى طفلا لسيف الدولة بقوله :

فان تك في قبر فانـــك في الحشـــا ... وان تك طفلا فالاسى ليس بالطفـــل
ولم ار اعصى فيـــك للحزن عبرة ... واثبت عقلا والقلوب بـــلا عقـــل
وما الموت الا ســـارق دق شخصه ... يصول بلا كف ويسعى بلا رجـــل

ووصف الفرس بقوله :

ويوم كليـــل العاشقين كمنته ... اراقب فيـــه الشمس أيان تغرب
وعيني الى أذني اغـــر كأنـــه ... من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضـــلة عن جسمه في اهابـــه ... تجيء على صدر رحيب وتذهب

شققت به الظلماء أدني عنانه ... فيطغي وأرضيه مرارا فيلعب
واصرع اى الوحش قفيته به ... وانزل عنه مثله حين اركب

ووزنها واحد هو الطويل كما ترى

وحدة الموضوع واختلاف الوزن :

ونجد هذه الظاهرة على صورتين الاولى عند جماعة من الشعراء التزموا موضوعا واحدا لا يجاوزونه الى غيره كعمر بن ابى ربيعة والعباس بن الاحنف غيرهما • فهؤلاء الغزلون لم يجاوزوا الغزل الى غيره ومع ذلك تجد في دواوينهم بحورا مختلفة كالطويل والبسيط والوافر والكامل والمديد وغيرها • الثانية عندما نرى الشاعر الواحد ينظم موضوعا واحدا بأوزان مختلفة •

فالمتنبي قد هجا (كافور) بالوزن البسيط مرة وبالسريع اخرى وبالوافر مرة وبالمتقارب مرة رابعة •

فحين هجاه بقوله :

لا تشتر العبد الا والعصا معه ... ان العبيد لانجاس مناكيد

فقد هجاه بالبحر البسيط وعندما هجاه بقوله :

فلا ترج الخير عند امرئ ... مرت يد النخاس في رأسه

هجاه بالبحر السريع • وحين هجاه بقوله :

اخذت بمدحه فرأيت لهوا ... مقالي للاحيمق يا حكيم
ولما ان هجوت رأيت عيا ... مقالي لابن آوى يا حليم

فقد هجاه بالوزن المسمى الوافر • وحين هجاه بقوله :

لقد كنت احسب قبل الخصي ... بان الرؤوس مقر النهى
فلما نظرت الى عقله ... رأيت النهى كلها في الخصى

هجاه بالبحر المتقارب •

اما ما يقوله الدكتور ابراهيم انيس في كتابه موسيقى الشعر (ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من اشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه • فاذا قال الشعر وقت المصيبة والهلع وتأثر بالانفعال النفسي تطلب بحرا قصيرا يتلائم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية • ومثل هذا الرثاء الذي قد ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عادة الا في صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد ابياتها عن عشرة • أما المدح فليس من الموضوعات التي تنفعل لها النفوس وتضطرب لها القلوب واجدر به ان يكون في قصائد طويلة وبحور كثيرة المقاطع كالطويل

والبسيط والكامل . ومثل هذا يمكن ان يقال في الوصف بوجه عام . اما الغزل الثائر العنيف الذي قد يشتمل على وله ولوعة فاحرى به ان ينظم في بحور قصيرة او متوسطة وألا تطول قصائده) .

فلي عليه عدة ملاحظات هي :

١ ـ انه لا صلة بين الاغراض الشعرية والاوزان في الشعر العربي وكل ما يقال عن هذه الصلة ان هو الا اجتهاد خاطيء .

٢ ـ والرأي الصحيح ان تفسر خفة الاوزان او طولها او قصرها وكذلك طول القصيدة وقصرها بتطور الحالة الاجتماعية فكلما كان المجتمع متحضرا فيه من أسباب اللهو والرفه والمتعة وما لازمها من غناء وموسيقى كان الذوق الاجتماعي يميل الى الاوزان الخفيفة المقطعات القصيرة . وكلما كان المجتمع بعيدا عن اسباب الحضارة كان قليل الميل نحو الاوزان الخفيفة . فلو اخذنا مقطعا عموديا للزمن اعتبارا من العصر الجاهلي حتى البحتري لوجدنا ان زهير بن ابي سلمى الذي يحتوى ديوانه على ما يقرب من (٩٠٠) بيت قد خلا من البحر الخفيف وهذا الوزن قد بدأ متواضعا في العصر الجاهلي لا تزيد نسبته عن الرمل والمتقارب وأمثالهما ثم نهض نهضة كبيرة في العصر العباسي كما لاحظ الدكتور انيس في كتابه السابق . بينما نجد الاوزان الطويلة في ديوان زهير تحتل المرتبة الاولى والثانية والثالثة . فالطويل نسبته (٤٣٪) بالمائة . والبسيط نسبته (٢٣) بالمائة . والكامل (١٥) بالمائة والوافر كذلك . و (٢) بالمائة لكل من المنسرح والمتقارب . وهذه ظاهرة جديرة بالاعتبار لانها وثيقة الصلة بالحالة الاجتماعية كما هو واضح من مقارنتها بما يليها من العصور .

ففي العصر الاموي حيث تغيرت الحالة الاجتماعية بانتقال الخلافة الى الشام وانتشار الترف والغناء في الحجاز وفي قصور الخلفاء الامويين ـ ما خلا عمر بن عبدالعزيز ـ تطورت الاوزان تطورا ملحوظا .

فنحن نلاحظ ان ديوان « جرير » الذي يحتوي على ما يقرب من (٥٧٠٠) بيت يحتل الطويل فيها ٣١٪ بينما نجد هذا البحر عند أبي العتاهية الذي عاش في بغداد الرشيد يحتل ٢٠٪ من شعره . كما نلاحظ ظهور البحر الخفيف عند جرير الذي كان مختفيا عند « زهير » الذي عاش في الجاهلية وبيئة الجاهلية اقرب الى البداوة منها الى الحضارة . ونلاحظ ايضا ان نسبة الخفيف الذي كان عند جرير بنسبة واحد بالمئة تصل عند ابي العتاهية الى ستة بالمئة بينما تصل نسبته عند البحترى الى ١٧٪ (راجع موسيقى الشعر) . والتفسير المقبول لتطور الاوزان الشعرية في العصر العباسي وغيره هو تطور الحياة الاجتماعية وميل الذوق الاجتماعي العام الى الأوزان الخفيفة والمقطعات أكثر من ميله الى الأوزان الطويلة والمطولات من القصائد ومن نافلة القول ان نذكر ان العصر العباسي خلا من

قصائد طويلة كالمعلقات ولهذا كان الشاعران « ابو العتاهية والعباس بن الاحنف » مفضلين في عصرهما •

فالاول فضل لسهولة شعره وخفة اوزانه ويكاد نقاد شعره يجمعون على ذلك •

فقد لاحظ مصعب بن عبدالله سهولة كلامه وخلوه من الحشو ولهذا جعله اشعر الناس • روى صاحب الاغاني – عن احمد بن زهير قال سمعت مصعب بن عبدالله يقول : ابو العتاهية اشعر الناس فقلت لـه باي شيء استحق ذلك عندك ؟ فقال : بقوله :

تعلقت بآمـــــال	طـــوال اى آمـــال
واقبلت عـلى الدنيـا	ملحـــا اى اقبــال
ايـا هــذا تجهز لـ	ـفراق الاهل والمـال
فلابــد من المــوت	على حال من الحـال

وقدمه على شعراء عصره ، ابو بكر الفراء وابو نواس وداود بن زيد بن رزين الشاعر • وقد اوجز ابو الفرج الاصفهاني الملاحظات الواردة عن شعر ابي العتاهية بقوله : (كان غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف •• وله اوزان طريفة قالها مما لم يتقدمه الاوائل فيها) •

وفضل « العباس بن الاحنف » وخاصة عند المغنين لقصر اغلب قصائده ورقتها وعذوبتها مما يجعلها صالحة للغناء بل ان اغلب شعره مقطعـات تتراوح بين البيت الواحد الى ثمانية ابيات وقد احصيت مجموع المقطعات في ديوانه فبلغت (٥١٠) من مجموع (٥٨٠) اي ان نسبة المقطعات تبلغ ما يقارب ٨٧٪ من شعره •

حدث صاحب الاغاني عن الرياشي وقد ذكر عنده العباس بن الاحنف قال : « والله لو لم يقل الا هذين البيتين لكفيا » :

احرم منكم بما أقـــول وقـــد	نال بـه العاشقون من عشقوا
صـــرت كاني ذبالـــة نصبت	تضيء للناس وهـي تحتـــرق

وحدث ايضا عن علي بن يحيى الاديب المعاصر لابي تمام والبحتري انه قال : من الشعر المرزوق من المغنين خاصة شعر العباس بن الاحنف وخاصة قوله :

نام من اهـدى لي الارقـــا	مستريحا سامني قلقـــا

والقطعة التي اشار اليها علي بن يحيى هي ستة ابيات فقط كما في ديوانه • وقد غناها جماعة من المغنين منهم ابراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهما •

٣ ـ اما رأيه في ان الشعر الذي يقال وقت المصيبة والهلع يتطلب بحرا قصيرا يتلائم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية فيخالفه ما لدينا من المراثي المشهورة التي قيلت وقت المصائب • وأوضح الأمثلة على ذلك مرثية البحتري للمتوكل وكان حاضرا مقتله والشاعر يشير الى ذلك فهو يقول واصفا المتوكل :

صريع تقاضاه السيوف حشاشة	يجود بها والموت حمر اظافره
ادافع عنه باليدين ولم يكن	ليثني الاعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي	درى الفاتك العجلان كيف اساوره

فهي من البحر الطويل الذي يحتوي على ثماني تفعيلات وهو من اطول الابحر مقاطع في الاوزان العربية •

والمراثي الاخرى المشهورة كمرثية ابن الرومي لابنه الاوسط ومراثي الشريف الرضي الفريدة والذائعة الصيت ومرثية الطغرائي لزوجته الحبيبة التي كان مولعا بها الى درجة كبيرة كما يظهر من القصيدة نفسها كل هذه المراثي من الاوزان كثيرة المقاطع • فمرثية ابن الرومي لابنه الاوسط هي من البحر الطويل ومرثية الشريف الرضي لامه وقصيدته في رثاء الصاحب بن عباد ومرثيته لابي اسحق الصابي هي كلها من البحر الكامل • واخيرا وليس اخرا نستشهد بمرثية الطغرائي الزوجته التي مطلعها :

أعيني جودا بالبكاء واسعدا	فقد جل قدر الرزء عن عبرة تجرى

فهذه من البحر الطويل •

٤ ـ اما مناسبة المدح للبحور كثيرة المقاطع كالطويل والبسيط والكامل فهو رأي منقوض بقصائد كثيرة نجدها عند الشعراء العباسيين • كما في نونية البحتري التي مدح بها « الفتح بن خاقان » والتي يقول فيها :

كفى الفتح بن خاقان	الذي شيد خاقان
على يشبهها « قدس »	اذا ارسى « وشهلان »
فللحاسد أعضاء	اذا عدت واذعان

فهي من بحر الهزج (مفاعيلن مفاعيلن ـ في كل شطر) • وهو كما يظهر من الابحر القصيرة وفي ديوان البحتري كثير من قصائد المدح بالابحر القصيرة • بل ان المدح قد يقع باقصر بحر كما في قصيدة « سلم الخاسر » التي مدح بها « موسى الهادي » فهي من منهوك الرجز • والمنهوك ما ذهب من شطره جزءان وبقي جزء واحد • وقد ذكرها ابن رشيق في العمدة ومنها قوله :

موسى المطر	غيث بكر
ثم انهمر	الوى المرر

كـم اعتسـر	ثـم ايتسـر
وكـم قـدر	ثـم غفـر

ومن هذا يتبين انه لا توجد صلة بين موضوعات الشعر وأوزانه وان تطور الأوزان وميلها الى الخفة والقصر يمكن أن يفسر تفسيرا اجتماعيا وان هناك صلة وثيقة بين التجربة الشعورية وموسيقى الشعر الداخلية . بينما تنعدم هذه الصلة بين التجربة الشعورية والموسيقى الخارجية او الاوزان العروضية .

المراجع :

١ ـ الدكتور ابراهيم انيس ـ موسيقى الشعر . صفحات ١٧٥ الى ١٧٦ و ١٩١ الى ١٩٢ (ط لجنة البيان العربي ١٩٥٢) .

٢ ـ عبدالله الطيب المجذوب ـ المرشد الى فهم أشعار العرب . ج١ صفحات ٧٤ وما بعدها (ط البابي الحلبي ١٩٥٥) .

٣ ـ الدكتور شوقي ضيف ـ التطور والتجديد في الشعر الاموي . صفحات ٢٦ الى ٣٢ و ٢٣٩ وما بعدها و ٣١٨ وما بعدها (ط دار المعارف بمصر ١٩٥٩) .

٤ ـ الدكتور شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . صفحات ٥٩ وما بعدها (ط بيروت ١٩٥٦) .

٥ ـ الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ تراجم « المتنبي والشريف الرضي والصاحب بن عباد » (ط مصر ١٩٤٧) .

٦ ـ الدكتور بدوي طبانه ـ الصاحب بن عباد (سلسلة أعلام العرب ٢٧) .

٧ ـ الدكتور عزالدين اسماعيل ـ التفسير النفسي للادب . صفحات ٧٧ وما بعدها (ط دار المعارف بمصر ١٩٦٣) .

٨ ـ ابو الفرج الاصفهاني ـ الاغاني . الجزء الرابع والثامن (ط دار الكتب المصرية) .

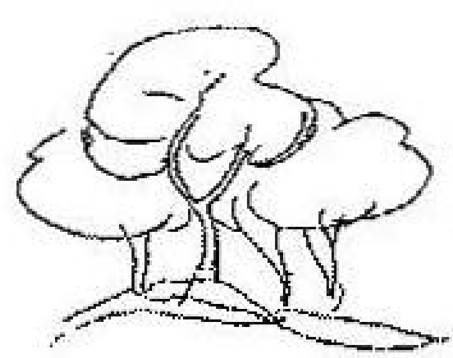
٩ ـ ابن رشيق القيرواني ـ العمدة . الجزء الاول ص ١٨٥ فقط (ط مصر ١٩٥٥) .

١٠ـ ديوان المتنبي (ط مكتبة صادر ـ بيروت ١٩٦٢) .

١١ـ ديوان العباس بن الاحنف ـ (ط دار الكتب المصرية ١٩٥٤) بتحقيق عاتكة الخزرجي .

١٢ـ ديوان البحتري (ط بيروت ١٩١١) .

كم للصبا من طلوب بات يرهقه
منى الشباب وهمّ النفس والحسد
ان الحياة فقاعات أضر .. بها
مر النسيم أيغشى صفوك الزبد ؟
أتترك الأنس للأحزان تحطمه
وتألف الوحدة الثكلى وتبتعد
طويت نفسك مستوراً بصومعة
من وحشة النفس أخفى وجهها الكمد
أستقرء الحزن في عينيك تنطقه
منك اللحاظ ولم يحفل به أحد
كلال نفسك آماد مقطعة
اليأس يثقلها والصبر والنكد
أمن مجاهل روح أنت تحملها
تريق وهمك للصادي فلا يجد
يا سيدي وركاب العمر ماضية
لا ترعوي مستباح دونها الأمد
ماذا جنى طالب اللذات من سفه
والشيب أعول في فوديه ينتقد



مشاهدات تكسيرا

في العراق سنة ١٦٠٤

[ملخصة عن الترجمة الانكليزية]

جعفر الخياط

كان السنيور بيدرو تيكسيرا من الرحالة البرتغاليين الذين طوحوا في الآفاق ، وزاروا المناطق التي خضعت للامبراطورية البرتغالية ردحاً طويلا من الزمن ، وعلى الأخص منطقة الخليج العربي وما كان يحيط بهما من الأمصار والبلاد ٠

وقد أقلع في احدى رحلاته من جزيرة غوا (Goa) الهندية ، مركز النفوذ البرتغالي في تلك الجهات ، يوم ٩ شباط ١٦٠٤ متوجهاً الى ايطالية عن طريق الخليج وما بين النهرين وحلب وقبرص ٠ فمر في طريقه بموانىء الخليج العربي المعروفة وجزره مثل مسقط وقشم وخرق وهرمز وسواحل الجانب الايراني التي يقول ان أغلبية السكان فيها من العرب ٠

وقد وصل تكسيرا الى البصرة في صباح اليوم السادس من شهر آب ، حين رست السفينة التي كانت تقله في السراجي التي كانت ترسو أمامها السفن الكبيرة عادة لتفريغ شحناتها من البضائع ٠ وهو يقول ان هذه السفن كانت ترسو في العادة أمام قلعة كبيرة للاتراك مشيدة على ضفة النهر في صدر السراجي ٠ فغادر السفينة واستقل زورقا صغيرا سار به في النهر المذكور ما بين بساتين النخيل المكتظة وحقول الذرة حتى وصل الى مدينة البصرة ، بعد أن قطع في النهر مسافة تقل عن الفرسخ الواحد ٠

ويأتي على وصف البصرة في تلك الايام فيقول انها تقع في سهل منبسط يبعد عن شط العرب بمسافة ميلين ، وينحصر الاتصال بها عن طريق نهر السراجي نفسه ٠ وتضم في داخل سورها المبني من الطين وخارجه حوالي عشرة آلاف بيت ، عدا الأكواخ الحقيرة المبنية من الخصاص والقصب الذي كان يكثر وجوده في الأنهر المحيطة بها ٠ وكان يحيط

بالمدينة كلها خندق عميق يستمد ماءه من النهر المذكور • ويستفاد من وصفه للمدينة انها كانت في تلك الأيام ذات تجارة رائجة ، وتشيع فيها معظم الصناعات والحرف اليدوية المعروفة •

وقد كانت حامية البصرة وحكومتها تتألف ، على مايذكره تكسيرا ، من ثلاثة آلاف رجل من الأتراك والعرب والأكراد ، عدا جنود القلاع الموجودة في الخارج • وكان يرأس هؤلاء جميعاً الپاشا الذي كانت تنحصر في شخصه جميع السلطات المدنية والعسكرية • وكانت هناك دائرة كمرك خاصة تدر على الحكومة واردات كثيرة تكفي لسد النفقات التي تحتاجها الحامية وسائر الدوائر الحكومية ، علاوة على الفضلة الوفيرة التي كانت تزيد على النفقات فتذهب الى خزانة الپاشوية • وقد وجد تكسيرا في ترسانة الميناء عددا من المدافع الضخمة ، والسفن التي لا تصلح الا لمطاردة رجال القبائل واستحصال الضرائب منهم •

ومما يأتي على ذكره تكسيرا انه حينما وصل الى البصرة وجد فيها شيئاً يلفت النظر ، وهو ان عددا غير يسير من بيوتها الصغيرة والكبيرة كان خربا متهدما ، وان العمل كان يجري بسرعة لاعادة تشييد القسم الأكبر منها • وقد تهدم هذا العدد الكبير من البيوت قبل أن يصل اليها بمدة ثمانية أو عشرة أيام بسبب انفجار مروع حصل بغتة في مخزن البارود العائد للحكومة ، فاهتزت من جرائه أرجاء المدينة كلها وأتت النار على خمسة آلاف كيس من البارود كانت مخزونة فيه •

وقد وجد في البصرة كذلك ان جميع أنواع العملة الذهب والفضة كانت متداولة فيها ، لكن العملة التي كانت تسك في البصرة نفسها كانت عملة النحاس والفضة فقط • وقد كانت اللاريات من الفضة ، وهي عملة طويلة الشكل لها فرعان مبرومان ، وتبلغ قيمة اللارين الواحد (٦٥) ماقريدي أو ما يعادل ثمانية بنسات • أما الأخرى فهي « الشاهي » ، وهي مدورة الشكل مثل العملة الملكية ، وتكاد تقارب الأولى في قيمتها أي تعادل حوالي الست بنسات •

ولم يجد تكسيرا أبنية مهمة في البصرة يمكن أن يأتي على ذكرها ، غير انه يتطرق الى ذكر الحمامات العامة ووصفها ويشير الى كونها كانت تفتح للرجال من الصباح الى حد الظهر وللنساء من الظهر الى مغيب الشمس • ومما يذكره كذلك انه ذهب مع أحد الذين تعرف عليهم في البلد لزيارة الشيخ محمد بن راشد الذي كان يملك أراض ومقاطعات زراعية شاسعة تقع على ثلاثة فراسخ من البلدة • وقد تحدث الشيخ معه كثيرا بواسطة المترجم وسأله عن كل شيء تقريبا ، فتعجب من وضعه وحديثه لأنه لم يكن قد شاهد أي افرنجي من قبل • ولعل هذا الشيخ من أبناء راشد المغامس الذي كان أميرا مستقلا يحكم البصرة ويسك النقود باسمه في منتصف القرن السادس عشر ، وهو الذي بعث بابنه ووزيره الى

السلطان سليمان في استانبول ومعهما مفاتيح البصرة التي قدماها الى البادشاه المظفر بعد أن انتزع بغداد من الشاه اسماعيل الصفوي • ويؤيد رأينا هذا قول الرحالة تكسيرا في الرحلة ان البصرة حينما زارها في أوائل القرن السابع عشر لم يكن قد مر على وقوعهـا في أيدي الأتراك الا مدة تقارب الخمسين سنة •

وقد تعاقد تكسيرا مع رئيس احدى القوافل التي تسير الى بغداد عن طريق البادية على أن يوصله الى بغداد مع (عفشه) ولوازمه لقاء مبلغ مقطوع قدره خمسون دوكات • وكان رئيس القافلة رجلا من أهالي البصرة يدعى الحاج محمد بن صالح العرفاني ، تعرف عليه تكسيرا عن طريق رجل كان يهودياً فأسلم وسمي نفسه مصطفى ، وكان التجار البرتغاليون والبندقيون الموجودون في البصرة يضعون ثقتهم فيه • ومن طريف مايشير اليه رحالتنا هذا أنه أخذ معه من البصرة الى بغداد ثلاثة أكياس من النيل ليتلافى بثمنها نفقات سفره ورحلته •

وفي اليوم الثاني من أيلول ودع تكسيرا أصدقاءه كما يقول ، واتجه مع من كان معه نحو سهل فسيح في جنوب البلدة كان من عادة البصريين أن يجتمعوا فيه أيام الجمع للبيع والشراء والتسلي بألعاب الفروسية وركوب الخيل • والظاهر أنه يقصد بذلك السوق الاسبوعية التي كانت تقام في كثير من المدن والبلدان العراقية في سالف العصر والزمان • وبعد أن تجمع أفراد القافلة هناك ساروا في طريقهم الذي كان يتجه الى الجنوب في بادىء الأمر ، ثم تابعوا سيرهم في سهل كان يتعرض للفيضان في كل سنة ، ولذلك وجده مغطى بطبقات الملح البيضاء التي كان يخلفها التبخر الشديد فوق سطح التربة • وبعد ذلك سارت القافلة فوق سد ترابي عال يمتد الى مسافة أربعة فراسخ حتى وصلت الى منطقة الدريهمية المعروفة بهذا الاسم حتى يومنا هذا ، حيث باتوا ليلتهم تلك ما بين أنقاض البصرة القديمة التي يقول انها كانت بلدة كبيرة على ما يبدو في نظره • ولم يذكر عن هذه الأنقاض سوى الاشارة الى جدران الجامع الكبير ، وبعض الجدران التي كانت تحيط بالبلدة مع الخندق • ولعله يشير بذلك الى جامع الامام علي المشهور هناك والذي لم يبق منه في الوقت الحاضر سوى ركن من أركانه الأثرية • أو لعله يشير بذلك الى بلدة الزبير الحالية القريبة من الدريهمية ، لانه لم يذكر في رحلته شيئاً عن البلدة المذكورة ولا عن القبب التي ربما لم تكن قد انشئت فيها بعد • ثم تابعت القافلة سيرها نحو الجنوب حتى وصلت منطقة جبل سنام الذي يشبهه بالجزيرة القائمة في وسط البحر نظرا لانبساط السهول المحيطة به من جميع الجهات • وقد وقفت القافلة في البرجسية القريبة الى الجبل المذكور حول عدد من الآبار الحاوية على مياه صالحة للشرب • وهو يقول ان الطريق الذي سلكته

القافلة هو نفس الطريق الذي كان يسلكه الحجاج مابين البصره ومكة المكرمة .

وبعد أن تجمعت القافلة هناك ، وقد كانت صغيرة على حد قوله لأنها لم تكن تتألف الا من مئة وخمسين جملا وخمسة وتسعين حمارا واثني عشر حصاناً فقط ، اتجهت في سيرها نحو الشمال الغربي حتى وصلت بعد ستة أيام من المسير الى قلعة في وسط البادية كانت تسمى « القصر » . وقد كانت تعود على ما يقول الى الشيخ محمد بن راشد الذي كان قد زاره في البصرة ، وفيها دفعت القافلة الرسوم المقتضية لرجال الشيخ المذكور . والظاهر ان هذه النقطة كانت تقع في منتصف الطريق ما بين البصرة والنجف التي يطلق عليها تكسيرا اسم « مشهد علي » .

ثم تمادت القافلة في سيرها المتجه الى الشمال تارة ، والشمال الغربي تارة أخرى ، حتى وصلت بعد سبعة أيام الى موقع فيه آبار وعيون تسمى عيون السيد . والمعتقد ان هذه الآبار لاتزال موجودة حتى الآن ، ولا يزال يطلق عليها هذا الاسم أيضاً ، وهي تقع فيما يقرب من الرحبة المعروفة . ويقول تكسيرا أنهم وجدوا بلدة قديمة كبيرة فيها ، مع عدد من النخيل وبعض الشجيرات . وبعد أن تركوا عيون السيد ، وتابعوا السير لمدة ثلاثة أيام أخرى ، بانت لهم من بعيد بحيرة واسعة الأرجاء متكونة من مياه الفرات في وسط البادية . ولا شك انه يقصد بذلك مايسمى في يومنا هذا « بحر النجف » .

وبعد مسيرة يومين مرت فيهما القافلة بأماكن تتوفر فيها المياه الغزيرة ، وتمتد من حولها مزارع الشعير والحنطة والقطن والخضراوات كما يقول تكسيرا ، بانت لهم مدينة النجف من بعيد وكأنها تطل من موقعها العالي على البحيرة المذكورة . ثم وصلت القافلة الى مكان في رأس البحيرة ونزلت في موقع مناسب يقرب منه فاستضافها هناك رجل يقال له الشيخ علاوي ، وقد أصبح صديقاً حميماً لتكسيرا على مايظهر لانه يسميه « صديقي العظيم » . وفي هذه المرحلة يصف بحيرة النجف بقوله انها تستمد ماءها من الفرات ، ولذلك يلاحظ ازدياد مقاديره في مواسم الطغيان، وليس لها شكل معين لكنها تمتد بطولها حتى يبلغ محيطها خمسة وثلاثين الى أربعين فرسخا ، وهناك فيما يقرب من منتصفها ممر ضحل تستطيع الحيوانات اجتيازه خوضا في المواسم التي تقل فيها المياه في البحيرة . ويقول ان البحيرة شديدة الملوحة ، ولذلك يستخرج منها الملح للاستهلاك في بغداد والمناطق المجاورة . ومع ملوحتها هذه يكثر فيها السمك بحجومه وأنواعه المختلفة ، ولهذا السبب يسميها الناس هناك «بحيرة الرحمة» .

وقد وصلت القافلة الى النجف في مساء يوم من الأيام فقصدت خاناً من الخانات الكبيرة التي تشبه في شكلها ومنظرها العام الصوامع الموجودة في البلاد الأوربية . ولعل هذا الخان هو الخان القديم الذي يطلق عليه

الآن في النجف «الشيلان» ، أو قد يكون خاناً آخر يشبهه • وبعد أن يأتي على الجوانب التاريخية المعروفة للمكان وكيفية دفن الامام (ع) في هذه البقعة يأخذ بوصف الروضة الحيدرية وبنائها وزخرفتها • لكنه لايشير الى القباب والمآذن بشيء ، وانما يذكر ان البلدة كلها كانت تبدو فيها أمارات الخراب والاهمال • فبعد أن كانت تحتري على ستة الاف الى سبعة الاف دار مبنية باتقان في الغالب أصبحت حينما زارها تكسيرا لايزيد عدد بيوتها المسكونة على الستمئة فقط •

ويقول أيضاً ان البلدة كانت محاطة بسور امتدت اليه يد الاهمال كذلك ، فأصبحت تلاحظ فيه الكسرات في عدة امكنة • وقد كانت البلدة تستقي ماءها من الآبار كما هو معروف ، لكنه لم يكن عذباً يستسيغه الشارب • ولذلك فان الذين كانوا يريدون الماء العذب الفرات كان عليهم أن يأتوا به من جدول خاص كان السلطان سليم قد حفره لايصال الماء من نهر الفرات نفسه ، لكنه لم يصل الا الى مسافة غير يسيرة منها • على ان تكسيرا يقول انهم لم يستطيعوا استساغة هذا الماء حينما وصلوا اليه لأنه كان متعفناً راكداً • ويقول كذلك ان البلدة كانت بها حاجة ماسة الى الكثير من الحاجات المهمة مثل الخشب والغنم والدجاج والحنطة والشعير والفاكهة والخضراوات ، ولذلك كان يؤتى بها من الخارج على الدوام • وعلى هذا فقد كان طعام السكان معظمهم ينحصر في التمر والحليب وخبز الحنطة والشعير • ومع ان البحيرة كان يتيسر فيها السمك فان سكان النجف لم يكونوا يستفيدون منه الا بمقدار قليل•

ومما يذكره عن النجف يومذاك أيضاً ان أهاليها أناس بيض في الغالب ، وأنهم يحرمون الاختلاط بالنصارى واليهود • ويقول كذلك ان آثار الأسواق العامرة المبنية بالطابوق كانت لاتزال شاخصة للعيان ، وان الروضة المقدسة كان فيها الكثير من النفائس الثمينة ومنها ثلاث ثريات من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة • وكان عدد من الامراء المسلمين قد أهدوا هذه الى الحضرة المطهرة •

ثم يتطرق الى الكلام عن الحكم في البلاد ويذكر ان النجف كانت تخضع في تلك الأيام الى الاتراك الذين كان يدفع لهم اميرها العربي شيئاً غير يسير من الأتاوى • ولعله يقصد ناصر المهنا الذي يقول تكسيرا انه كان يقيم بالقرب من كربلا • ويذكر كذلك ان النجف كان فيها حامية تتألف من خمسين جندياً من الاتراك ، وان هؤلاء لم يكونوا موجودين في البلد يوم زارها هو لأنهم كانوا قد سحبوا الى بغداد بسبب الحرب التي كانت ناشبة مع الايرانيين • ولذلك كان السكان أحرارا فيما يفعلون ، حتى انهم كانوا يرتكبون الكثير من أعمال العنف والتعدي من دون خوف أو حياء •

وحينما ارتحلت القافلة عن النجف توجهت الى كربلا فوصلتها في

يوم الجمعة المصادف ٢٤ أيلول ١٦٠٤ ، ونزلت في احدى الخانات العامرة التي كان بناؤها للزوار يعد من الأعمال الخيرية • ويقول تكسيرا ان كربلا ، التي يسميها مشهد الحسين ، كانت بلدة مفتوحة تحتوي على أربعة آلاف بيت معظمها من البيوت الحقيرة • وكان سكانها من العرب ، والأتراك الذين كانوا يعينون للاشراف على المناطق المحيطة بها كذلك ، لكنهم كلهم كانوا يومذاك قد انسحبوا الى بغداد بسبب الحرب مع الايرانيين فأدى ذلك الى رحيل العجم عنها أيضاً لأنهم لم يعودوا يشعرون بالأمان والطمأنينة •

وقد كانت أسواقها مبنية بناء محكما بالطابوق ، وملأى بالحاجات والسلع التجارية لتردد الكثيرين من الناس عليها • وبعد أن يشير الى وجود الروضة الحسينية وتردد المسلمين على زيارتها من جميع الجهات يتطرق الى ذكر السقاة الذين كانوا يسقون الماء للناس في سبيل الله وطلبا للأجر • ويقول انهم كانوا يدورون بقربهم الجلدية الملأى بالماء ، وهم يحملون بأيديهم طاسات النحاس الجميلة • ثم يشير الى تيسر الأرزاق ورخصها ، وتوفر المأكولات بكثرة مثل الحنطة والرز والشعير والفواكه والخضروات واللحوم • والى لطف الهواء فيها وكون الجو فيها أحسن منه في جميع الأماكن التي أتى على ذكرها من قبل • وقد وجد في كربلا عددا من الآبار العامة الحاوية على الماء العذب الجيد جدا ، وكثيرا من الاشجار ، وبعض أنواع الفاكهة الاوربية على حد تعبيره • وكانت الاراضي تسقى من جدول خاص يتفرع من الفرات الذي يبعد عن البلدة بثمانية فراسخ • وكان هناك بالاضافة الى ذلك عدد كبير من الاغنام والماشية التي شاهدها ترعى في المراعي المحيطة بالبلدة • وفي نهايتها من جهة الفرات كانت هناك بركتان كبيرتان من الماء مربعتا الشكل ، وهو يعتقد انهما كانتا قد انشئتا للتسلية وشؤون النزهة ، مستدلا على ذلك بما شاهده من أطلال بعض الأبنية والملاجيء الموقتة من حولهما • ولعلها مواقع المخيمات التي كانت تنصب للزوار في مواسم الزيارات الكبيرة •

وهنا يشير الى ان كربلا والنجف كانتا تخضعان يومذاك الى المير ناصر ، أي ناصر المهنا الذي يطلق عليه لقب «ملك» • كما يشير الى أنه كان تابعا للاتراك الذين كانوا يغتصبون واردات الأراضي الممتدة في المنطقة • ومع هذا كله فقد شاهد تكسيرا بنفسه الأعراب التابعين للمير ناصر يبيعون في وضح النهار خيول وأثاث وملابس وأسلحة أربعة وثلاثين تركياً من رجال الحكومة بعد أن قتلوهم وسلبوهم مايملكون • وهذا يدل بلا شك على مقدار الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في تلك الجهات ، وهو يعزوها الى انشغال الحكومة بالحرب مع ايران • ومما يذكره في هذه المناسبة أيضا أنه وجد في الخان الذي كان ينزل فيه أربعين سكمانياً مع ضابطهم الخاص ، والسكمانيون هم من الجيش المحلي العائد للحكومة • وقد كان الناس

يخشونهم لأنهم كانوا متعودين على التجاوز على الناس في كل فرصة او مناسبة ، وكانوا من دون وجدان أو شرف أو ضبط على قوله ٠

وبعد اقامة ثمانية أيام في كربلا توجه تكسيرا الى بغداد مع القافلة في اليوم الثاني من تشرين الأول ٠ وقد سلكت القافلة طريق الحسينية المعروف على ما يبدو ، وعبرت الفرات من مكان كان فيه خان حصين واسع الأرجاء بعد أن قضوا ليلتهم فيه ٠ وقد تم العبور بعبارتين خاصتين تقاضى أصحابهما من أفراد القافلة «معدن» واحدا عن الشخص الواحد أو الحمل الواحد ، وهي عملة فضة تعادل في سعرها أحد عشر «ماقويدي» أو بنسا ونصفا ٠ وقد استغرق عبور القافلة من طلوع الشمس حتى العاشرة زوالية قبل الظهر ٠ وهو يقول أنهم وجدوا في الجهة المقابلة ،وهي جهة ما بين النهرين على حد تعبيره ، خانا كبيرا آخر يقوم في موقع مناسب على الفرات فوق أنقاض مدينة قديمة كانت تسمى « المسيب » ٠ والظاهر أن بلدة المسيب كانت موجودة قبل ذلك التاريخ (١٦٠٤) فتهدمت ، وعادت الى الوجود من جديد بعده ٠ وقد كان يبدو للناظر هناك بقايا سورها المحاط ببساتين وحقول يانعة تستمد ماءها من الفرات بواسطة (ماكنة خاصة تتألف من عدة قرب وتسحبها الثيران) ٠

وحينما سارت القافلة في طريقها الى بغداد مرت بخان كان مبنيا بين عدد من التلول ، وكانت قد شيدته للأجر والثواب امرأة محسنة قيل انها كانت زوجة أحد ضباط الباب العالي الكبار ٠ ولعل موقع الخان هذا هو في « خان الحصوة » الذي كان يشاهد قائما ما بين عدد من التلول الى ماقبل عدة سنوات فيما يقرب من «القرية العصرية» الحالية الكائنة في مفرق الحلة ــ كربلا على الطريق العام الى الحلة ٠ وقد مرت القافلة بعد ذلك في خان آخر يقوم في موقع يقال له « بير النص » ٠ وربما كان هذا الخان في موقع مخفر الشرطة الحالي الذي لايزال يسمى بهذا الاسم نفسه ٠ وقد وجدوا فيه عشرة الى اثني عشر جنديا من الجنود الاتراك للمحافظة على الأمن في الطريق ٠ وأخيرا وصل تكسيرا الى بغداد في يوم الاثنين ٤ تشرين الثاني ١٦٠٤ ، فكان في استقباله رجل ألماني مقيم في بغداد اسمه يواكيم أوزمكروخ ، كان قد تعرف عليه قبل سنوات في الهند ، فأخذه الى بيته وأقام فيه ٠ وقد دخل جانب الكرخ من باب الحلة فعبر الخندق العريض العميق المحيط به من فوق قنطرة من القنطرتين الوحيدتين الممتدتين عليه ٠ وهو يقول ان الخندق حينما حفر اخذ ترابه فأقيمت به سدة ترابية عالية بالقرب من الخندق لتقوم مقام السور الذي يرد عادية الأعراب وهجماتهم عن ضاحية الكرخ ٠ وقد فعل ذلك في سنة ١٦٠١ حسن باشا الوزير ، الذي شيد في المنطقة نفسها سوقا وخانا ومقهى وبناها كلها بشكل متقن ممتاز ، فظلت تحمل اسمه ردحا من الزمن ٠ وكانت أبواب الخان والجامع الجديد ، الذي بناه الباشا نفسه (والذي لايزال يسمى

جامع الوزير) ، مبنية بالحجر الذي يؤتى به من الموصل • ويفهم مما كتبه رحالتنا هذا ان جانب الكرخ كان فيه يومذاك حوالي ثلاثة الاف بيت مسكون ، مع أسواق وحمامات عامة وخانات للقوافل •

أما جانب الرصافة فقد كان يتصل بالكرخ بواسطة جسر طوله مئتان وخمسون خطوة كما يقول تكسيرا • ويتكون من (٢٨) زورقا كبيرا يحجز بين كل اثنين منهما فراغ بعرض أحد الزوارق نفسها ، أي بعرض ٤ خطوات • وكان هذا الجسر يربط من الطرفين بالجدران والبيوت بسلاسل ضخمة من الحديد ، ويقطع كل ليلة ، وفي أثناء النهار لعبور السفن أو عندما تشتد الريح والعواصف • وقد كان الجسر يقطع كذلك أثناء النهار في أيام الجمع حينما يكون الباشا والناس في الجوامع والمساجد لتأدية صلاة الجمعة ، ثم يفتح من جديد بعد انتهائهم منها • وكان أصحاب البضائع والأحمال يدفعون رسوما خاصة للعبرية بمقدار «معدن» أو پنس ونصف لكل حمل • هذا ويعتقد تكسيرا أن ماء دجلة أصفى وأنقى وأخف وأعذب بكثير من ماء الفرات ، وان الكثير من الأسماك تعيش فيه فيأكل منها المسلمون •

ومن طريف ما يتطرق اليه وجود المقاهي الجميلة المطلة على دجلة في جانبي الكرخ والرصافة • وهو يصف القهوة وكيفية صنعها وتقديمها وصفا يستفاد منه أنها لم تكن معروفة عند الاوربيين في تلك الايام ، ويشير الى أنها كانت تستورد من بلاد العرب الى العراق وأيران والبلاد التركية • ويضيف الى ذلك قوله ان أصحاب المقاهي كانوا يستخدمون الفتيان الوصيميين والموسيقى لاجتذاب الزبائن ، وان الذين يرتادون المقاهي كان يزداد عددهم في ليالي الصيف ونهارات الشتاء •

وقد كان القادم من الكرخ الى الرصافة عن طريق الجسر يدخلها من باب كبيرة توجد بجانبها بوابات صغيرة خمس تؤدي الى النهر • وكانت الرصافة ، التي يعتبرها تكسيرا مدينة بغداد نفسها ، يبلغ طول صدرها المطل على النهر حوالي ميل واحد تقع في طرفه الشمالي القلعة التى كان يسكنها الباشا الوالي • وهي متسعة أكثر من كونها حصينة منيعة ، ويحيط بها خندق يبلغ عمقه ثمانية أذرع وعرضه اثني عشر ذراعا • وكان الباشا يسكن في داخلها مع حرسه الخاص وحاشيته ومتعلقيه الذين يعتمدون عليه في معيشتهم ، ويبلغ عددهم ما بين الألف وخمس مئة والألفين • وتتصل باب القلعة الجنوبية بسور المدينة الذي تنفتح فيه باب كبيرة تؤدي الى طريق ايران • ويحيط بالمدينة من تلك الجهة سهل واسع وأراض خصبة تحرث وتزرع في كل سنة • وقد تغمر هذا السهل في بعض السنين مياه الفيضان فتضطر الناس الى التنقل فيه بالزوارق •

ويبلغ طول السور المحيط بالمدينة حوالي فرسخ ونصف ، وهو يدور حولها على شكل شبه دائري تتصل نهايته بالنهر • لكن هذا القوس الكبير

فيه عدد من الزوايا للأغراض الدفاعية • وكان في السور بابان أخريان تؤديان الى البر ، أحدهما تقع في وسط السور وتقع الأخرى في نهايته • ويدور حوله خندق عميق ، كما انه مبني بالطابوق وفيه عدد من الزوايا والحصون التي تكون أربعة منها بارزة كبيرة ومبنية بناء محكما لتتحمل هزات المدفعية المنصوبة فوقها • فهناك عدد من المدافع الثقيلة الجيدة ، المصنوعة كلها من النحاس الاصفر •

وللباشا في بغداد السلطة العليا المطلقة في الشؤون المدنية والعسكرية على ما يروي تكسيرا • غير ان الغرباء كان لهم حام خاص يعينه السلطان للعناية بهم وحماية تجارهم من تعديات الضباط وغيرهم • وهو يقوم بعمله بجد واخلاص ، كما ثبت لتكسيرا من حادثة معينة شاهدها بنفسه • فقد لاحظ ان هذا الموظف الجريء اضطر من أجـل حماية رجل من الأجانب والمحافظة على حقوقه الى توقيف بعض الضباط الكبار واجبار الباشا على الكف عما كان يعتزم القيام به •

أما القوات العسكرية التي كانت معينة للدفاع عن المدينة والمناطق المرتبطة بها فيبلغ عددها بوجه عام حوالي أربعة عشر الف رجل من الخيالة والمشاة معاً • وقد كان يقيم حوالي أربعة الى خمسة الاف جندي من هؤلاء في المدينـــة ، وكان ينتمي حوالي ألف وخمس مئة من هؤلاء الى الجنود الانكشارية •

وقد كانت توجد في المدينة يومذاك أطلال بارزة لعـــدد من الأبنية المهمة التي كانت عامرة حينما كانت بغداد في أيدي الايرانيين كما يروي تكسيرا ، مثل جامع الخلفاء وبعض الأبنية الاخرى المطلة على النهر ، ومثل المدرسة التي كانت مستشفى في يوم من الأيام وتقود الأسواق وبعض المآذن التي أخذت تتهدم بمرور الزمن • وفيما عدا أطلال هذه الأبنية لم يشاهـد رحالتنا من الأبنية التي تستحق الذكر سوى جامعين كبيرين : أحـدهما الجامع الذي يشاهده الداخل من باب المدينة الكبرى الى يساره ، وقـد أنشأه الباشا ليصلي فيه هو نفسه تخليدا لولي من أولياء الله يقدسه بصفة خاصة • وهو على ما يبدو من الخارج بنـاء باهض التكاليف لم يستطع تكسيرا الدخول اليه لأن غير المسلمين كانوا يمنعون من الدخول الى الجوامع والأماكن المقدسة ، واذا صادف أن تمكن أحدهم من الدخول وقبض عليه فهو اما أن يقتل أو يجبر على ترك دينه واعتناق الديانة الاسلامية • وكان الجامع الآخر الذي لفت نظره يقع في نهـاية المدينة بالقرب من بساتين النخيل ، وكان هذا الجامع ينقل الماء من النهر اليه من فوق قنطرة خاصة بطريقة بارعة •

ومع ان ثلث المساحة التي كانت منحصرة داخل أسوار بغداد في تلك الأيام كانت عبارة عن فضاء خال أو ممتلىء بالنخيل فانها كان يوجد فيهـا

على ما يقول تكسيرا فوق الألفي بيت[1] . وكان أغلب هذه البيوت من البيوت الكبيرة المتسعة ، لكن بناءها كان حقيرا في الغالب ، وسطوحها منبسطة دائما ، وأغلبها لاتطل شبابيكها على الطريق وأبوابها صغيرة جدا . وكانت جميع هذه البيوت مبنية بالطابوق المستعمل القديم الذي كان يؤتى به من خرائب الأبنية الأثرية القديمة ، ولذلك فان الكثيرين من السكان كانوا يعيشون على التنقيب عن هذا الطابوق ونقله الى حيث كانوا يبيعونه. ومن أجل هذا كان الذي يخرج الى مسافة أربعة أو خمسة أميال في خارج ضاحية الكرخ يجد الأرض ملأى بالحفر الكبيرة التي كان البعض منها عميقاً جدا .

أما سكان بغداد فيقول رحالتنا عنهم ان معظمهم كانوا من العرب المتحضرين ، والبقية من الاتراك والاكراد والعجم . لكن العجم لم يكونوا كثيرين في تلك الأيام لأن قسما كبيرا منهم كان قد غادر المدينة بسبب الحرب مع ايران . وكان هناك حوالي مئتين أو ثلاث مئة بيت لليهود ، ويدعي سكان عشرة أو خمسة عشر بيتا من تلك البيوت بأن آباءهم وأجدادهم كانوا قد وجدوا في العراق منذ أيام سبي بابل على عهد بختنصر. وكان اليهود يعيشون في محلتهم الخاصة مع مطلق الحرية لمعابدهم وعباداتهم . أما النصارى فقد كان هناك منهم عشرة بيوت للأرمن وثمانون بيتا للمنسطوريين . ويقول تكسيرا ان سكان بغداد على العموم بيض في سحنهم ، ووسيمون في شكلهم ، ولطيفو المعشر ، وكان الرجال منهم يركبون الخيل في الغالب ، وهم نظيفون يلبسون الألبسة الثمينة . وكذلك كان النساء اللواتي كن جميلات في الغالب وذوات عيون ساحرة . وقد كن يتحجبن في الشوارع بأحجبة غير سوداء ، ويضعن فوق أوجههن براقع رقيقة سوداء يمكنهن النظر من خلالها .

وكان هناك كذلك عدد كبير من الحمامات العامة التي تثير في الغريب شيئا كثيرا من حب الاستطلاع ، وكان بعضها يخصص للنساء فقط . وقد كان يوجد في وسط المدينة على مسافة قريبة من النهر سبعة أو ثمانية أسواق طويلة تمتلىء دكاكينها بالسلع المختلفة والمنتجات المحلية ، بالاضافة الى الكثير من الخانات التي كان يشتغل فيها التجار بأعمالهم . وكانت كلها تسد في الليل وتقفل بسلاسل الحديد . ويذكر تكسيرا في هذه المناسبة ان الأسواق كان لها « بلوك باشي » خاص يتولى حماية البائعين والشارين معا ، ويمنع حصول الاعتداء أو الغش . وقد كان يعمل أيضا على حل المنازعات بالحسنى أو بالقوة كما تقتضيه الظروف والأحوال . وحينما يعجز عن ذلك كان يأخذ المتخاصمين الى القاضي . وهذه في رأي تكسيرا كانت طريقة ممتازة ذات تأثير بين في المحافظة على حقوق الناس.

---

(1) يبدو ان صاحب الرحلة قد اخطأ في هذا التقدير الى حد كبير ، خاصة اذا ما قارنا هذا بما ذكره عن عدد بيوت البصرة وكربلاء وغيرهما .

وهو يقول انه لم ير خلال الشهرين اللذين أقام فيهما ببغداد أي تخاصم بين الناس في الأسواق أو اعتــــداء عليهم ، برغم ظروف الحرب وكثرة وجود الجنود •

وقد كانت بغداد تتمتع بجو صحي مناسب في تلك الأيام • كما كان الناس يستخدمون الخيل والبغال والحمير والجمال والثيران لنقل الأحمال والأمتعة ، ولذلك كان يلاحظ وجود العدد الكبير من هذه الحيوانات كلها ، ويقول تكسيرا كذلك ان البلاد كانت تنتج الكثير من القطن والحرير ، وكانت هذه المنتجات تغزل كلها فتستخدم في الصناعة المحلية ببغداد التي كان يوجد فيها ما يزيد على أربعة آلاف نول لحياكة الأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية ومنسوجات الكتان ، وجميع هذه الأنوال كانت دائبة في شغلها وغير عاطلة عن العمل •

ومما يذكره تكسيرا أيضا ان جميع سكان بغداد تقريبا كانوا يتكلمون بثلاث لغات : العربية والتركية والفارسية ، لكن اللغة الغالبة كانت التركية على ما يقول • وقد كان التجار في أيام الســـلم ، وحتى في أيام الحرب ، يترددون على بغداد من الهند وايران ومعهم بضائع وسلع وافرة عن طريق البصرة والنهر أو البر • وكانوا يردون كذلك من ديار بكر وحلب ودمشق وطرابلس وسائر البلاد مع أنواع المنتجات والسلع • وكانت هناك ثلاثة مراكز للكمرك يستوفي كل منها الرسوم المقررة ، وكان أحدها في جانب الكرخ للقادمين من سورية ، والمركزان الآخران في الرصافة للقادمين من سائر الجهات • وكانت هناك بالاضافة الى ذلك دار لسك النقود الذهب والفضة والنحاس ، وداران للتدريب على الرماية بالقوس والنار معا • ومن الاشياء الاخرى التي لاحظها تكسيرا بعناية خاصة على ما يظهر وجود سوق كبير في بغداد لصاغة الذهب والفضة ، الذين كانوا كلهم من المسلمين • وكان هؤلاء يصنعون الكثير من المصوغات والمصنوعات الثمينة والغريبة •

أما الباشا الذي كان متربعا على دست الحكم في بغداد حينما زارها تكسيرا فهو خصي جركسي يدعى يوسف باشا على ما يذكر • وكان هذا الباشا يحكم في البصرة ثم نقل الى بغداد ، وغادر البصرة متوجها اليها قبل وصول تكسيرا نفسه الى البصرة من الهند بثـــلاثة أيام • ومن طريف مايذكره في الرحلة ان منصب يوسف باشا كانت تقدر قيمته بمئتي ألف جيقين ، أو حوالي مئتين وخمسين ألف دوكات • والجيقين عملة يطلق عليها في بعض المراجع (سكن) وهي اسم خاص للدنانير العثمانية والبندقية الذهب القديمة ، وتقدر قيمة الواحد منها بتسعة شلنات • ثم يقول ان قيمة هذا المنصب تقدر بأكثر من هذا في أيام الحرب ، لأن الباشا عنـــد ذاك يخول صلاحيات استثنائية لا حدود لها • وحينما كانت قافلة تكسيرا موشكة على مغادرة بغداد وصل اليها من استانبول كما يذكر خمسة عشر مبعوثا (قبوجيا) ملــكيا يحملون الفرمان بتعيينه في الولاية لمــدة سبع

سنوات • وقد جاءوا مع الفرمان بالخلعة والسيف والسلسلة الذهبية ، وكانت هذه هدايا السلطان التي يخلعها على من يقرر ترفيعه الى مثل هذه المرتبـــة الكبيرة • ومن الجدير بالذكر ان أول باشـــوية من باشويات الامبراطورية العثمانية التي كانت تمنح الخلعة وسائر الهدايا عند تعيين من ينسب لاشغالها كانت باشوية مصر ، والثانية باشوية بغداد ، والثالثة باشوية تبريز على حد قول تكسيرا في الرحلة •

ومن الحوادث التاريخية التي يذكرها أيضا قوله أنهم حينما دخلوا الى بغداد كان أهلها في حالة ذعر وخوف شديد من الايرانيين • ويشير بذلك الى الحادثة التي شن فيها الله ويردي خان أحد قواد الشاه عبـاس الصفوي غزوة مفاجئة على بغداد وأسر خارج أسوارها ثلاث مئة أسير ، ثم عاد من حيث أتى بسرعة • كما يشير الى الهجمات التي شنها الايرانيون بعد هذا الحادث على الأنحاء الشمالية من العراق •

وقد جاء في الرحلة ما يفهم منه ان تكسيرا اضطر الى التأخر في بغداد بسبب الحالة السيئة التي كانت موجودة في حلب ، لأنه كان يريد السفر عن طريقها الى استانبول • فقد بقيت حلب في حالة حصار لمدة ثلاثة أشهر لأن الباشا الذي كان يحكم فيها رفض الاذعان لأوامر السلطان الصـــادرة بتحويله منها ووقف في وجه الباشا الجديد الذي تعين في مكانه • وأخيرا انفرجت الأزمة فرحلت قافلة تكسيرا عن بغداد في صباح الاثنين المصادف ١٣ كانون الأول ١٦٠٤ متجهة الى حلب عن طريق عانة ، وقد كانت تتألف من مئة وثلاثين جملا وخمسة وسبعين حمارا •

وبعد أن قطعت القافلة فرسخا ونصف لا غير وقفت لتدفع الرسوم أو الأتاوى الى وكلاء المير ناصر المهنا أمير البادية الذي كان مسيطرا على منطقة كربلا والنجف أيضا • وكانت النقطة هذه تسمى « باش دولاب » ، ثم تابعت القافلة سيرها المعتاد معقبة طريق الضـفة اليسرى من الفرات (جهة ما بين النهرين أو الجزيرة) فمرت بخرائب عقرقوف ، والعويتات ، وام الروس ، ومشهد السندابية ، وعگلة الشيخ محمد ، والمنزل ، وكمكمة، وأبو رجمو ، والسيلات ، ومن هناك تفرق المسافرون فذهب بعضهم متوجها الى هيت وبعضهم الآخر الى حديثة ، وآخرون الى جبه من عدة طرق تؤدي الى النهـــر ، وحينما استأنفت القـــافلة سيرها الى عانة مرت بالزوية ، والناصرية ، ومضيق الناصرية ، ووادي جربه وهو حدود بلدة عانة كما تقول الرحلة • وقد وصلت القافلة الى عانة في صباح يوم الجمعة المصادف ٢٤ من الشهر ، ولكن بعد أن باتت ليلتها الأخيرة في صوب الجزيرة كما كان يسميه الأهلون ، وهو صوب راوة ، فعبر الى عانة نفسها (أي صوب الشامية) رفيق تكسيرا للحصول على رخصة بالدخول اليها من سلطات الشيخ أبي ريشة أمير البادية في تلك الجهات • وقد استغرق الطريق من بغداد الى عانة أحد عشر يوما •

لكن تكسيرا لم يورد اسم راوة مطلقا ، غير انه على ما يظهر كان يعتبرها الجانب الثاني من عانة نفسها ويقول في وصفها ان جانب بين النهرين من البلدة يبلغ طوله حوالي ميلين ، وهو قليل السكان ولا يسكنه الا عدد قليل من العمال .

أما عانة نفسها فيتحدث تكسيرا عن تاريخها أولا ويقول أنها بلدة قديمة ، وقد ورد ذكرها في الانجيل (أصحاح الملوك الثاني ، الفصل التاسع عشر) الذي ينص على ان سنحاريب العاهل الآشوري الكبير تساءل في تهديده لحزقيا عن مصير ملك حمض ، وملك أرپاد ، وملك سيفارڤيم ، وعانة ، وآفا . ولا شك ان سنحاريب كان لابد له أن يخضع عانة وما جاورها من المناطق قبل أن يزحف على فلسطين وغيرها في تلك الجهات .

ومما جاء في الرحلة عن موقع عانة أنها تقع على جانبي الفرات فوق التواء فيه يتجه الى الشمال الشرقي والجنوب الغربي . وفي الطرف الشمالي من هذه الدورة توجد جزيرة في النهر يبلغ طول محيطها حوالي ميل واحد ، ويدور حولها جدار تطرقت اليه أيدي البلى والخراب . وكانت هناك في النهاية الشمالية من البلدة قلعة تضم بين جدرانها حامية تركية متألفة من مئة جندي ، مع بعض المدافع ، وكانت تنتشر في خارجها البيوت والنخيل ، والبساتين ، مع سوق وحمام عام كان يعود للايرانيين حينما كانوا مستولين على بغداد وهذه الجهات في تلك الأيام . ويقول تكسيرا أن جانب الجزيرة كان عرض الأرض المنبسطة فيه ما بين النهر والجبل يتراوح بين المئة والمئتي خطوة فقط ، بينما يبلغ ذلك في الضفة الغربية (الشامية) شيئا يتراوح بين الخطوتين فقط والخمس مئة خطوة . وكان طول هذه الضفة، وهي عانة الأصلية ، يزيد على فرسخين . ويكاد وصفه لأزقتها وبيوتها وما أشبه في تلك الأيام يشبه ما هي عليه في يومنا هذا . وكان لكل بيت بقعته الصغيرة المزروعة بالكثير من النخيل وأشجار البرتقال والليمون والكباد والكمثري والسفرجل والتين والرمان بجانب الكثير من أشجار الزيتون التي كانت تضاهي أشجار الكستناء في ضخامتها .

وقد كان عدد البيوت في جانبي النهر حوالي أربع مئة بيت ، وكانت مئة وعشرون من هذه البيوت تعود لليهود العرب كما تقول الرحلة ، الذين لم يكونوا أغنياء ولكنهم كانوا يعيشون عيشة محترمة كانوا فيها على وئام مع أمير المنطقة ووكلائه . وكان المسلمون من سكان عانة ينقسمون على حد قول تكسيرا الى فريقين : فريق يتحدر من صلب سكان العراق الأقدمين، وهم مسلمون بالاسم فقط . وقد كان أسلافهم القدماء يعبدون الشمس ، ولا يزالون يحتفظون بمثل هذه المعتقدات وسائر الخرافات في دخيلة أنفسهم . وللبرهنة على ذلك يقول ان أحد هؤلاء كان يكثر التردد عليه في الخيمة ويتحدث اليه والى رفيقه عن الشمس على الدوام . أما الفريق الثاني فقد كانوا غرباء عن عانة في الأصل ، واستوطنوا فيها بالتدريج .

وكان أمير البادية المسيطر على عانة وما حولهـــا الأمير أحمد أبــو ريشة ، وهو مع كونه أقوى رئيس في تلك الجهة من بلاد العرب فقد كان خاضعاً للأتراك الذين أقطعوا الكثير من هذه المناطق وغيرها الى رجالــه وأهله • فان الرسوم التي كانت تفرض على جميع البضائع والسلع المارة من هذا الطريق كانت تدفع الى الامير مع شيء بسيط من الاعتراف بحق الاتراك ، وقد كانت الرسوم تفرض على الاحمال وليس بموجب الأوزان أو الاعداد أو القيمة • وقد كان أصحاب الاموال يدفعون خمس دوكات عن الحمل الواحد من البضائع الثمينة كالحرير والاقمشة والنيل والبهارات وما أشبه ، أما العفص والتمور وما أشبه فكان يدفع دوكات واحدة عــن الحمل الواحد منها •

ويقول تكسيرا ان منطقة عانة غنية بالتمور ، وان كثيرا من أهاليها يعيشون على تصديرها الى الشام وطرابلس وحلب ، وان وسائل العيش والمأكولات فيها رخيصة عدا الرز الذي كان يؤتى به من بغداد التي تتبع عانة الى حكومتها • غير انه يشكو من عدم وجود أسواق يستطيع الغريب شراء ما يحتاجه من المأكولات وغيرها فيها • وهو يقول ان الامير أبا ريشة هو الذى كان يمنع انشاء الأسواق فيها ، خوفاً من هجمات الأعراب عليها، على أنه يذكر ان كثيرا من الحاجات كان يمكن شراؤها من البيوت •

ومما ذكر في الرحلة كذلك ان عانة كان فيها حوالي ثلاثين سفينة تحمل الركاب والسلع الى البلــدان الاخرى الواقعة على الفرات شمالا وجنوبا • وكان النهر فيه عدة طواحين ، ولعله يقصد النواعير ، كما كان يحتوي على الكثير من السمك الذي لا يأكل الأهلون الا القليل منه •

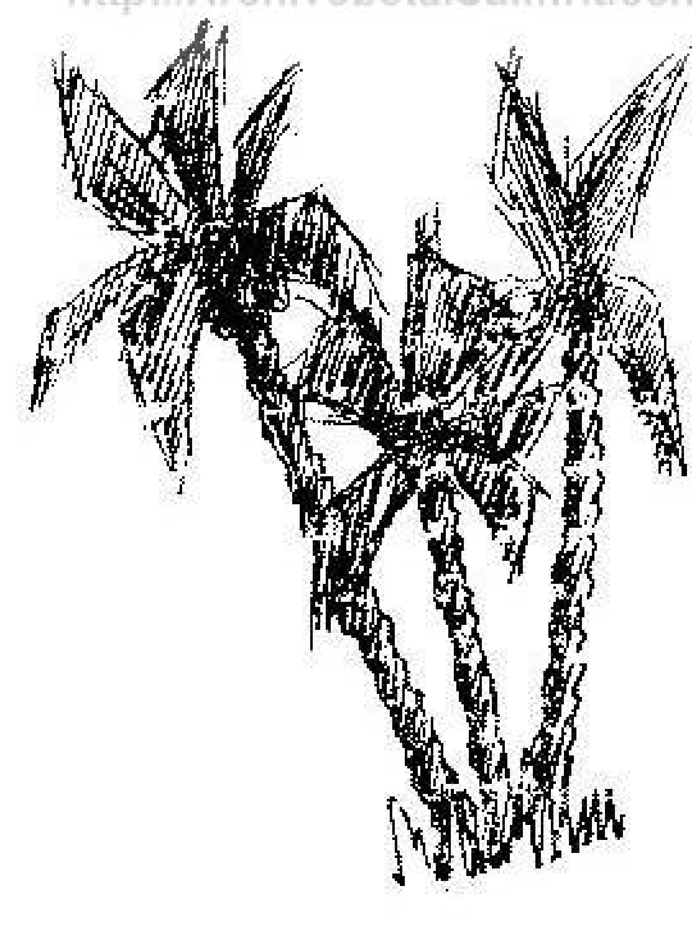
وفي الرحلة الى جانب ذلك كله اشارة الى أن عانة كانت مركزا مهماً في طريق القوافل التجارية • فحينما كان تكسيرا فيها تعرف على طائفتين من التجار الذين كانوا ينتظرون انفتاح الطريق الى حلب • وقد كان أحدهما من التجار الأكراد الذين يتاجرون بالحرير ، أما الفريق الآخر فقد كانوا من تجار الموصل الذين يتاجرون بالاقمشة الرقيقــة والعفص الذى كان يشحن في كل سنة الى حلب وطرابلس والشام وبغداد ، حيث ان مايزيد على اثني عشر ألف حمل بعير من العفص كان يشحن سنويا من بغداد الى البصرة ليصدر منها الى الهند وحتى الى الصين • وقد مر في أثناء مكوثــه في عانة كذلك عدد غير قليل من التركمان مع قطعانهم الكبيرة من الأغنام ، وهم في طريقهم الى سورية لبيعها في الشـــام وطرابلس وحلب وحتى في استانبول • وكانوا يدفعون الرسوم واجور المرور في عانة بمقدار عشرين دوكات للألف رأس منها •

ومن طريف ما يذكره تكسيرا بالاضافة الى ذلك ، أنه شاهد فيجميع هذه البلاد ان الرجال كانوا يغزلون الكثير من الصوف بالمغازل ، بينما تقوم النساء بغزله بالدولاب • لكنه يقول انه لايتذكر انه شاهد أي مكان

آخر يفوق عانة بكثرة الرجـــال الذين كانوا ينصرفون الى الغزل بالمغزل على الدوام ٠

هذا وبعد أن مكث تكسيرا ثلاثة وعشرين يوما في عانة تمكن من التوجه بقافلة جديدة الى حلب ، فغادر عانة في يوم الخميس المصادف ١٣ كانون الثاني ١٦٠٥ ٠ لكنه لم يكن مرتاحاً خلال مدة مكثه فيها ، لأنـــه يشير في الرحلة الى أن أصحاب القافلة ، وبعض تجار عانة الذين جاءوا معه من بغداد ، ووكلاء أبي ريشة فيها ، كانوا يصطنعون الحجج لتأخيره ٠ ومن جملة ماكانوا يهددونه به هو تخوفهم من دندل ابن أخ الامير أبي ريشة الذي كثيرا ما كان يقطع الطريق على القوافل الذاهبة الى الشام ويسلبها ٠ وكان من المعتقد يومذاك أن دندلا هذا كان هو الوريث الشـــرعي للامارة فاغتصبها عمه منه ، ولذلك كان يتحداه ويناوئه في كثير من الأحيـان ٠ لكن تكسيرا يقول انهم برهنوا للجهات المختصة في الأخير ان هذا الخطر قد زال منذ مدة ، لأن أحد المسافرين وصل من البادية وأخبر بأن دندلا وأخاه قد رحلا الى جهات مصر مع أتباعهما ٠

وقد سار تكسيرا الى حلب عن طريق مسكنة وطيبة ، وبعـد ذلك قصد الاسكندرونة ومنها أبحر الى جزيرة قبرص ، ثم أبحر من قبرص الى جزيرة زانت ومنها الى البندقية في ايطاليا ، وبذلك انتهت رحلته ٠



النتاج الجديد

الاسلام والشعر

١٧٦ صفحة من القطع الكبير ، نشر مكتبة النهضة ـ بغداد

علي حسين الجبوري

لقد اضيف للمكتبة العربيـة كتاب قيم سـد فراغـا كبيرا فى بابه وموضوعه ذلك ، هو كتاب الاسلام والشعر للاستاذ الفاضل يحيى الجبورى· ولا اظن ان موضوع هذا الكتاب قد عولج او كتب فيه احد من المعاصرين ، فكل ما كتب عن موقف الاسلام من الشعر ، او الشعر فى نظر الاسلام لكتاب قدامى ينتمون الى القرن الرابع الهجرى واولئك الكاتبون نقلوا عن صحـابة رسول الله صلى الله عليه وسلم او عن التابعين ، وتكاد تنحصر المعلومات الجيدة حول ذلك فى العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسى المتوفى سنة ٣٢٨هـ وفي زهر الآداب للحصري المتوفى سنة ٤٣٥ هـ وفي العمـدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وعند عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه دلائل الاعجاز ، ولعل عبدالقـاهر الجرجـانى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ من انضج الكتاب القدامى تناولا للموضوع ، واحسنهم ردا على المتزمتين واوضح حجة واوسع علما ·

وقد تناثرت المعلومات حول الشعر فى الاسلام فى كتب الادب والحديث والتفسير والتاريخ وغيره · وقد كنت جمعت مادة واسعة حول الشعر فى الاسلام وقد غبر عليها زمن طويل وكنت اود ان اعرضها في كتاب فلما اخرج الاستاذ الجبورى كتابه وجدت فيه شفاء وادراكا للغاية المرتجاة · وقد تجد فى كتابات المحدثين عن الموضوع خلطا وسوء تفسير ، فقد رسخت فى الاذهان فكرة خاطئة عن نظرة الاسلام الى الشعر ذلك التفسير الذى يجعل الاسلام معاديا للادب والفن والشعر بصورة خاصة ·

وقد تناول الاستاذ الجبورى موضوعه بعد ان استفاد فائدة كبيرة من كتب الاقدمين بل قد اطلع على كل ما قيل حول الموضوع ومن مصادر اصيلة ، ونظر فى تلك المصادر نظرة خبير محنك فغربلها وانتقى منهـا مـا يصلح لوجهة نظره بعد ان عرض المسائل وناقش مشاكلها فصحح الخطأ والوهم

السائد من اضطهاد الاسلام للشعر والشعراء ، وخرج بتفسير للآية الكريمة والظروف المحيطة بالمسلمين ، فبين ان الاسلام لم يكن له موقف واحد من الشعر والشعراء وانما قد راعى في ذلك الظروف المحيطة ومصلحة الدين والمسلمين فاتخذ موقفه وفق ذلك • فاذا كان هناك تضارب او ما يشبه ذلك في الاحاديث ومواقف الرسول والمسلمين من الشعر والشعراء ، فلا يجوز ان يفسر الا بعد ان يكون الالمام كافيا بالظروف المحيطة بالدين وباهله المسلمين • ولذلك فالنتائج التي خرج بها المؤلف جاءت منطقية على ما يبدو من تضارب النصوص ، لان النصوص لا يمكن ان تدرس على انها مجرد اقوال جامدة بعيدة عن طبيعة العصر وملابساته ، وبالرغم من ان المصادر مختلفة وغامضة فهي ليست عادية بل هي مقدسة منها آيات القرآن الكريم ومنها احاديث الرسول عليه السلام ، بالرغم من كل ذلك فقد اجلى المؤلف بحثه بصورة طريفة زاهية وساق حججه بصورة مقنعة ـ وان كنت اختلف معه في بعض منها ـ وان دل ذلك على شيء فانما يدل على مهارة الاستاذ يحيى الجبوري في تناول الموضوعات الشاقة المتعبة وتذليلها • وبهذه المناسبة اود ان اذكر ظاهرة عامة في البحث العلمي المتعلق بالتراث العربي ، ان موضوعا مثل الاسلام والشعر جديد في بابه وجاءت نتائجه ايجابية فقد اضاف الى المجد العربي المسلم جهدا محمودا ، بينما نجد كثيرا من الباحثين يتناولون موضوعات اما اجنبية لا تعود علينا بشيء وهي غريبة عن اذواقنا ونفسيتنا وتمجد بتراث الاجانب او الدخلاء ، او لا تعود على الادب والعلم بفائدة مذكورة ، فليس كل موضوع جديرا ببذل الجهد ، وليس كل الجهود المبذولة تكون محمودة النتائج • ان في التراث العربي الاسلامي مجالات واسعة للبحث وما زال الكثير منها بكرا وان مسؤلية الاساتذة والباحثين كبيرة في هذا المجال وان جهودهم المثمرة خدمات جليلة وان عملهم هذا ضرب من الجهاد في سبيل الله ، وقد جاء عن رسول الله حديث شريف معناه : (يوزن مداد العلماء بدم الشهداء) واجر العاملين في الاسلام كبير مذكور واريد بهذه الكلمة كل الباحثين والمؤلفين من ابناء امتي والاستاذ الجبوري واحد من هؤلاء عرف الطريق وسار فيها ونرجو ان يسدد الله خطاه ويقدم المزيد ، ولقد فطن الى هذا الاستاذ الدكتور يوسف عزالدين فذكر جهد المؤلف وصدقه واخلاصه في عمله فقال في التقديم القيم الذي تصدر الكتاب قال : (وقد بحث الاخ يحيى الجبوري هذه الطاقات الشعرية واعتمد على مصادر بحث اصيلة وخرج بنتائج علمية سليمة موفقة كل التوفيق محاولا ان يصلح الخطأ الذي سارت عليه بعض كتب الادب والتاريخ بأن الاسلام وقف في طريق الشعر ومنع ازدهاره وقد بذل جهدا اقدره عليه في دراسة طبيعة الشعر الاسلامي ٠٠٠) ص ١٠ ٠

على انه رغم اعجابي بهذا الكتاب الذي لم ينل من عناية الناقدين شيئا فاني اختلف مع المؤلف في نقطتين اثنين :

الاولى العلة فى عدم انشاد الرسول الشعر صحيحا موزونا ؟ ان الرسول لم يكن شاعرا وقد ذكر كتاب الله ذلك صراحة ولكن ما هى الحجة المنطقية الواضحة فى ان الرسول الكريم لم يرو بيت شعر صحيحا موزونا ؟ ان الاستاذ الجبورى اجاب على هذه النقطة بقوله : (اذ لو كان (الرسول) شاعرا لوجب ان يسير في نهج الشعراء من هجاء وفخر ومديح وتشبيب . وتلك خصال لا تنسجم مع خلق النبوة وطبيعة الرسالة ولو كان شاعرا لنسب العرب فضيلته وحجته البالغة الى تأثير الشعر لا الى نبوته ورسالته. ولا يكون بعد ذلك الكلام الذى يلقى اليه وحيا من الله بل الهاما من شيطان الشعر ... ولامر ما كانت الحكمة في ان الرسول ما روى بيت شعر كاملا ، فكان عليه السلام يتحرج من روايته صحيحا او كان يروي شطر البيت صحيحا ويسكت عن اتمام الآخر) ص ٤٦ . هذا الكلام الى حد ما صحيح ولكن الاستاذ المؤلف اغفل شيئا هاما هو ان هناك بعض الاشعار تمثل بها الرسول (ص) وهي صحيحة الوزن كاملة . واذكر ان الشيخ جلال الحنفي كان قد كتب كلمة قصيرة حول ذلك في مجلة الرسالة لاستاذنا الزيات ، وهي قديمة لا اذكر بالضبط في اي سنة الا انها مرت على اثناء مطالعاتي القديمة وحبذا لو نبهنا الاستاذ الحنفى الى ذلك فهو ثقة فيما اقرأ له .

اما النقطة الثانية فهي فيما يخص شاعرية الامام علي عليه السلام ونسبة الديوان اليه . اما شاعرية الامام فقد ذكرها واقر بها المؤلف نفسه ، ولكنه وقف عند نسبة الديوان بحجتين : الاولى (بعد تلك القصائد ومجافاتها لروح العصر) والحجة الثانية فقال فيها : (اختلاف تلك القصائد قوة وضعفا ، مما يدل على ان الذين نسبوا اليه تلك القصائد مختلفون تتباين ثقافاتهم وتختلف ازمانهم ...) ص ١٣٥ واورد على الحجة الاولى فاقول ان تقدير روح العصر امر ليس بالسهل ولاسيما ان هناك بعض الموضوعات والعواطف تكون عامة وتنسجم وتلائم كل زمان ، ثم ان نقد الامام علي (ع) للمجتمع وللناس امر عام فعيوب المجتمعات السابقة تكاد تكون نفس عيوب هذا المجتمع الحديث ، فالقعود عن الحق ومناصرة الباطل مثلا امر مشترك في كل العصور ولذلك فمن الصعب الحكم على ان القصائد كانت تجافي روح العصر .

اما حجة المؤلف الثانية فان اختلاف القصائد من حيث القوة والضعف لا يكون دليلا على اختلاف الشعراء وتعددهم ، بل ان الديوان صحيح للامام فى اكثره وان كل دواوين الشعراء فيها القصائد الجيدة القوية الى جانب القصائد الضعيفة الركيكة وذلك راجع الى نفسية الشاعر والمناسبة التى يقول فيها .

وعلى كل حال فان اختلافي مع الاستاذ يحيى الجبوري فى هذه النقاط لا يؤثر على قيمة الكتاب وعلى اعجابي الشديد ببحوثه وانتاجه الدسم

الغزير وبهذا الكتاب بصورة خاصة ،وان الاستاذ الجبوري قد قال في الامام علي كلمة حق يتفق الجميع عليها على اختلاف نظرتهم الى شاعرية الامام وذلك في قوله : (وعندنا ان ذلكم الصنيع ليسيء كثيرا الى الاسلام والمسلمين والى شخصية الامام ولئن كان خليفة المسلمين منزها عن الشعر وأوهام الشعراء وأصوائهم خير له وللدين من ان يحسب في عداد الشعراء) ص ١٢٦ ٠

وبعد فاني حين انتهيت من قراءتي لهذا الكتاب القيم ، كنت مشوقا الى ان أعود اليه مرة ومرة ، وهو كتاب يعد مرجعا في بابه طريفا شيقا جميل العبارة عذب الاسلوب ذكي التحليل والمناقشة ، وبذلك استحق تقدير ومؤازرة المجمع اللغوى العراقي على نشره وفق الله الاستاذ بما يبذل في سبيل العلم والادب ، وفي سبيل الثقافة والتراث العربي من جهود محمودة مشكورة ٠

مسرحية توفيق الحكيم

يا طالع الشجرة

نادر سليم

ان المشاكل التي يعالجها المسرح يمكن تقسيمها الى قسمين رئيسيين: القسم الاول يتناول مشكلات الانسان بوصفه فردا في مجتمع ٠ والقسم الثاني يتناول مشكلات الانسان بوصفه انسانا ٠ وقد جرى العرف على تسمية مشاكل القسم الثاني بالمشاكل الميتافيزيقية ٠ ولعل خير ممثل للقسم الاول من مشاكل الانسان ، أي المشاكل المجتمعية ، هو مسرح برنارد شو ، فلا نكاد نجد لبرنارد شو مسرحية تعالج قضية ميتافيزيقية، وخير ممثل للقسم الثاني من المشاكل الانسانية هو مسرح العبث (Absurd Theatre) الذي شاعت تسميته بالمسرح اللا معقول ، فلا نكاد نجد مسرحية لامعقولة ــ ان صح التعبير ــ تعالج قضية اجتماعية ٠ بيد ان هناك كتابا مسرحيين يعالجون النوعين من المشاكل ، كجان بول سارتر ، على سبيل المثال ، اذ هو يعالج في بعض مسرحياته القضايا الوجودية الميتافيزيقية ، ويعالج في بعضها الآخر القضايا الاجتماعية ، كما فعل في مسرحيته « البغي الفاضلة » التي تعالج موضوع التفرقة العنصرية ٠

والملاحظ أن الكتاب المسرحيين العرب قد انصب انتاجهم على نوع

واحد من نوعي المشاكل الانسانية ، وهو ما يتصل بالمشاكل الاجتماعية ، أي مشاكل الانسان بوصفه عضوا في مجتمع • أما القضايا الميتافيزيقية فلم يتطرق اليها سوى كاتب عربي واحد هو توفيق الحكيم ، بالاضافة الى تطرقه الى المشاكل الاجتماعية •

وتجدر الاشارة الى أن توفيق الحكيم عالج القضايا الميتافيزيقية في مسرحيات تلتزم التكنيك التقليدي في البنـــاء المســـرحي ، أي التكنيك الكلاسيكي ، شأنه في ذلك شأن سارتر في مسرحياته الميتافيزيقية • بمعنى ان الكاتب يلتزم في بناء مسرحيته بالوحدات الثلاث : وحدة الموضـــوع ووحدة الزمان ووحدة المكان ، كما يلتزم بالمفهوم التقليدي لعنصر الصراع في الدراما • ونجد مصـــداق ذلك في مسرحياته : اوديب وأهل الـكهف وشهرزاد وبجماليون وغيرها •

ولكن كتاب المسرح اللا معقول وجدوا ان الشكل الكلاسيكي للمسرحية غير صالح ليكون اداة لبث أفكارهم ومفاهيمهم ، لأن الشكل الـكلاسيكي هو شكل منطقي يقيم بناء هندسيا للدراما تتحكم فيه قوانين وقواعد يوحي بها المنطق والعقل ، بينما تتجه أفكارهم ومفاهيمهم الى كون الحياة عبثاً في عبث ، لاينظمهـــا منطق ولا يحددها هدف معقول • فاذا كان المضمون لا منطقيا ولا معقولا فكيف يصبح أن يكون الشكل الذي يظهر فيه منطقيـــا ومعقولا ؟ ومن هنا جاء الهدم للبناء المسرحي الكلاسيكي على أيدي كتـــاب المسرح اللا معقول • ومعنى هــذا ان الشــكل يجب أن يتبع المضمون في طبيعته ، لان الشكل والمضمون وحدة عضوية لايمكن الفصل بينهما ، الا نظريا ولأغراض النقد •

وجاء توفيق الحكيم الذي لايدانيه كاتب مسرحي آخر في دنيا الأدب العربي ، فطلع علينا بأول مسرحية عربية على غرار المسـرح اللا معقول ، وهي مسرحية « يا طالع الشجرة » ، فهل كان مضمون المسرحية مستوجباً الشكل الذي ظهر به ؟

يبدأ توفيق الحكيم مسرحيته بملاحظة هامة تحدد الوجهة التي تتجه اليها المسرحية من حيث الشكل • فهو يقول في مقـــدمة القسم الأول من المسرحية : « لا توجد مناظر في هذه المسرحية ، ولا توجـــد فواصل بين الأزمنة والأمكنة ، فالماضي والحاضر والمستقبل أحيانا توجد كلها في نفس الوقت • والشخص الواحد يوجـد أحيانا في مكانين على المسـرح ، ويتكلم بنفس صوته مرتين في نفس الوقت • وكل شيء هنا متداخل في كل شيء» •

ان هذه الملاحظة التي أبداها الحكيم تحدد بوضوح اتجاه المسرحية من حيث الشكل : فهي مسرحية منافية للبناء المسرحي الذي حدده ارسطو في كتابه «الشعر» ، وخاصة ما يتعلق بضرورة الالتزام بوحـــدة الزمان وبوحدة المكان • ونذكر على سبيل المثال ما يجري بعد الحوار التالي الذي

يدور بين المحقق والخادمة حول طبيعة العلاقة بين الزوج والزوجة في مسرحية ياطالع الشجرة :

المحقق : والعلاقة بين الزوجين ؟

الخادمة : العلاقة ؟

المحقق : نعم .. هل كانت بينهما مشاجرات مثلا أو مشاحنات أو خلافات .

الخادمة : أبدا .. أبدا .. منذ وجودي هنا لم أرهما قط اختلفا على شيء .

المحقق : لم يختلفا قط ؟

الخادمة : ولا مرة .

المحقق : ولكن الحال بين الزوجين لايخلو من ..

الخادمة : الا الحال بين هذين الزوجين !

المحقق : أهما الى هذه الدرجة ..

الخادمة : نعم، في غاية الوفاق . أتريد أن ترى بعينيك كيف يعيشان؟

المحقق : بالطبع أريد .. ولكن كيف يتسنى لي ذلك ؟

الخادمة : الأمر بسيط .. انظر هناك وأنت تراهما

المحقق : أين ؟

الخادمة (تشير بيدها) : هناك .. في هذا الركن .. قرب النافذة المطلة على الحديقة .. هاهي ستي بهانة في ثوبها الاخضر الذي لاتغيره . تجلس على كرسيها المعتاد(١) .

وهنا تظهر الزوجة فعلا ، كما يظهر الزوج ، ويجري بينهما حوار سنتطرق الى طبيعته في الاسطر القادمة . وهذا الظهور للزوج والزوجة على المسرح ليس منطقيا ، ليس معقولا ، لانه يعود الى زمن غير الزمن الذي جرى فيه الحوار بين المحقق والخادمة . فالمسرحية اذن ترتدي شكل المسرح اللا معقول .

ويتميز المسرح اللا معقول ، فيما يتميز ، بالاقلال من شأن اللغة ، بدعوى ان اللغة لم تعد أداة صالحة للاتصال بين بني البشر . وبعبارة اخرى ان كتاب المسرح اللا معقول دأبوا ، فيما دأبوا ، على معالجة اللغة من الناحية الميتافيزيقية . وأبرزهم في هذا الميدان هو يوجين يونسكو .

يرى يوجين يونسكو ان اللغة لم تعد أداة للاتصال البشري ، وانما غدت صيغا جامدة لاتعني شيئا على وجه التحديد . بل ان البشر أصبحوا أنفسهم عبيدا للغة ، تقودهم بغير وعي منهم الى التناحر فيما بينهم والى انعزال الفرد عن الأفراد الآخرين انعزالا تاما .

ولم يسبق لتوفيق الحكيم أن عالج مشكلة اللغة بوصفها مشكلة ميتافيزيقية ، ولكنه « داعبها » لاول مرة في مسرحيته ياطالع الشجرة . وقد يكون فيما ذهب اليه متأثرا بكتاب المسرح اللا معقول وعلى رأسهم

يونسكو ، وقد يكون متأثرا بانطون تشيخوف ، كما سنرى •

وفيما يلي مقطع من حوار يدور بين الزوج المفتون بشجرته القائمة في حديقة البيت ، والزوجة المفتونة ببنتها التي لم تولد ولن تولد :

الزوج : هذه الحديقة لا تتعرض لمساقط الرياح •• ومع ذلك عندما أزهرت شجرة البرتقال خفت على الزهر •• لكن الله سلم ولطف ••

الزوجة : نعم •• الله سلم ولطف •• واجتزنا أيام الفقر •• وعندما جاء الفرج طلبنا الخلف ، لكن هيهات ! انه السقط الاول ولا شك•• كان قد أثر في رحمي •• نعم هو السقط الاول !

الزوج : نعم •• هذا السقط الذي حدث ليس على كل حال بشيء ذي بال •• انه لا يعدو أن يكون ثلاث أو أربع ثمرات من البرتقال الاخضر الصغير في حجم البندقة ••

الزوجة : كان السقط في الشهر الرابع ••• كانت البنت قد تكونت وصارت في حجم الكف •• اني واثقة من ذلك ••

الزوج : نعم •• اني واثق من ذلك ، لان الاغصان كانت تتحرك ببطء شديد ••

الزوجة : نعم •• أنها كانت تتحرك في بطني • شعرت بحركتها • حركة بنت •• لان حركة البنت يمكن أن تعرف ، ولاني أيضا كنت أريدها بنتا ••

الزوج : أنا أيضا كنت أريد هذه الحركة البطيئة(٢) •

وهكذا يجري الحوار بين الزوج والزوجة ، وهو حوار ان دل على شيء فانما يدل على عزلة كل من الزوجين عن الآخر • وبعبارة اخرى ، يدل على ان اللغة لم تعد أداة للاتصال بين الانسان والانسان ، وهذا ماذهب اليه يوجين يونسكو ، وخاصة في مسرحيته المسماة «المغنية الصلعاء» • ولكن مذهب يونسكو ومذهب الحكيم لايتماثلان كل التماثل ، ذلك ان يونسكو يجعل أشخاص مسرحياته ينطقون بكلام جامد ثقيل هابط اليهم من خارج نفوسهم ، أما توفيق الحكيم فقد جعل الزوج والزوجة ينطقان بكلام منبثق من أعماقهما ، وان ظل هذا الكلام مع ذلك قاصرا عن ايجاد صلة انسانية بينهما • ولتوضيح مذهب يونسكو ومذهب الحكيم في هذا الصدد نورد فيما يلي مقطعا من حوار يدور بين الزوج والزوجة (السيد سميث والسيدة سميث) في مسرحية « المغنية الصلعاء » ليونسكو :

السيد سميث : ان الاطباء دجالون جميعا • وكذلك المرضى جميعا • ليس سوى الاسطول وحده مخلص في انكلترا •

السيدة سميث : وليس كذلك البحارة •

السيد سميث : طبيعي • (فترة صمت يطالع خلالها في الصحيفة) هنا شيء لا استطيع ان افهمه • فالجرائد تذكر لنا اعمار الذين يتوفون ولا تذكر اعمار الذين يولدون • هذا مضحك !

السيدة سميث : لم يخطر هذا على بالي •
السيد سميث : (لايزال يقرأ في الصحيفة) : آه ، مات بوبي واتسن •
السيدة سميث : يا آلهي ، المسكين ، هل مات اذن ؟
السيد سميث : فيم تتظاهرين بالدهشة ؟ انت تعلمين جيدا انه مات منذ سنتين • ولاشك انك تتذكرين باننا حضرنا جنازته قبل سنة ونصف السنة •
السيدة سميث : آه ، صحيح ، اتذكر بلاشك • تذكرت الان • ولكن لا افهم لماذا دهشت انت اذ قرأت الخبر في الجريدة •
السيد سميث : ليس في الجريدة مثل هذا الخبر ، فقد مضت ثلاث سنوات على اعلان وفاته ، ولكني تذكرت الامر من خلال ترابط الافكار •
السيدة سميث : وا أسفاه ! لشد ما كان محتفظا بصحته ! (٣)

وهذا الحوار الذي يجري بين الزوجين في مسرحية يونسكو يشبه الحوار الذي يجري بين الزوجين في مسرحية الحكيم في انه لا ينشيء صلة انسانية بين الزوج والزوجة ، فكل منهما في عزلة عن الاخر ، كل منهما قابع في قوقعة لا سبيل الى النفاذ اليها عن طريق اللغة • ولكن الفرق بين الحوارين يكمن في كون حوار يونسكو موفدا من الخارج على هيئة صيغ وجمل جاهزة جامدة ، اما الحوار عند الحكيم فهو منبثق من احاسيس ومشاعر داخلية •

وهذا يقودنا الى الظن بأن توفيق الحكيم قد يكون متأثرا بانطون تشيخوف اكثر من تأثره بيوجين يونسكو • فالمعروف ان تشيخوف هو أول من جعل الحوار في المسرح حوارا فرديا ، بمعنى ان كل شخص من اشخاص المسرحية ينطق ــ في مواقف معينة ــ بما يصدر من اعماقه من احاسيس وانفعالات دون الالتفات الى ما يقوله الاشخاص الاخرون المحيطون به • فهو يعيش في عزلة عن الاخرين ، لا بسبب قصور اللغة ، كما هو الحال عند يونسكو ، بل بسبب انشغاله بمشاكله الخاصة • ويبدو هذا النهج التشيخوفي واضحا في مسرحية « بستان الكرز » •

وسواء تأثر توفيق الحكيم بيونسكو أو بتشخوف ، أو لم يتأثر بهذا او بذاك ، في الحوار المسرحي الذي اوردنا مقطعا منه ، فان الامر الذي يلفت النظر في هذا الصدد هو ان الحوار اللامنطقي في المسرحية قاصر على الزوج والزوجة ، أما أشخاص المسرحية الآخرون فان الحوار يجري بينهم على النمط المنطقي المألوف • وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بان توفيق الحكيم لم يستهدف في مسرحيته معالجة اللغة باعتبارها مشكلة انسانية •

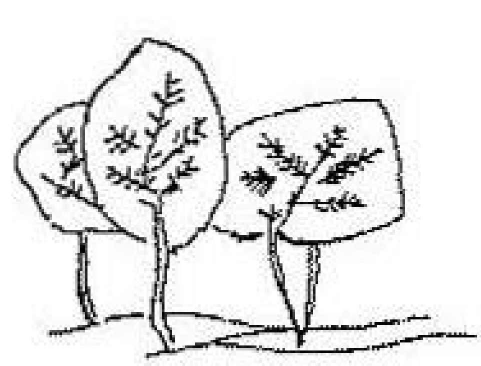
ونعود الى السؤال مرة اخرى : هل ان مضمون مسرحية يا طالع الشجرة يستوجب الشكل اللامعقول الذي ظهر به ؟

ان النقاد اختلفوا في بيان المعنى الذي استهدفه توفيق الحكيم في هذه المسرحية ، ولكن الراجح ان الحكيم حاول أن يبرز الصراع بين الغريزة

والفطرة من جهة ، والفكر والعقل من جهة ثانية • فالزوجة في المسرحيـــة تمثل الجهة الاولى ، والزوج يمثل الجهة الثانية ، وينتهي الصراع بانتصار العقل واخضاع الغريزة لمآربه ، وآية ذلك قتل الزوج لزوجته وجعله جثتها سماداً للشجرة المنهمك في العناية بها - والشجرة هنا ترمز الى الفردوس الذي يتطلع اليه الانسان ، او الخلاص الذي يصبو اليه •

فاذا كان الامر كذلك ، فيمكن القول بان الشكل اللامعقـول الـذي اتخذه توفيق الحكيم لمسرحيته لايبرره مضمون المسرحية ، لانه كان في وسعه ان يعالج هذا المضمون بالاسلوب الكلاسيكي للمسرحية ، بل كان ينبغي ان يفعل ذلك ، مادام الموضوع الذي عالجه هـو في الواقـــع من الموضوعات الكلاسيكية التي طالما عالجها الحكيم في مسرحيات كلاسيكية تقليديـــة • ومهما يكن من أمر فقد هجر الحكيم هذا النمط من التاليف المسرحي ، لا لعيب فيه ، بل لادراكه بان معالجة قضايا كلاسيكية في مسرحيات لا معقولة لا تتفق مع طبيعة الاشياء • واذا كان كتاب المسرح اللامعقول قد حطموا البناء التقليدي للمسرحية ، فانهم قد أتوا بشيء جديد ، بفلسفة جديدة ، بمفاهيم جديدة ، اما توفيق الحكيم فلم يأت بشيء جديد كما يقول الدكتور طـه حسين بصدد مسرحية يا طالع الشجرة •

ومن الحق ، مع ذلك ، ان نقول بان مسرحية يا طالع الشجرة فيهـا الشيء الكثير من المتعة الفنية والاثارة التأملية ، وليس هذا بقليل ؟



(١) يا طالع الشجرة ـ ص ٤٥ ـ ٤٦ •
(٢) يا طالع الشجرة ـ ص ٤٨ ـ ٤٩ •
(٣) ترجمة كاتب المقال عن الانكليزية •

آراء وتعقيبات

حول لقاء مع الفنان اكرم شكري

اتحفتنا مجلة الاقلام الغراء بنقاش ممتع طريف دار بين الاستاذ أكرم شكري وبينها • وكنا نود أن نقف موقف المتفرج لولا بعض النقاط التي يجدر مناقشتها لتعم الفائدة المرجوة منها ، ولنتسامى بسورها بالموضوع الى مستواه الفكري المبدع •

أما بخصوص آراء الفنان الي يحلل بها المواقف الفنية كموضوع طليعية الفن العراقي أو تطور الرسم في العراق أو معنى الفن الحديث أو أهمية التكنيك في مدارس الفن الراهنة الخ • • فليس لدينا أي اعتراض • فلكل رأيه ومنظوره الخاص طالما يعبر من خلالها عن تجربته الخاصة التي كان سيقف من خلالها هذا الموقف أو ذاك • اذ لاشك ان الفنان هو انسان أكثر دقة في التعبير عن حريته من سواه [وفي فنه بالذات] • وهو يقول ما يراه صوابا مهما بدا ذلك ازاءنا غامضا أو خطأ • وأما بخصوص أحكامه الشخصية عن فنانين آخرين فهنا مجال الاعتراض • ولا أقصد بذلك استحالة تكوين آراء شخصية عن فنانين آخرين بل أقصد ان مثل هذه الاحكام يجدر بها أن تكون موضوعية وأقل تطرفا وان تظل غير متناقضة • ان قولي هذا من قبيل (قل الحق ولو على نفسك) • فسبحان من لا يخطىء وانما علينا ان نتجنب الاخطاء على قدر الامكان •

يقول الاستاذ أكرم شكري عن الفنان محمد غني حكمت بلهجة النصح انه (يرتاد الطريق السليمة) التي لايشك فى أنها ستوصله الى الهدف المرجو يوما ان هو واصل خطاه بعيدا عن مغريات المال ويضيف أيضا بكل صواب [ان المال عصب الحياة وان الفنان ـ أي فنان ـ قد يحتاجه أكثر من غيره ولكنه قد يخسر الفنان فنه ان هو اندفع في طلبه وغالى فيه • وهنا يشير الى فنانين آخرين بقوله [وهذا ـ اى هذا الموقف ـ هو الذي غير خط الكثير من فناني النحت الذين انصرفوا الى الرسم وتركوا هواياتهم الاصلية جانبا •]

ولنتساءل : اذا كان محمد غني فنانا (وكلمة فنان لا يمكن ان تطلق جزافا) فلماذا نشير الى أنه سيصل هدفه يوما ؟؟ ـ أي انه لم يصل هدفه بعد • ولكن سوف يصله اذا هو اتبع النصح • والذي أراه ان الفنان ـ أي

فنان يحاول الوصول فحسب فكيف تجزم بامكان وصوله اذن مهمــــا اسدينا له من نصح ؟؟ ان وصول الفنان هو انتهاؤه • ثم اذا اعترفنا واياه بانه فنان (ومن شروط العمل الفني صدق التعبير وحسن الطويه) فلماذا نحشر تاثير المال عليه • الفنان الحق بعيد عن أن يتخذ المال هدفا له فيكرس له انجازه ، وان رسالة الفنان هي في صلبها مجانية وليست اخلاقية أي ان الفنان يعبر عن وجوده بكل حرية دون أن يضحي بفنه من أجل أي هــدف آخر : مال أو جاه او دعاية الخ ••• [وهذا لا يعني بالطبع انه لا يؤدي الى المال او الدعاية او الجاه ولكن دونما قصد •] والا لســقط الى درك التزييف ، ولجانب الابداع • وما كان محمد غني باعتقادي يتخذ من فنــه وسيلة وهو ما هو عليه من اخلاص وفناء بفنه •

اما بصدد فناني النحت الذين انصرفوا الى الرسم • فلا أحسب أن ذلك كان لمجرد الحصول على المال • فقضية التعبير الفني ، وبالتالي انتحار الفنان العقلي بتغييره خط سيره ليس من السطحية الى الحد الذي يكون بسبب جشع الفنان فحسب • وباعتقادي ان مثل هذه الظاهرة التي هي في جانب ما تمثل (ازدواجية) الفنان ومن الجانب الآخر (تصدعه) ، لمن مظاهر ازمة الفنان وهي أزمة عميقة الجذور ترتبط الى حد بعيد بمشكلة الابداع أكثر من أن تكون مجرد رغبة طارئة أو جشع راسخ • ان تحول الفنان عن فنه الى فن آخر ليس بالامر الهين الا اذا كان (هواية) • فهل يمكننا ان نجعل من جواد سليم أو خالد الرحال أو محمد الحسني وهم النحاتون العراقيون الثلاثة والذين أزدوج النحت والرسم في أعمالهم ، والذي صادف ان استعاض بعضهم بالرسم عن النحت لفترة ما من حياته الفنية • أقول هل يمكننا ان نعدهم من الفنانين الهواة ، أي الذين لا يتخذون من فنهم (قضية) جوهرية بل عرضية (اني افترض هنا الهواية بهذا المعنى) وهل اذا استبدل احدهم النحت بالرسم فلأجل الحصول على المال ؟؟

هذا لا اتفق فيه مع الاستاذ أكرم فالفنان بطبيعته محترف في عمـله الفني وليس بالهاوي ، والعمل الفني (دعوى) و (قضية) هامة تخص وجود الفنان وحريته معا وليس (مورد رزق) فحسب • وبهذا الاعتبار أيضا يمكننا أن نقيم فن الفنان وشخصيته •

شاكر حسن آل سعيد

حول الفاظ البنــات للاستاذ العلوجي

صدر العدد الثاني من مجلة « الاقلام » الغراء التي تصـدرها وزارة الثقافة والارشاد في الجمهورية العراقية وكان حقاً عـدداً رائعاً يجمع بين

دفتيه المقالات الرائعة والبحوث القيمة ، ولقد ازدان العدد بمقال غاية في العمق والروعة ذلكم هو :

« الفاظ البنات في اللغة والادب والمصادر الشعبية » للكاتب الفاضل الاستاذ عبدالحميد العلوچي ، وهذا المقال ان دل عى شيء فانما يدل على اصالة كاتبه وتعمقه وجده في تقصي المعلومات الى جانب ما امتاز به الكاتب من اسلوب ممتع جميل يستهوي القارىء فلا يدعه يفارقه بل ويتمنى لو انه استرسل في الكتابة فأطال وأطنب ، وتلك لعمري كلمة أقولها بعيدة عن التزلف والمداهنة نائية عن المحاباة فليس ثمة ما يربطني بالكاتب الاستاذ غير ما يكتبه على صفحات المجلات والجرائد ٠

ولقد جلبت انتباهي وأنا مسترسل في قراءة مقاله أو بالاحرى بحثه في ألفاظ البنات بعض النقاط التي تستوجب التعليق عليهـــا أو ردها الى أصلها الحقيقي الذي قيلت فيه ، ويمكننا تلخيص هذه النقـــاط حسب تسلسل الموضوع بالتسميات فيما يأتي :

١ ـ البنـات

أ ـ ذكر الاستاذ الكاتب من الفاظ البنات «بنات الحسن» فقال :

[مجموعة من قبور بعض النساء العلويات المشهورات بالزهد وهي تكاد تنتشر في أرجاء الجمهورية العراقية كالخالص وهيت وبغداد ٠٠٠ الخ]

وأحب أن أضيف فأقول :

لست أدري اذا كان في هيت مثل هذا الموضـــع انما الأكثر شيوعاً ومعرفة لدى الناس هي نقطة «بنات الحسن» الواقعة بين ناحية حديثـــة وقرية البغدادي في لواء الرمادي ولا تزال آثارها قائمة الى يومنا ، وكانت ملتقى العسس «الداوودية» الخارجة من حديثة ومن البغدادي ٠

ب ـ بنات العگرب : يقول الاستاذ « من الأمثال السامرائية ، يضرب للمرأة المئناث » ونقول : نعم قد يستعمل في سامراء بهـــذا المعنى لكنه يستعمل استعماله الصحيح في «حديثة» لوصف البنات العاقات أو البنين العاقين فيقولون « مثل بنات العگرب » تشبيهاً لهم بأفراخ العقرب الذين يقتلون امهن من أجل أن يعيشوا ٠

٢ ـ البنت

أ ـ بنت الصگلاوي : يقول الاستاذ في ذلك انها « فرس أصيلة لاتزال في حيازة حسين المطر في سامراء » ٠ ونحن نقول :

اننا مع الاستاذ في انها فرس أصيلة ، لكنها ليست منحصرة في بيت من البيوت أو مدينة من المدن فهي كما يقول العرب «رسن» أي أصل منتشر عند كثير ممن يقتنون الخيول في الماضي والحاضر كما ان (بنت) الصگلاوي ليست أصلا فالأصل هو «الصگلاوي» للحصان و «الصگلاوية» للفرس ولم يعرف هذا الأصل « بالبنت » وكما أن للصگلاوي بنـــات «فالحمدانيات»

«والكبيشات» ومفردها «الكبيشة» و «المعانج» وهي من الخيول الأصيلة المشهورة عند « البو عودة » من عشيرة الجغايفة في حديثة ـ وفرسها المعنكية والكحيلات وحصانها كحيلان وهي من أشهر الخيول العربية الأصيلة وفي هذا يقول الأمير عبدالله الرشيد أمير حائل سابقاً مفتخراً :

انا ولد علي سلايل كحيلان   ربي خلكني للمنايا وداعه

أقول لكل هؤلاء بنات ومنها الصكلاوي ٠

وعلى ما أعتقد أن من بين ما تسب للبنت من الخيول «بنت طاعوس» وهي من بين ماكان يقتنيه جدنا المرحوم ابراهيم الداود رئيس عشيرة آل جعفر في حديثة ولم تنحصر عنده فقط ومن بين ما اقتنى والدنا حصاناً صكلاوياً كما كان عند غيره أيضاً في حديثة ٠

٣ ـ البنية

أ ـ بنية باني : يقول الاستاذ « انه شيخ قبيلة البوباني في هيت » والحقيقة ليست كذلك فلا يوجد في البوباني من تسمى بهذا الاسم انما هناك (بنية باني) وهو اسم يطلق على المحل الذي كان يسكنه رئيس عشيرة البوباني والبنيات كانت تستعمل بكثرة سابقاً ٠

وأضيف فأقول لقد أهمل الاستاذ شيخاً بهذا الاسم هو الشيخ بنيه الجربه وهو شيخ من شيوخ شمر جربه في الجزيرة ومن فرسانها الصناديد الذي لايوجد من بين القبائل العربية وخاصة البدوية من يجهل اسمه حتى صار مضرباً للمثل في شجاعته ولقد خاطبه احد شعراء البدو بقصيدة بدوية دون أن يذكر اسمه الصريح «بنيه» مستهجناً ذلك فقال :

كوك وباسمك يا مروي شبا الزان ٠٠٠٠ الخ ٠

هذه ملاحظات عنت لي أثناء قراءتي لمقال الاستاذ الفاضل ، أحببت ذكرها لعل فيها تصحيحاً لسهو أو زيادة لمعنى ٠

رافع آل جعفر

تعقيب

لقد كان البحث [الفاظ البنات في اللغة والادب والمصادر الشعبية] للكاتب الباحث الاستاذ عبدالحميد العلوجي ، والذي نشر في الجزء الثاني من مجلة الاقلام الزاهرة ، قيما وماتعا ، من ناحية التاريخ ، ومن ناحية الطرافة ٠

ولاشك ان مثل هذا الموضوع الواسع ، لايتمكن ان يقوم به فرد واحد

مهما يملك من قابليات البحث والتمحيص والتدقيق ، مادامت هنالك تقاليد خاصة ، لقرية ، او مدينة ، لا أثر ولا وجود لها في مكان آخر من العراق ، لهذا فانني ارجو السادة الذين يعنون بمثل هذه الموضوعات ، ان يذكروا ما عندهم لهذا البحث ، حتى يتم تسجيل كل شاردة وواردة منه ، لكي نتمكن بعد هذا ان نطلب الى الاخ العلوجي طبع بحثه الطريف هذا في كتاب ٠

* * *

لقد مر على البال ، وانا اقرأ هذا البحث النفيس ، شيء مما لم يتعرض اليه الكاتب المحترم ، وهذا هو :

- « جاهله بنت نفاس » مثل شائع ، يقال للمرأة التي تحاول التقليل من عمرها ٠
- « بنيه حبابه » البنت المحبوبة لدماثة اخلاقها ٠
- بنت ساعتها ٠٠ الكلمة التي ينطق صاحبها بها عفوا ٠
- بنت الليل ٠٠٠ من اسماء البوم ، تتجنب النساء من ذكر اسم البوم ، فيطلقن عليها هذا الاسم ، كما يقلن « الحيل » ويقصدن الافعى ٠
- بنتايه ٠٠٠ فسيل النخل ، كما يسمى في بساتين لواء كربلاء ٠
- بنت الطول ٠٠٠ دملة مستطيلة تظهر بين اللحم والجلد ، عند ملتقى احد فخذي الفتى ببطنه ، لتشير الى بلوغه والى ان قامته ستطول بهذه المناسبة ٠
- « حجي البنات » ٠٠٠ اي كلام البنات ، ويطلق على اي حديث مفكك للرجل يدل على قصر النظر ، او التخنث ، او أي صفة لاينعت بها الرجال ٠
- « ابو حلك البنيه » ٠٠٠ اي صاحب فم البنت ، ويقال ذلك لمن يتغنج في كلامه ٠
- « ام البنين مدلله ٠٠ او أم البنات معللة » اى ان ام البنين مدلله وام البنات عليلة ، وهو مثل سائر ومنتشر في الالوية الجنوبية ٠
- « تشيل ابن بنتها ٠٠ وتكود ابن ابنها » ٠٠٠ اى تحمل ابن بنتها ، وتقود ابن ابنها ، ويضرب المثل لمن تحب ذرية بنتها أكثر من حبها لذرية ابنها ٠
- « بنت المكدي متصير مرت باشا » ٠٠ اى ان بنت الشحاذ لاتصلح ان تكون زوجة للباشا ٠
- « بنيه ٠٠ ولا خليه » ٠٠ اى ان الدار تكون فيها بنت أحسن مما تكون خالية من الذرية ٠٠ مثل تتعزى به الام التى ترزق بنتا ٠
- « البنيه تكنس ٠٠ والرجال يغرس » مثل شائع في الجنوب يشير الى ان عمل المرأة داخل بيتها ، وعمل الرجل في حقله ٠

- « البنيه بنت البيت كصت شعرها » .. اغنية شائعة غناها السيد محمد القبانچي قبل اكثر من ثلاثين عاما ، عندما انتشرت لاول مرة عادة قص الشعر عند المرأة بعد ان كانت تفخر بطوله ..
- « بنت السعلوه » و « بنت الشواك » و « بنت الحوته » .. من أبطال الحكايات الشعبية .
- « بنتي السبعه » او « بنتي السبعاوية » تقول الام لطفلتها عندما تريد منها ان تؤدي عملا ، والسبعة من السبع ، وهو الاسم الذي يطلقه العوام على الاسد .
- « البنت الحره ، الف رجال ما يكدر الها » .. البنت الحرة ــ النجيبة ــ لايتمكن منها الف رجل .
- « بنيه طافحة » .. بنت مراهقة لعوب .
- « بنت اربعطعش » ... وصف يطلق على الفتاة الجميلة ، اي انها البدر ليلة تمامه .
- « بنيه وكحه .. الف طابور عسكر ما يكسر عينها » ... بنت وقحة قوة الف « طابور » من العسكر لاتتمكن ان تثنيها عن رأيهـا او عن عملها .

الكاظمية : عبدالمهدي الفائق

تصــويب

ورد في الصفحة (١٢٧) من العدد الثالث سهوا : [تاريخ الصحافة العراقية ط : للاستاذ عبدالكريم العلاف] والصواب انه للاستاذ عبدالرزاق الحسني . لذلك اقتضى التنويه .

اســـتدراك

جاء في مقال الاستاذ عبدالحميد العلوجي عن الفاظ البنات ، بعد كلمة « بنت صور » امرأة اشتهرت في التاريخ باسم كارتيج .. وبعد الرجوع الى الاصل وجدت عبارة سقطت سهوا ، فتكون بنت صور كما في الاصل : هي مدينة قرطاجة ، التي أسستها امرأة اشتهرت في التاريخ باسم ديدو ، وهي أخت بيجماليون حاكم صور .

اضواء على السياسة العالمية

السياسة العربية

ثورة الثامن عشر من تشرين الثاني

في اليوم الثامن عشر من تشرين الثاني مرت الذكرى الأولى للثورة التي قادها المشير الركن عبدالسلام محمد عارف رئيس الجمهورية ضد التسلط الحزبي والانحراف الذي اصاب ثورة الرابع عشر من رمضان ·

ان ثورة الثامن عشر من تشرين هذه ما كانت الا لتصحيح الأوضاع التي تحكمت فيها الحزبية المقيتة التي أساءت الى كل مرفق من مرافق الدولة حيث وصلت الأمور من التدني الى حد لا يطاق وأصبح الأمر مكشوفا وأنذر بحروب أهلية بين أفراد الأمة الواحدة · ان الحرمات التي انتهكت والأموال التي سلبت والمقاييس التي اختلت كلها كانت تنذر بزوال الفترة العصيبة التي عاشها الناس ، وفعلا زالت تلك الفترة · ووضع الجيش حدا للمأساة واستراح الناس من فترة القلق وانتقلوا الى فترة اطمئنان طالما اشتاقوا اليها ·

من هنا برزت اهمية ثورة الثامن عشر ومن هنا برز الاحتفال بهذه الذكرى احتفالا شعبيا ساهمت فيه جموع الشعب من مختلف طبقاته اذ كانت نقطة تحول في حياة الناس نقلتهم من حياة الخوف والعزلة الى حياة الاطمئنان والعمل ·

ان الاحتفال الكبير الذي دعا اليه الاتحاد الاشتراكي العربي في ساحة الكشافة برهن بصورة قاطعة على مقدار ما يكنه ابناء الشعب لهذه الثورة من التقدير وما يحملونه لقائدها الرئيس عبدالسلام من الحب والاعجاب ·

وقد القيت بهذه المناسبة كلمات من الامين العام للاتحاد وكذلك تحية من رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة ·

ثم القى السيد رئيس الجمهورية خطابا استمر اكثر من ثلاث ساعات استعرض خلاله اهم الاحداث التي مرت بالجمهورية العراقية حتى ثورة الثامن عشر من تشرين الثاني واكد بصورة خاصة على المنجزات التى حققتها هذه الثورة في جميع الحقول ، ونوه بالقوانين الاشتراكية التي شرعت والخطوات الوحدوية التى تمت بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة واشار الى حياة الاستقرار التى حققتها هذه الثورة للمواطنين ·

فتحية لثورة الثامن عشر من تشرين الثاني وتحية لبطلها الرئيس عبدالسلام وصحبه الغر الميامين ٠

تأليف الوزارة الجديدة

وتم خلال شهر تشرين الثاني استقالة الوزارة التي يرأسها الفريق طاهر يحيى ، وتاليف الوزارة الجديدة برياسة سيادته كذلك وأهم ما يلاحظ على الوزارة الجديدة انها طعمت بعناصر من الشباب مارسوا العمل السياسي الثوري وآمنوا بالوحدة هدفا وبالاشتراكية منهجا وبالحرية سبيلا ٠

ان ابناء الشعب في الجمهورية العراقية يعلقون كبير الآمال على هذه الوزارة في تحقيق الحياة الافضل لهم ، فان الفريق طاهر يحيى بهمته وصبره ودأبه وحزمه لقادر على تحمل المسؤولية الكاملة وان الوزراء ، كل الوزراء ، لهم من ماضيهم وحاضرهم ما يؤهلهم لتحقيق اهداف الامة في العمل المثمر الذي يشعر به كل مواطن دون تمييز ٠

ولعل اهم ما ورد في كتاب التكليف الذي عهد به الى الفريق طاهر يحيى بتشكيل الوزارة موضوع المجلس الاستشاري الذي سيساعد الوزارة ويشاركها المسؤولية ويعينها بالكفايات والقابليات ونأمل ان يظهر التنظيم الجديد خلال ايام ٠

من الاحداث في العالم العربي

خلع الملك سعود وتنصيب الامير فيصل ملكا

لم يكن خلع الملك سعود عن عرش المملكة العربية السعودية مفاجأة كبيرة للمطلعين على بواطن الامور ، فقد ذكرت الانباء قبل الان ان الملك سعود لم يعد قادرا على تحمل مسؤولية الحكم في السعودية وكان الامير فيصل رئيسا للوزراء ويتمتع بصلاحيات واسعة باعتباره وليا للعهد ٠

ان الاسباب التي ادت الى خلع الملك سعود كما يظهر بعضها يتصل بأحداث اليمن وموقف سعود من المحادثات التي جرت بين فيصل والرئيس جمال عبدالناصر ٠

وبعضها يتصل بخلاف شخصي له علاقة بالسلطة وبعضها يتصل بأبناء سعود ورغبتهم في ان تكون ولاية العهد فيهم من بعده ٠

وبعضها يتصل بالملك سعود نفسه – اذ لازمه المرض – فأصبح لايقوى على امور الحكم في المملكة العربية السعودية ٠

ومهما يكن من الاسباب فان شخصية الملك فيصل وتمرسه في امور الملك ونظرته الواقعية وافقه الواسع كلها تبشر بأن المملكة العربية السعودية لابد ان تخطو على يديه خطوات كبيرة نحو التقدم والازدهار ٠

زيارة الرئيس موديبو كيتا الى الجمهورية العراقية

لقد كانت لزيارة الرئيس موديبو كيتا رئيس جمهورية مالي الى

الجمهورية العراقية آثار طيبة في نفوس المعقبين على السياسة العربية ،فان مثل هذه الزيارة مما يقوي اواصر الود بين دول افريقية الناشئة والعالم العربي ، وبخاصة فيما يتعلق بالموقف من اسرائيل ، فان اسرائيل بدأت بحملاتها ضد العرب في تلك المناطق من افريقيا والخطر الصهيوني مازال يستشري هذه وعلى الدول العربية ان تقوي من علاقاتها مع افريقيا ولا تترك للصهيونية منفذا في تلك المناطق المهمة من العالم .

السياسة العالمية

فوز الرئيس جونسون وغزو الكونغو

كانت النتيجة التي ادت اليها انتخابات الرياسة في الولايات المتحدة الامريكية بفوز الرئيس جونسون من الامور المتوقعة ، اذ نادى الرئيس الامريكي بسياسة التفاهم الدولي والتعايش السلمي وقال في احدى خطبه انه يسير على خطوات الرئيس الراحل كندي .

ان انتصار الرئيس جونسون انتصار للفكرة التي ينادي بها ، وبقي ان تأخذ هذه الفكرة حيز التطبيق فليس معقولا ان ينادي الرئيس الامريكي بالحرية وينتصر لهذه المناداة ثم نرى الطائرات الامريكية تستعمل من قبل المظليين البلجيكيين في غزو الكونغو .

ان العالم كله يستنكر مثل هذا العمل وبرقيات الاحتجاج تترى من كل نواحي العالم ، وشعوبها المحبة للسلام تستنكر اعمـــال البلجيكيين وتستنكر تأييد الولايات المتحدة لعملية الغزو في الكونغو .

ان مئات القتلى ذهبوا ضحية هذا العمل وظهرت اللافتات في عواصم العالم تنادي ان « ارفعوا ايديكم عن الكونغو ايها الغزاة »

قرار المجمع المسكوني

كل شيء كان يمكن ان يصدق الا ان تدخل السياسة في الدين فيصدر المجمع المسكوني وبعد الفي سنة من المسيح وثيقة بتبرئة اليهود من جريمة شنق السيد المسيح وصلبه .

ان المسلمين يعتقدون بأن اليهود قد شنقوا ما شبه لهم بأنه المسيح .
والمسيحيون يعتقدون ان اليهود قد شنقوا المسيح .
فما الذي جعل المجمع المسكوني يكتب هذه الوثيقة ؟

ان الصهيونية العالمية دخلت الكنيسة المسيحية وتدخلت في العقيدة المسيحية التي مات عليها الآباء والاجداد المسيحيون ليقولوا للناس ان دينكم منذ الفي سنة حتى هذه اللحظة كان غير صحيح وبتدأ التصحيح منذ ان قامت عصابات الصهيونية في دويلة اسرائيل ومنذ ان لعب المال اليهـــودي بكل مقدرات الدنيا فهل يرضى المسيحيون بهذه الجريمة الجديدة . الجواب لهـــم .